منتدى الفكر العربي
Arab Thought Forum
الانتماء والإنماء

المنتدى

مجلّة فكريّة ثقافيّة فصلية

العدد الممتاز المزدوج (٢٨٣- ٢٨٤) المجلّد ٣٥، خريف - شتاء ٢٠٢٢

مقالان لسمو الأمير الحسن بن طلال

اللغة العربيّة وآفاق العالميّة و اللغة العربيّة واستئناف مسيرتنا الحضاريّة

ملف خاص

الطاقة والأمن: تأثيرات الحرب الروسية الأوكرانية

Al Muntada

A Cultural Journal

Published every four months by

The Arab Thought Forum (ATF)

Amman - Jordan

المنتدى

مجلّة فكريّة ثقافيّة فصليّة

منتدى الفكر العربيّ

عمّان – الأردنّ

العدد السنوي الممتاز (٢٨٣- ٢٨٤)

المجلّد ٣٥؛ خريف – شتاء ٢٠٢٢

مدير التّحرير

كايد هاشم

مساعدة التّحرير

نداء الخزعلي

التّحرير اللغوي

محمد سلام جميعان

التصميم والإخراج الفنّيّ

ميساء خلف

لوحة الغلاف

للتشكيليّة الأردنية

غدير سعيد حدادين

الهيئة الاستشاريّة للمجلّة

أ. د. عدنان بدران
الأردنّ (الرئيس)

د. صلاح الدّين الزين
السودان

أ. د. صلاح جرّار
الأردنّ

د. عبد الحسين شعبان
العراق

دة. وجيهة البحارنة
البحرين

د. يوسف الحسن
الإمارات

اعتُمِدَت مجلّة «المنتدى»، ضمن قاعدة بيانات وملخّصات الدوريّات العلميّة العالميّة، في المركز الإقليمي للعلوم والتكنولوجيا في شيراز/إيران، وذلك وَفْقاً للمؤشّرات العلميّة المتّبعة لدى مركز المراجع الإسلاميّة الدوليّة، بحسب ما أقرّته المنظمة الإسلاميّة للتربية والثقافة والعلوم (الإيسيسكو) في المؤتمر الرّابع لوزراء التعليم العالي (تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٠٨)، وهي مؤشّرات تتعلّق بتصنيف الأداء البحثيّ في البلدان الإسلاميّة.

الآراء الواردة في المجلّة لا تُعبّر بالضّرورة عن رأي منتدى الفكر العربيّ

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة (٢٠٠٣/١٣/د)

إرشادات مهمّة لكُتّاب المجلّة

- تستقبلُ المجلّةُ الدّراساتِ المتعمّقةَ والمقالاتِ الفكريّةَ والمراجعاتِ النّقديّةَ الرّصينةَ لكتبٍ عربيّةٍ وأجنبيّةٍ صادرة حديثاً.
- يُعدّ أعضاء المنتدى حُكّماً مراسلين للمجلّة في أقطارهم.
- يسرّ المجلّةَ أنْ تنشر تقارير أعضاء المنتدى عن أنشطتهم الفكريّةِ والثّقافيّة؛ إضافةً إلى تقاريرهم عن أيّ أحداث مهمّة يُتابعونها في أقطارهم.
- تخضعُ كلُّ مساهمة للتقييم.
- يُشترط أنْ لا يزيدَ طولُ المادّة المقدّمة للنّشر على عشرين صفحة (مقاس A4)، وأنْ تكونَ مطبوعةً على الحاسوب (الكمبيوتر).
- يُرجى إرسالُ المادّة بالبريد الإلكترونيّ.
- يُشترط أنْ تكونَ المادّة غيْرَ منشورة أو مقدّمة للنّشر إلى أيّة جهة أخرى.
- يُرجى من الكاتب ذكرُ عنوانه، بما في ذلك رقم الهاتف والبريد الإلكترونيّ والنّاسوخ (الفاكس)؛ كما يُرجى موافاتُنا بسيرته الموجزة.
- يُرجى العناية بالأسلوب وبمستوى اللّغة عنايةً خاصّة. وستعتذر هيئة التحرير عن قبول المواد التي لا يتوافر فيها الحدّ الأدنى من العناية باللغة.
- تحتفظُ هيئةُ التّحرير بحقّها في إجراء التّعديلات الملائمة على الموضوع المقدّم.
- تعتذرُ الهيئةُ عن عدم إعادة المَوْضوعات التي لا تُقبل للنّشر إلى أصحابها.
- يُمنح الكاتبُ مكافأةً رمزيّةً على مساهمته.

دعوة للمشاركة بالدراسات والبحوث المحكّمة في المجلّة (ص ٢٧٦)

منتدى الفكر العربي

ص ب ١٥٤١
عمّان ١١٩٤١ الأردنّ
تلفون: ٥٣٣٣٢٦١/٥٣٣٣٦١٧/٥٣٣٣٧١٥ (٦- ٩٦٢+)
ناسوخ (فاكس): ٥٣٣١١٩٧ (٦- ٩٦٢+)

Arab Thought Forum (Atf)

P. O. Box: 1541
Amman 11941 Jordan
Tel: (+962- 6) 5333261/5333617/5333715
Fax: (+962- 6) 5331197

E- mail: *atf@atf.org.jo*
URL: *www.atf.org.jo*
facebook.com/atf.jordan

المحتويات

العدد السنوي الممتاز (٢٨٣- ٢٨٤)

- **مدخل: التجديد وحياة الفكر** (مدير التحرير) ٥
- **قطوف دانية** (مقالان لسمو الأمير الحسن بن طلال)

- **اللغة العربيّة وآفاق العالميّة** ٩
- **اللغة العربيّة واستئناف مسيرتنا الحضاريّة** ١٣

- **ملف خاص: (الطاقة والأمن: تأثيرات الحرب الروسية الأوكرانية)**

- **أثر الحرب الروسية الأوكرانية على أسواق النفط وأسعاره**
(د. م. عصام الجلبي) ١٩
- **التأثيرات الاقتصادية للأزمة الروسية-الأوكرانية ومستقبل الطاقة**
(د. محمد أبو حمّور) ٤٥
- **التحديات الأمنية في قارة آسيا ودور مؤتمر التفاعل وبناء تدابير الثقة CICA في تعزيز الأمن الجماعي في القارة**
(د. عادل العضايلة) ٥٣

- **آفاق الفكر**

- **خطاب النهضة في الفكر العربي المعاصر .. زكي نجيب محمود أنموذجاً** (د. سعيد بوعيطة) ٧٣
- **لعبة اللغة: رحلة الإنسان مع المعنى** (د الصادق الفقيه) ١٠٧
- **في المتخيَّل والمتخيَّل الديني** (حنان البوعمري) ١٣١
- **المنهج والمنهجيّة عند ريتشارد سويدبيرغ** (عبد الإله فرح) ١٥٣

- **دراسات ومقالات**

- **الوطن الأيقونة: لبنان أنموذجاً بين التراث والحداثة والإشعاع الفكري الحضاري**
(ماجدة داغر) ١٦٣
- **مستقبل الدور الأوروبي تجاه القضايا العربية الراهنة**
(د. غازي فيصل حسين) ١٧١
- **الديمقراطية التوافقية الدستورية طريق التسوية الدائمة في الوطن العربي**
(عبد الحميد سيف الحدّي) ١٨٩

- **رسائل ثقافية**

رسالة الأردن

- وثائق الاستقلال وإعلان المملكة الأردنيّة الهاشميّة
(محمد يونس العبادي) **١٩٩**

- الذاكرة الوطنية والرواية الشفوية في الأردن
(نداء الخزعلي) **٢٠٩**

رسالة مصر

- الطبيب والمفكر وعالم المصريات/حوار مع الأستاذ الدكتور وسيم السيسي
(حاورته: شيرين نبيل) **٢١٣**

رسالة كندا

- خطبة الهندية الحمراء إلى نساء فلسطينيات للشاعرة الكندية لي مراكل
(تقديم وترجمة: جاكلين سلام) **٢٢٥**

- **كتب ومراجعات ونقد**

١- قراءة في مختارات من المُنجَز العلمي للأستاذ الدكتور صلاح جرار
(أ.د. أيمن محمد ميدان) ٢٣٥

٢- مناقشة فكرية حول كتاب «دين العقل وفقه الواقع» للدكتور عبد الحسين شعبان
(م. سمير الحباشنة) ٢٤٢

٣-«خارج المكان» لإدوارد سعيد .. حكاية الارتحال والمنفى
(قراءة وتعليق: سمير أحمد الشريف) ٢٤٧

٤- قراءة في كتاب «أزمة الثقافة الإسلامية» تأليف: الدكتور هشام جعيط
(قراءة وتعليق: يوسف عبدالله محمود) **٢٥١**

٥- رحلة من منائر بابل إلى هيروشيما
(نادية الزقان) ٢٥٤

٦- «النبطيّ المنشود» عندما يكون المكان بطل الرِّواية تأليف: صفاء صبحي الحطاب
(مجدولين أبوالرُّب) ٢٦٣

- **دعوة للمشاركة بالدراسات والبحوث المُحكّمة في المجلّة** ٢٧٦

مدخل

التجديد وحياة الفكر
من وحي الذكرى الأربعين لتأسيس منتدى الفكر العربي (١٩٨١ - ٢٠٢١)

كايد هاشم
القائم بأعمال الأمين العام

يبدأ تاريخ مؤسسات الفكر والثقافة من تكوّن نسيج الأفكار والمبادىء التي مهدت لنشوئها بحسٍ استشرافيٍ عالٍ يقيم الرؤى المؤسِّسة لها على أسسٍ من الإيمان بدور الفكر والعلم، والمسؤولية الأخلاقية والإنسانيّة في الحفاظ على أسباب الحياة والنماء، وعلى تعزيز الهوية في تحقيق الانتماء، وتدعيم كيان المجتمع والأمّة بعناصر الوعي والاستمرارية تجديداً وتطوراً وتقدّماً.

إن تجربة منتدى الفكر العربي، أقدم مؤسسات الفكر العربية، والذي بدأ هذا العام الولوج في العقد الخامس من عمره بعد مسيرة أربعين عاماً (١٩٨١-٢٠٢١) على الساحة الفكرية العربية، هي مسيرة حافلة وملموسة الأثر لا شك بما لها من ثمار الفكر والتواشج مع الحياة العربية في مختلف حقول التنمية وقضاياها، اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً وبيئياً وسياسياً، وبما أنجزته من إدامة التشبيك وفتح قنوات الحوار مع المحيط الدولي، وتجسير العلاقة بين المفكرين وصانعي القرارات وما يصنعه هذا التجسير من توعية المواطن وصانع القرار بالأفكار والتصورات التي تُبنى عليها المواقف العملية المرتبطة بأولويات الوطن العربي للانتقال من حالة التلقي إلى حالة التفاعل بين هذه الأطراف.

ثم وفي ذات السياق الربط بين الفكر والمواطنة، من حيث تجسيد المجتمع المدني لها، وكل ذلك عبر قنوات من التواصل تتمثَّل في مشروعات متوالية ومئات الأنشطة والإصدارات، شهدتها هذه العقود الحافلة أيضاً بالتغيّرات والتحوّلات في الوطن العربي، وأسهمت في بلورة تلك الفعاليّات مئات من العقول العربية من أطياف فكرية متعددة، قدَّمت من معين علمها وفكرها وخبراتها رؤى تنويرية ومعالجات عميقة ونتائج جهود بذلتها في البحث والدرس.

وتتجلى سمات التشاركية والطموح الصادق لمأسسة العمل الفكري وضمان الاستمرار والتجدّد له لأداء دوره المنشود، وإبقاء استشعار المسؤولية عن أداء هذا الدور والنهوض به، منذ المراحل الأولى لتأسيس المنتدى عام ١٩٨١ عقب مؤتمر القمة العربي الحادي عشر في عمّان، ولا سيما في ما نطالعه من وثائق التأسيس وخلاصات الحوارات التي بادر إلى الدعوة إليها وقادها صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال، حفظه الله ورعاه، انطلاقاً من مدينة العقبة الأردنية ثم العاصمة عمّان، وفيما بعد العديد من العواصم والمدن العربية، مشرقاً ومغرباً، التي استضافت مؤتمرات للمنتدى وندوات واجتماعات لمجالس الأمناء والهيئة العمومية، وشارك في كل هذه اللقاءات والملتقيات نخبٌ عديدة من المفكرين والعلماء والمثقفين والقياديين التنمويين من مختلف الأقطار العربية، وسواهم من العالم الإسلامي وسائر أرجاء العالم.

واستمرت الوتيرة متصاعدة خلال الأعوام اللاحقة، عاماً بعد عام، رغم ما اعترى الواقع العربي العام والعمل المشترك من ظروف دقيقة وأوضاع متباينة في شدّة تأثيرها وكثافة ظلالها، غير أن روح التجديد ظلّت مضيئة بالأمل ووضوح الرؤية، تنبعث في مبادرات سمو الأمير الحسن بن طلال، رئيس المنتدى وراعيه، والمشروعات الفكرية وجهود الأعضاء والباحثين والمشاركين في أعماله كافة من مؤتمرات وندوات وحوارات ولقاءات ومحاضرات وإصدارات، وغيرها من الأنشطة التي لم تنقطع منذ ذلك الحين.

والأمثلة كثيرة على مدى العقود الأربعة الماضية، لا تتسع مساحة هذه الكلمة لروايتها أو حتى الإشارة إليها، لكن صورتها تعبِّر عنها الكلمة الضافية التي تفضل بها سموّه في افتتاح الاجتماع السابع والعشرين لهيئة المنتدى العمومية، عبر تقنية الاتصال المرئي (١٣/١/ ٢٠٢٢)، وقد استهلها بالدعوة إلى «**تجديد الخطاب الفكري العربي من خلال صنع السياسات المبنيّة على الأدلّة، وتعزيز الفكر النقدي التحليلي، وفتح الحوار المسؤول الذي لا يُذهب للموضوعية قضية**». **ونوّه سموه بأهمية الحديث في السياسات الجامعة، والتفكير في مستقبل الفكر وما يشترط له من التفنُّن في معالجة القضايا المهمة، ودون تحييد ضرورة القبول بمساحة الاختلاف التي «تؤدي إلى توليد أفكار أكثر ترابطاً وفعالية». ولفت إلى أن الشباب العربي، عنصر التجديد وموضوع المستقبل، أصبحوا بحاجة في ظلّ التقدّم الهائل في وسائل التواصل والاتصال الحديثة إلى «عرض جديد للمفاهيم وتوظيف العلم للانتقال إلى ساحة العمل»**.

إنها مسيرة تؤكد معطياتها أهمية العمل الفكري والعلمي المنهجي الذي يؤدي، بمصادره الفرديّة والجماعيّة المؤسسيّة على السواء، دوراً جذرياً في الحياة بوصفه عماداً للتطور الاجتماعي والثقافي والحضاري، والأداة العقلية الفُضلى للبحث والتعامل مع مشكلات الواقع بالتبصُّر المُدقِّق في الأسباب والنتائج، والذي يمتلك القدرة على النّفاذ إلى أعماقها وآفاقها، بحثاً عن السُبل الأجدى لعبور حواجز التحديات، وإبداع التصوّرات والحلول وابتكار الوسائل لذلك، وصولاً إلى ترسيخ مداميك الإصلاح وبناء مقوّمات التحديث في سياق التخطيط لمستقبلٍ، قريبٍ أو بعيد، يستجيب لطموحات الشعوب العربية ودولها وتطلّعات الأمّة بمجموعها في أن تنهض وتحيا الحياة اللائقة بها وبمكانتها الحضارية بين الأمم؛ بمعنى الحياة الحقيقي وسنّتها في التطور والتجديد.

فلا يختلف اثنان على أن فاعلية الفكر وقوة تأثيره ومداها تستمدُ خصائصها من خصائص الحياة نفسها، فالتجديد عنصر استمرارية مضاد للجمود والخمول، كما هو يمثل نسغ التشابك مع القضايا الأساسية للمجتمع والعالم الإنساني، وركيزة للوعي الحرّ والنظرة الشمولية المستوعِبة، التي تُكسِب الفكر ميكانزم الحيوية والانفتاح على محيطه الأقرب والأوسع، وتنأى به عن الانعزال والعزلة، وتجعل من التجاوب والإيجابية ديدناً له في استيفاء متطلبات المعالجة الحصيفة لتلك القضايا، بما فيها من علاقات متشابكة، وتداخلات معقَّدة في عالمٍ يتسم بسرعة التغيُّر والتقلُّب والتصادم بين تياراته أو التباعد والتناحر بينها.

إنَّ فضيلة الفكر وفي الوقت نفسه الخاصية الأسمى له، تتجلّى في سعيه إلى تحقيق التماسك الاجتماعي والإنساني، الداخلي والخارجي، مبنياً على نعمة العقل والتفكير التي وهبها الخالق، عزّ وجلّ، للإنسان واستخلفه في الأرض لإعمارها، فمن دون قيم التماسك والتعاضد والتعاون البشري في إطار الحوار المتكافىء واحترام الموضوعية ونزاهة الرأي، لا حياة على هذه الأرض ولا كيان متماسك لمجتمع أو أمّة أو عالم إنساني يحقق فيه الفرد والجماعة ذاتهما ومعنى وجودهما وكرامة حياتهما الإنسانية.

مقالان لسمو الأمير

الحسن بن طلال

اللغة العربيّة وآفاق العالميّة

و

اللغة العربيّة واستئناف مسيرتنا الحضاريّة

اللغــة العربيّــة وآفــاق العـالميّــة

الحسن بن طلال*

يقول شاعر النيل حافظ إبراهيم:

أَنا البَحرُ في أَحشائِهِ الدُرُ كامِنٌ فَهَل سَأَلوا الغَوّاصَ عَن صَدَفاتي

نستذكر هذا البيت، الذي يمرّ هذا العام ١٥٠ عامًا على مولد قائله، والعالم يحتفي باليوم العالمي للغة العربية، الذي يوافق الثامن عشر من شهر كانون الأول (ديسمبر) من كل عام، وهو اليوم الذي اتخذت فيه الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام ١٩٧٣ قرارها التاريخي باعتماد اللغة العربية لغة سادسة في المنظمة.

تمثّل اللغة من الناحية الوجدانية والشعورية روح الأمة. أما من الناحية الثقافية والحضارية فهي الوسيلة الناقلة للأفكار والمعرفة والتقاليد والخبرات عبر الأجيال المتعاقبة في تاريخ الأمم والشعوب. ولا يمكن أن ينمو التفكير من غير اللغة. فاللغة هي التي تمدّ الفرد بالألفاظ التي تطلق

* رئيس منتدى الفكر العربيّ وراعيه.

على المعاني الكليّة، وهي التي تمكنه من السموّ بفكره من المحسوسات إلى المجردات، وربط المعاني الكلية بالألفاظ الدالة عليها والتمييز بين أسماء الأشياء وأسماء الأجناس.

اللغة هي وعاء للفكر وأداة للتفكير. فهي وسيلة التفاهم والتواصل الاجتماعي. ولكنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالأفكار التي تنقلها وتتأثر وتؤثر بها. يقول الفيلسوف الألماني فشْته: إن اللغة تؤثر في الشعب الذي يتحدث بها تأثيرًا لا حد له، يمتد إلى تفكيره وإرادته وعواطفه وتصوراته، وإلى أعماق أعماقه، وإن جميع تصوراته تصبح مشروطة بهذا التأثير ومتكيّفة به.

نحن دومًا في حاجة إلى التفكّر في واقع لغتنا وطرائق النهوض بها وتقديم الدعم لها بكافة السبل. ولا ريْب في أن لغتنا العربية جديرة بأن نبذل المزيد من أجل أن تبقى حيّة على الألسن؛ حاضرة في الأقلام؛ سامقة في مكانتها بين غيرها من اللغات العالمية. فاللغة، بالنسبة لنا، لا تنفصل عن الانتماء لديننا وحضارتنا وهويتنا.

وتنبئُ مسيرة اللغة العربية في العصر الراهن بأنها آخذة في التطور والانتشار، حيث نجد اتساع نطاق استعمالها، وازدياد نسبة التعليم بها، واستيعابها في مصطلحاتها لمعظم منجزات العصر الحديث، وتقنيات التقدّم العلمي. إن خير سفير للغة العربية اليوم هو تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها بسبب زيادة الرغبة لدى الأفراد والشعوب في مشارق الأرض ومغاربها في تعلم اللغة العربية.

وقد رافق ذلك مظاهر تأثير الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي في اللغة العربية، وما نجم عن ذلك من مشكلات لغوية. كما زاد اهتمام الباحثين

الجادين في مجال حوسبة اللغة العربية الذي يحظى باشتغال الحاسوبيين واللسانيين، ويواجه تحديات كبيرة في مجال التطوير وتوفير الموارد والتقنيات الضرورية.

لا بد من تعزيز التفاعل بين اللغة العربية والعلوم الحديثة الأخرى في التدريس والبحث والتأليف والترجمة. بذلك، تواكب اللغة العربية العصر التكنولوجي الراهن باستيعاب المفاهيم والمصطلحات العلمية الحديثة.

نشهد اليوم عصر الاتصالات والمعلومات، والمعرفة، والحكمة، والترفيه الذي نواجه فيه تحديات جمّة، ويفتح أمامنا في الآن نفسه آفاقًا واسعة. وإذ يقف العالم على أعتاب عصر الثورة الصناعية الخامسة، التي تُركّز على دمج التكنولوجيا الحديثة مع الذكاء البشري بدرجة أكبر ممّا كانت عليه في الثورة الصناعية الرابعة، فإن الثورة الصناعية الخامسة تهدف إلى إقامة علاقة أكثر توازنًا بين التقنيات الحديثة والإنسان. عندئذ، يكون الاعتماد على استخدام الذكاء الاصطناعي والبيانات الضخمة وإنترنت الأشياء بشكل متصاعد مع التركيز على استعمال الذكاء البشري أيضًا بشكل كبير. بذلك، يتحقق الجمع بين الذكاء الاصطناعي في تنفيذ الأعمال ذات الطبيعة المتكررة والذوق الإبداعي للإنسان.

لا شك في أن هذه الثورة ستُسهم في اتساع نطاق العمل عن بُعد بشكل كبير وستزيد من التفاعل بين الروبوتات والبشر وسيكون للتقنيات المستخدمة ضرر أقل على الإنسان والبيئة.

وأخيرًا، يذكرنا اليوم العالمي للغة الضاد بضرورة تكثيف الجهود في سبيل الاستمرار في إغناء الاستعمالات المختلفة للغة العربية وتشجيع

الترجمة منها وإليها. وإذ نعيش حقبة زمنية اختلطت أحوالها وانقلبت موازينها، ما أثّر سلبًا في واقعنا السياسي والاجتماعي والفكري والثقافي، حتى إن الأمر طال لغتنا وحضارتنا ومسّ - في الآن نفسه - هويتنا، فإنه يعوّل علينا كثيرًا في إنصافها، ويؤمّل فينا الذّوْد عنها والدفاع عن حياضها، وعلى قَدْرِ أهلِ العَزمِ تأتي العَزائمُ.

اللغة العربيّة واستئناف مسيرتنا الحضاريّة

الحسن بن طلال*

اللغة في سياقها الروحي والثقافي هي هبة من أعظم الهبات التي أنعم الله بها على الإنسان وبها امتاز عن الملائكة وسائر الكائنات. وهذا ما يشير إليه القران في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣١) فقد أودع الله القدرة في الإنسان على تعلّم الأسماء وابتكار أسماء للأشياء التي تُعرض أمام حواسّه أو للمعاني التي تلوح في عقله ووجدانه.

فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يملك القدرة على البيان وترجمة أفكاره ومشاعره وخبراته ونقلها للآخرين. وهذا من مظاهر التكريم التي خصّها الرحمن بالإنسان كما يقول تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن:١-٤).

جعل الله لكل فصيلة من الكائنات الحية لغة واحدة وكذلك الأمر لكل قانون من القوانين الطبيعية، بينما اقتضت حكمة الخالق بأن يجعل لكل أمّة من الناس لغةً ولساناً مختلفاً ومتميزاً عن غيرها، كما يقول الخالق عزَّ وجلَّ في صريح التنزيل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: ٢٢)

ذهب بعض الفلاسفة إلى أن الإنسان عاجز عن التفكير خارج اللغة، وبعضهم ذهب إلى وجود علاقة جدلية بين الفكر واللغة مفادها أن «الفكر

يصنع اللغة وهي تصنعه»، وهذا يعني أن جمود الفكر يعطّل نموَّ اللغة وتطورها؛ وأنه لا بد لكل لغة أن تتطوَّر لكي تعبِّر عن انشغالات أهلها وآدميتهم وتطلعاتهم الفكرية وحرياتهم المنضبطة.

ليست جميع اللغات على مسافة واحدة من حيث استيعاب تطور الأفكار أو التعبير عن المشاعر. وهنا يمكن القول إن أبدع اللغات وأرقاها هي تلك التي تُعبر عن مشاعر الإنسان المرهفة وأفكاره المركبة. وهنا ندرك فرادة اللسان العربي والعلّة وراء اصطفاء الله تعالى لهذه اللغة لتكون رحِما للوحي الإلهي المبين ومِهاداً لرسالته الخاتمة للعالمين.

لا تُهدد معرفة اللغات الأخرى وإتقانها وعينا بقيمة لغتنا الأم أو رفعة مكانتها، كما لا تقتصر أهمية تعلّم لغات الشعوب الأخرى وفق مقولة «أمن مكرهم»، فحاجتنا إلى ذلك تنبع من حاجاتنا الحضارية المتواصلة للتعلّم من تجارب الآخرين والبحث عن إبداعاتهم المعرفية في مختلف المجالات. وأستذكر هنا عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، في كتابه «لحظات» الذي كان يعتبره وسيلة لتحقيق حالة من الاندماج بين الشّرق والغرب، حيث دوّن فيه اللّحظات الأدبيّة التي عاشها أيّام شبابه بين الأدباء في الغرب، وبين القُرّاء في الشّرق. وكان طه حسين يؤمن أنه لو تم تناول هذا الكتاب من قِبل القُرّاء عن فهم، سيؤدي إلى نشر المودّة، والتفاهم بين شعوب العالم العربي والغربي.

وقد أعطى القرآن الكريم للغة العربية روحاً جديدة وألقى عليها ثوب الخلود، فكان حِفظ اللغة العربية هو من حِفظ الله لكتابه الذي تعهَّد به. فلا سبيل لفهم القرآن وتعقُّل معانيه دون فهم اللغة العربية ودراسة أساليب بيانها. وهكذا ورغم كل المحن والأزمات التي مرّ بها العرب ما زالت اللغة العربية تحافظ على وجودها وسحر جمالها.

يحث القرآن الكريم على ضرورة الانسجام بين بلاغة الأقوال وحُسن العمل والسلوك وعدم التباين بين القول والفعل، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢، ٣).

اللغة العربية هي أكثر من لغة لسان فهي وجدان العرب وعقلهم ومستودع فكرهم وذاكرتهم، وهي الرباط الجامع الذي يصل بين أبنائها في الحاضر والماضي. ولم تكن العربية مجرد لغة شعر وأدب ودين، فقد أصبحت لغة فلسفة وعلوم وانفتحت على الثقافة اليونانية والفارسية والهندية منذ حركة الترجمة وتأسيس بيت الحكمة في زمن المأمون.

لقد أسهم الإسلام في الحفاظ على اللغة العربية وانفتاحها على دروب العالمية، فقد جذب الإسلام شعوباً كبيرة عشقت العربية كعشقها الإسلام، فكتبوا فيها علومهم ودونوا أشعارهم وألّفوا المجلدات الضخمة في الأدب والطب والفقه والفلسفة والفلك والرياضيات، تماماً كما فعل ابن سينا والفارابي والبيروني والبخاري ومسلم والترمذي، وغيرهم.

ليست مشكلة اللغة العربية في عدم قدرتها على التطور، وإنما بالأفكار النمطية التي يحملها بعض أبنائها، وعدم شعورهم بحرقة السؤال عقب إجابة «لا أعرف». جاء في كلمة الشاعرة البولندية فيسوافا شيمبورسكا في أثناء تسلّمها لجائزة نوبل في الآداب «لا أعرف.. كلمتان لهما جناحان. لو أن نيوتن لم يقل لنفسه لا أعرف، كان في أحسن الأحوال سيلتقط التفاحة ويأكلها». ولطالما كانت العربية لغة الدين والدنيا والثقافة والفكر، وهي كذلك أول الجوامع التي يلتقي عليها أبناء الضمائر الحيّة، وكما يقول الرصافي:

«وتجمعنا جوامع كبريات أولهنَّ سيدة اللغات».

لا بد لنا أن ندرك طبيعة الأزمة الحضارية التي تعيشها مجتمعاتنا العربية وغير العربية وأثرها في إضعاف اللغة العربية كوسيلة للاتصال. وحيث إن اللغة العربية قد اعتُرف بها لغةً رسمية في الأمم المتحدة، فيجب مضاعفة الجهود للحفاظ على التراث النوعي في مجتمعاتنا العربية في الموطن والمهجر، وتطوير النظم التعليمية والقوانين والتشريعات التي تحفظ التراث واللغة العربية في مجتمعاتنا المعاصرة. وعلى المستوى العالمي يجب العمل على تعزيز حضور اللغة العربية في الثقافة والأدب العالمي، وتكثيف الحضور المعرفي العربي في شبكة البحث العالمية.

إن نهضة الشعوب تبدأ عندما تثق بذاتها وتعتصم بلغتها وتعمل على تطوير معارفها وآدابها وتضافر جهود أبنائها جميعاً. وهنا يجب الإشارة إلى ما قام به العرب، مسلمين ومسيحيين، في عصر النهضة العربية الحديثة من النهوض باللغة العربية وعلومها، وسعيهم نحو إقامة المؤسسات التعليمية وإصدار الصحف والمجلات باللغة العربية، وقد استمدوا إبداعهم من إيمانهم العميق بمركزية اللغة العربية في مشروعهم النهضوي؛ ولا ننسى أولئك الذين دفعوا ثمن قناعاتهم عبر التاريخ المعاصر في سبيل إبداء الرأي وتبرئة الضمير.

واليوم، ورغم كل الصعوبات التي تحيط بنا ونحن على مشارف العام الجديد لا بد أن نؤمن ونثق بمقومات هذه الأمّة وقدرتها على صناعة مستقبل أفضل ينهض بمجتمعاتنا ويدفعنا نحو استئناف مسيرتنا الحضارية.

ملف خاص

(الطاقة والأمن: تأثيرات الحرب الروسية الأوكرانية)

- **أثر الحرب الروسية الأوكرانية على أسواق النفط وأسعاره**
(د. م. عصام الجلبي)

- **التأثيرات الاقتصادية للأزمة الروسية-الأوكرانية ومستقبل الطاقة**
(د. محمد أبو حمّور)

- **التحديات الأمنية في قارة آسيا ودور مؤتمر التفاعل وبناء تدابير الثقة CICA في تعزيز الأمن الجماعي في القارة**
(د. عادل العضايلة)

أثر الحرب الروسية الأوكرانية على أسواق النفط وأسعاره*

د.م. عصام الجلبي**

مقدمة

لم تنضج بعد الصورة النهائية لشكل الصراع بين روسيا والناتو خاصة بعد القرار الذي اتخذته فنلندا للانضمام إلى الناتو وتبعتها لاحقاً السويد ... وكانت فكرة انضمام أوكرانيا للناتو ربما هي السبب في تأجيج الصراع أصلاً، وعليه؛ فإن الأيام والأشهر أثبتت أنها حُبلى بمزيد من التعقيدات السياسية والعسكرية والاقتصادية وليس كما كان البعض يتوقع من أن تستطيع القوات الروسية اجتياح أوكرانيا بالكامل خلال أسبوع أو اثنين.

لقد تغير النظام الجيوسياسي عالمياً بشكل عام وأوروبا بشكل خاص عقب الغزو الروسي وأجبرت الحكومات والشركات في العالم عموماً على إعادة النظر باستراتيجياتها وخططها من حيث أهمية أمن الطاقة وتوفيرها لمستهلكيها والحاجة لتغيير/تنوع مصادر الاستيراد/التصدير، وكانت العقوبات التي فرضتها أمريكا وأوروبا ودول متحالفة أخرى من أشد العقوبات الاقتصادية والمالية والمصرفية التي تم فرضها منذ الحرب العالمية الثانية.

مجريات الحرب والعقوبات وانعكاساتها أثرت بشكل واضح على أسواق الطاقة وتعطي الأجيال القادمة شعوراً بعدم الاطمئنان في أسواق كانت أساساً - وقبل الغزو- متقلبة أسعار النفط والغاز وكثير من السلع والمواد الأساسية الأخرى وخاصة الغذائية منها والطاقة إضافة للأسهم المتداولة في البورصات

---

* محاضرة قُدِّمت في لقاء حواري مشترك بين منتدى الفكر العربي والمعهد العالمي للتجديد العربي، عقد عبر تقنية الاتصال المرئي بتاريخ ٢٠٢٢/٥/٢٢.

** عضو المنتدى ووزير النفط العراقي الأسبق.

العالمية للعديد من الشركات ... وذلك كله أدى إلى تسارع ملحوظ في زيادة التضخم على مستوى العالم.

وعليه؛ فإن ما يجري حالياً هو محاولة الحكومات والشركات لإعادة النظر بهيكلية انتقال الطاقة من المنتجين إلى المستهلكين وخاصة ما يتعلق بحركة النفط والغاز الروسي، وهذا سيؤدي إلى إعادة ترتيب سياسي واقتصادي ضمن تحالفات أخرى قد يشهدها العالم كتحالف أكثر متانة بين روسيا والصين والذي يمكن أن يمثل تحدياً كبيراً للنظام العالمي الذي تقوده أمريكا.

فالبرغم من أن العالم قد تأثر بسرعة بضوء حجم الآثار السلبية للغزو فإن هناك أثاراً متوسطة وطويلة المدى لم تُحسم بعد قد تشكل زلزالاً هائلاً، خاصة بعد أن تفاجأ الكثيرون بما تحتويه كل من روسيا وأوكرانيا من إمكانات هائلة يحتاجها العالم في مجال الطاقة والصناعة، والأهم من ذلك المواد الغذائية الأساسية وخاصة الفحم والزيوت وغيرها.

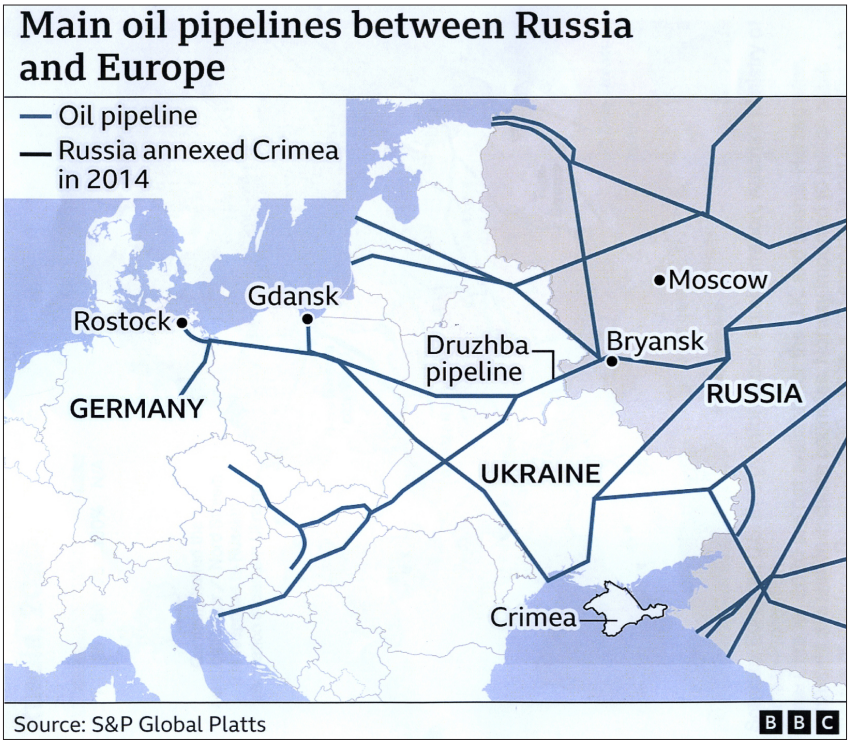

أسواق الطاقة

تتأثر أسعار النفط (الخام - مشتقات - غاز) بالعديد من العوامل سواء المتعلقة بأساسيات السوق وخاصة العرض والطلب، أو لاعتبارات إنتاجية سواء ما هو فني أو اقتصادي أو سياسي، وينطبق الحال على موضوع الصادرات.

(وهنا لا بد من التأكد على أن ما يصدر من أرقام كسقوف أو حصص إنتاجية لدول الأوبيك هي أرقام الإنتاج لكل دولة وليس التصدير).

وبالتالي فإن نشوب حرب في أي بقعة في العالم سيؤثر حتماً على أسعار النفط وإن كان لا يؤثر حقيقة على كميات الإنتاج/ التصدير... وبالتالي فإن حرباً كالحرب الروسية الأوكرانية قد أثرت وستؤثر على الأسعار بشكل كبير، خاصة وأن روسيا هي ثاني أو ثالث أكبر دولة منتجة من النفط الخام وأكبر دولة مصدرة للغاز الطبيعي.

ونشير هنا إلى أن إنتاج النفط الروسي حسب حصة تحالف أوبك ١٠,٣٣١ م ب ي لشهر آذار إلا أن إنتاج روسيا من النفط الخام والمكثفات والغاز بلغ ١١,٠٦ م ب ي لشهر شباط ٢٠٢٢ إنتاج النفط الأوكراني (مع المكثفات) حوالي ٣٣ الف ب/ي خلال عام ٢٠٢١.

تُعد أوروبا وجهة رئيسة لغالبية صادرات الطاقة الروسية، لكن في أعقاب غزو موسكو لأوكرانيا بدأت أوروبا تخطط للاستغناء عن واردات الطاقة من روسيا؛ فكم تبلغ هذه الصادرات الروسية من النفط والغاز والفحم؟

تلقت دول أوروبا لدى منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية معظم صادرات روسيا من النفط الخام والغاز الطبيعي، العام الماضي، بينما استحوذت دول في آسيا ومنطقة أوقيانوسيا على معظم صادرات الفحم الروسية، وفق تقرير صادر قبل أيام عن إدارة معلومات الطاقة الأمريكية.

وفي عام ٢٠٢١، كانت روسيا أكبر مصدّر للغاز الطبيعي في العالم، وثاني أكبر دولة مصدّرة للنفط الخام والمكثفات بعد السعودية، وثالث أكبر مصدر للفحم بعد إندونيسيا وأستراليا.

Share of natural gas imports coming from Russia, 2020

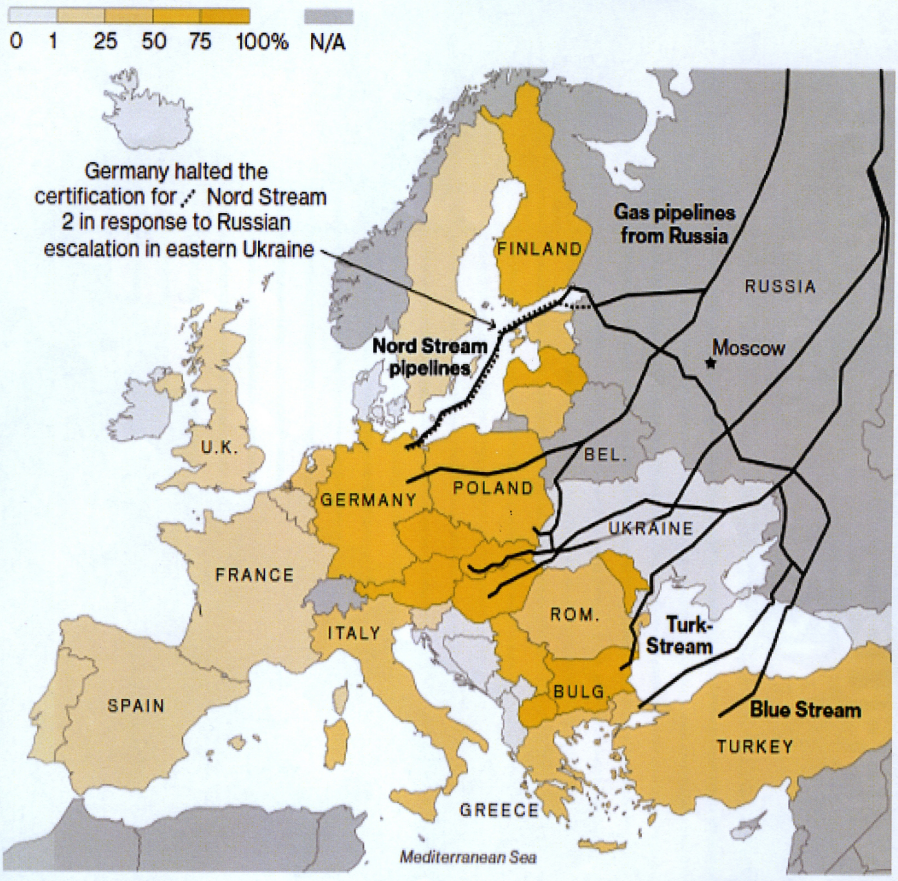

Sources: Eurostat, U.S. Energy Information Administration, Austria's Ministry of Climate Protection

Note: Data for 2020 are not available for the U.K. and Bosnia-Herzegovina, 2019 data are shown in those countries. Norway imported 10 million cubic meters of gas from Russia in 2020, but as a net exporter is not dependent on Russian imports.

صادرات النفط والمكثفات الروسية

في العام ٢٠٢١ بلغت صادرات روسيا من النفط الخام والمكثفات ٤,٧ مليون برميل يومياً؛ ما يعادل أكثر من ٤٥٪ من إجمالي الإنتاج البالغ ١٠,١ مليون برميل يومياً.

وكانت أوروبا لدى منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية هي المستورد الرئيس، بنحو ٤٩٪ من إجمالي صادرات الطاقة الروسية، تليها منطقة آسيا وأوقيانوسيا بمقدار ٣٨٪.

وعلى مستوى الدول، استوردت الصين وحدها ثلث صادرات النفط الخام والمكثفات الروسية في عام ٢٠٢١؛ أي ١,٤ مليون برميل يومياً.

وتلقت هولندا وألمانيا مجتمعتين ١,١ مليون برميل يومياً؛ ما يعادل ربع صادرات الطاقة الروسية، بينما استوردت الولايات المتحدة ١٩٩ ألف برميل يومياً من النفط الخام الروسي (أو ما يعادل ٤٪ من الإجمالي).

صادرات الغاز الطبيعي الروسية

أنتجت روسيا ٢٤,٨ تريليون قدم مكعب من الغاز الطبيعي، العام الماضي، بحسب إدارة معلومات الطاقة الأمريكية.

وبلغت صادرات الغاز الروسية ٣٦٪ من إجمالي الإنتاج؛ ما يعادل ٨,٩ تريليون قدم مكعبة، مع استحواذ التصدير عبر خطوط الأنابيب على ٨٤٪، والباقي على هيئة غاز مسال.

كما هو الحال في النفط، كانت أوروبا أكبر مستورد إقليمي للغاز الطبيعي من موسكو، بما يعادل ٧٤٪ من إجمالي صادرات الطاقة الروسية في ٢٠٢١، بقيادة ألمانيا وتركيا وإيطاليا.

وعليه؛ فإننا بصدد التركيز على تبعات انقطاع/ انخفاض صادرات النفط والغاز الروسي وبشكل خاص على أوروبا من جهة وعلى روسيا من جهة ثانية.

صادرات النفط الروسي لأوروبا

تعتبر روسيا هي ثالث أكبر منتج للنفط بعد الولايات المتحدة والسعودية وبفارق ليس كبيراً.. ويذهب حوالي نصف صادرات النفط الروسي إلى أوروبا قبل الحصار الذي فرضته الناتو نتيجة غزو روسيا لأوكرانيا.

ويمثل المرفق شبكة خطوط الأنابيب الناقلة للنفط الروسي إلى أوروبا.

وحسب إحصائية عام ٢٠٢٠ فإن ألمانيا وهولندا كانتا أكبر المستوردين للنفط الروسي:-

هولندا	٥٤٩,٤٠٠ ب/ ي
ألمانيا	٥٢٦,٤٠٠ ب/ي
بولندا	٣٢٨,٤٠٠ ب/ي
فنلندا	١٨٤,١٠٠ ب/ي
سلوفاكيا	١١١,٠٠٠ ب/ي
إيطاليا	١٠٣,٠٠ ب/ي
لتوانيا	١٠٠,٢٠٠ ب/ي
المجر	٧٦,٧٠٠ ب/ي
بقية أوروبا	٣٩٩,٧٠٠ ب/ي

وبناء على قرارات الحظر سيتم إيقاف استيراد النفط الروسي نهاية العام الحالي ٢٠٢٢ من قبل جميع الدول الأوروبية باستثناء سلوفاكيا والمجر اللتين أمهلتا سنه إضافية للعثور على بدائل أخرى، علماً أن سلوفاكيا استوردت ٩٦٪ من نفطها والمجر استوردت ٥٨٪ من نفطها من روسيا حسب إحصائيات عام ٢٠٢١ لوكالة الطاقة الدولية IER.

وما زالت المجر البلد الأوروبي الوحيد الذي يرفض الانصياع لقرار حظر استيراد النفط الروسي.

ويمثل النفط الروسي ٨٪ من استيرادات المملكة المتحدة عام ٢٠٢٠ و٣٪ بالنسبة لاستيرادات أمريكا لعام ٢٠٢١.

ويتفق المراقبون على أن أوروبا سوف لن تجد صعوبة تذكر في الحصول على النفط من مصادر أخرى وبشكل خاص من الشرق الأوسط بالمقارنة مع الغاز.

SHARE OF GAS SUPPLY FROM RUSSIA
Bosnia & Herz* 100%
N. Macedonia* 100%
Moldova* 100%
Finland 94%
Latvia 93%
Serbia* 89%
Estonia* 79%
Bulgaria 77%
Slovakia 70%
Croatia 68%
Czech. Rep 66%
Austria* 64%
Greece 51%
Germany* 49%
Italy 46%
Lithuania 41%
Poland 40%
Hungary 40%
Slovenia 40%
France* 24%
Netherlands 11%
Romania 10%
Georgia* 6%
EXPRESS
* Latest available data from 2019. Source: Statista.
Europe; Agency for the Cooperation of Energy Regulators; Eurostat; IEA; BP; Energy Community; 2020

ولغاية تاريخه لم يقم تحالف الأوبك OBEC+ بزيادة إنتاجه رغم الضغوط الأمريكية مما حدا بالدول الصناعية لإطلاق أكبر كمية في تاريخها (منذ تأسيسها عام ١٩٧٣) لإطلاق ١٢٠ مليون برميل من خزينها الاستراتيجي وذلك في محاولة للتخفيف من حدة ارتفاع أسعار النفط التي تجاوزت منذ الأيام الأولى للغزو الروسي حاجز الـ ١٠٠ دولار للبرميل بل وارتفعت في بعض الحالات لأكثر من ١٢٠ د/ب.

وعودة إلى الأوبك (١٣ دولة) فإن تحالفها مع مجموعة الدول من خارج منظمتها (١٠ دول وعلى رأسها روسيا) عام ٢٠١٦ أبدت قدرته على تحديد حجم الإنتاج منذ ذلك الحين ولحد الآن رغم أن معدلات الإنتاج ستصل خلال الأشهر القادمة لما كانت عليه قبل بدء مراحل تخفيض الإنتاج عام ٢٠١٦.

الغاز الروسي وأوروبا

حسب إحصائيات إدارة الطاقة الأمريكية EIA فإن إنتاج روسيا من الغاز الطبيعي عام ٢٠٢١ بلغ ٢٤,٨ تريليون قدم مكعب، وبلغت صادرات الغاز الروسية ٣٦٪ من إجمالي الإنتاج أي ما يعادل ٨,٩ تريليون قدم مكعب تم تصدير ٨٤٪ منه بواسطة خطوط الأنابيب والباقي على هيئة غاز مسال.

تعتمد أوروبا على الغاز الروسي في نحو ٤٠٪ يأتي معظمه عبر خطوط أنابيب يامال – أوروبا عبر دولتي بيلاروسيا وبولندا إلى ألمانيا وخط نوردستريم١ الذي يذهب مباشرة إلى ألمانيا مروراً بأوكرانيا. علماً أنه تم إكمال بناء خط نورد ستريم٢؛ ولكن لم يتم تشغيله لنشوب الحرب الروسية الأوكرانية.

وقد توزعت واردات أوروبا من الغاز حسب مصادرها كما يلي: (AFP المصدر):

روسيا	٤٤,٤٨٪
النرويج	١٧,٥٣٪
الجزائر	٨,١٩٪
قطر	٥,٦٥٪
بلدان أخرى	٢٤,١٥٪

وما زالت شركة الغاز الروسية «غاز بروم» تجهز لحد الآن عملاءها في أوروبا بالغاز عبر أوكرانيا ووفقاً للعقود المبرمة ١٠٣,٨ مليون متر مكعب يومياً وسط تصاعد المخاوف بشأن استمرارها والأهم استبدالها مستقبلاً ببدائل أخرى.

بالنسبة لروسيا فإن العائق الحالي هو طريقة الدفع من العملاء فيعد عزل روسيا من نظام (سويفت) للمدفوعات العالمية بين البنوك وتصر الآن على أن يتم الدفع بالروبل الروسي.

والسؤال الآن ومستقبلاً هل يمكن لأوروبا الاستغناء عن الغاز الروسي ومتى؟!

يعتقد البعض أنه من الاستحالة التخلي الكلي ولكن يمكن التخلي عن حوالي ٧٢٥٪ كحد أقصى واستبدالها من مصادر أخرى وهي:

- الغاز السائل بواسطة الناقلات الخاصة وخاصة من أمريكا وقطر وأستراليا.
- أنبوب الغاز الممتد من الجزائر عبر البحر الأدرياتيكي إلى إيطاليا.
- خط أنابيب الغاز الطبيعي العابر للأناضول من أذربيجان عبر تركيا.
- زيادة الكميات المستوردة من النرويج وبريطانيا (غاز حقول بحر الشمال).

أما بالنسبة للغاز المسال فهناك مشاكل لوجستية وقانونية نلخصها بما يلي:

- تطوير الغاز المسال بحاجة إلى تبريد وضغط الغاز في منشآت خاصة وموانئ متخصصة في البلد المصدر، ثم ينقل بواسطة ناقلات متخصصة إلى البلد المستورد حيث يتطلب وجود ميناء ومنشآت متخصصة لاستلام ثم نقل الغاز لأماكن الاستهلاك..

وبضوء ما تقدم يتطلب الأمر ضرورة الالتزام من قبل الطرفين (المصدّر والمستورد) بإبرام عقود طويلة الأجل تمتد ما بين ١٠- ٢٠ عاماً وبالتالي فإن الدول المنتجة تسعى للحصول على التزامات بالحد الأقصى الممكن لإنتاجها حتى قبل بناء المشروع، مما لا يترك حرية البيع المباشر Spot أو إلغاء العقود

إلا بموافقة الطرف الثاني، وبالتالي سيصعب على تلك الدول مثل قطر وأستراليا أن تسدّ النقص في الغاز الروسي أو بشكل محدود جداً.

- أما بالنسبة لخطوط الأنابيب فذلك سيستغرق عدة سنوات من التفاوض فيما بين الدول التي يمر عبرها خط الأنابيب لإنشاء خطوط جيدة، وذلك ربما سيكون الهدف للأمد الطويل في حالة التفكير بخطوط جديدة من الشرق الأوسط أو شرق البحر الأبيض المتوسط أو شمال أفريقيا.. وعلى المدى القصير قد يكون هناك إمكانية لرفع طاقة خطوط الأنابيب الحالية بنسبة معقولة ربما لا تتجاوز ١٠٪.

بدائل أخرى

لاعتبارات بيئية وتنفيذاً لاتفاقيات خفض معدلات الكربون وارتفاع درجات الحرارة ذات العلاقة في كيوتو وكلاسكو - فإنه سيتم التسريع بعمليات التحول إلى طاقات البديلة والنظيفة، وحسبما هو متاح لكل دولة علماً أن الأمر سيتطلب استثمارات عالمية ونذكر من هذه البدائل:

- الطاقة النووية Nuclear Energy (وذلك يتطلب رجوعاً عن قرارات ساقبة لعدم بناء محطات جديدة بعد الانفجار في محطة تشيرنوبل للطاقة النووية عام ١٩٨٦ والواقعة في أوكرانيا وغيرها).
- الطاقة الشمسية Solar Energy.
- طاقة الرياح Wind Energy.
- طاقة الأمواج Wave Energy.
- الطاقة الحرارية الأرضية Earth Heat Energy
- الطاقة الكهرومائية من خلال السدود/ طاقة حركات المد والجزر/ التيارات البحرية.
- طاقة الكتلة الحيوية Biomes.

وعليه؛ فإنه على المدى القصير سيتطلب اللجوء إلى زيادة الطاقات في المشاريع المنتجة حالياً بمختلف مصادرها، وكذلك لبعض الدول ضرورة اللجوء إلى الفحم لتوليد الطاقة وإغلاق بعض الصناعات. علماً أنه ومنذ منتصف عام ٢٠٢١ فإن أوروبا بدأت بالتحول إلى الفحم من الغاز بعد ارتفاع أسعاره.

تأثير الحرب الروسية - الأوكرانية على العالم والشرق الأوسط

كان الشرق الأوسط ثالث أكبر مشترٍ للقمح الأوكراني خلال عامي ٢٠٢٠ و٢٠٢١ حيث وصل لأكثر من ٤٠٪ من الصادرات الأوكرانية.

وبما أن روسيا وأوكرانيا مجتمعتين يصدران ما يقرب من ٢٣٪ من مجموع صادرات القمح عالمياً فيمكن للمرء أن يستنتج الكثير من التأثيرات السلبية في حالة استمرار الأزمة بين البلدين، وبالتالي ارتفاع الأسعار نتيجة انخفاض المنتوج وخاصة من شرق أوكرانيا، وكذلك بسبب ارتفاع تكاليف الطاقة والسلع الأخرى حيث إن الأمر يتعدى محصول القمح لمحاصيل أخرى، فروسيا هي أكبر مزود للأسمدة في العالم وقد أوقفت صادراتها للعالم مما يعرض الزراعة للخطر على مستوى العالم، علماً أن الصين أيضاً أوقفت عمليات بيع الأسمدة.. والحال نفسه بالنسبة لإندونيسيا التي أوقفت صادرات زيت النخيل وذلك سيؤدي إلى ارتفاع أسعار جميع الزيوت الصالحة للاستهلاك، والهند حيث أعلنت عن إيقاف صادرات القمح وقد تعرضت فعلاً مساحات واسعة (شرق أوكرانيا) للعمليات العسكرية وبالتالي خروجها كلاً أو جزءاً من القدرة على الإنتاج حتى على المستقبل المنظور..

وكما هو ملاحظ بالنسبة لارتفاع أسعار الغاز عدة مرات لاعتماد أوروبا وبشكل كبير على الغاز الروسي، فإن أسعار الديزل قد ارتفعت بشكل تدريجي فاق أحياناً أسعار الغاز مما يؤثر على كلف نقل المحاصيل والمنتجات لا بل وكل تكاليف النقل بشكل عام.

وحول هذا الموضوع كتبت مجموعة الأزمات الدولية Crisis Group في ٢٠٢٢/٤/١٤ ما يلي:

ما تزال الحرب في أوكرانيا التي تلت الغزو الروسي في مراحلها المبكرة. في حين ما يزال من المبكر كثيراً قياس الأثر الكامل للحرب على الأزمات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وبات من الواضح أن التداعيات ستكون متعددة

الأبعاد. حتى الآن، تقتصر آثارها على المجال العسكري، لكنها ملحوظة أيضاً في الميدان السياسي، مع قيام أطراف الصراع بإعادة التموضع في مواجهة بعضها بعضاً وحيال العالم الخارجي. بالنسبة لاقتصادات المنطقة وعقودها الاجتماعية المتوترة أصلاً فقد تكون التداعيات مدمرة.

بعض دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تعتمد بشكل مفرط على استيراد الغذاء والطاقة، الأمر الذي يتركها هشة على نحو خاص أمام الصدمات الاقتصادية نتيجة الأزمة الأوكرانية؛ إذ إن بعض الدول تشتري كميات كبيرة من القمح من أوكرانيا وروسيا. وفي حين أن البعض، مثل دول الخليج العربية، تمتلك احتياطيات كبيرة، فإن دولاً أخرى، مثل لبنان، لا تمتلك أية احتياطيات، الأمر الذي يجعل احتمال حدوث نقص حقيقي لديها، وفي حين لم يفرض أحد، حتى الآن، عقوبات على واردات القمح الروسي، فإن المستوردين يواجهون صعوبة متزايدة في شراء القمح من روسيا بسبب صعوبات تحويل الأموال إلى الشركات الروسية والتأمين على السفن. كما أن الاعتماد على النفط والغاز المستوردين مشكلة أيضاً. فقد تبقي دول لديها اكتفاء ذاتي أو حتى تصدر النفط والغاز، مثل إسرائيل ومصر، وإيران، والعراق، وليبيا وبعض دول الخليج العربية، محمية من الركود، بينما قد تواجه دول أخرى مثل لبنان، وفلسطين، والأردن، واليمن وتونس صعوبات اقتصادية مع معاناة سكانها من درجة أكبر من الحرمان.

قد تحدث الكلفة المتزايدة للنفط والغاز نفسها أثراً على ارتفاع كلفة النقل وبالتالي أسعار السلع بشكل عام، الأمر الذي سيفرض ضغوطاً تضخمية ويمكن أن يعطل سلاسل الإمداد بالسلع الأساسية وغير الأساسية بشكل يزعزع الاقتصادات الهشة أصلاً. إضافة إلى ذلك، فإن ارتفاع أسعار الوقود سيجبر الدول الفقيرة بالنقط على تخفيض سعر صرف عملاتها الوطنية، ما سيحدث انخفاضاً في الدخول وترديا في الأحوال المعيشية. وقد لا يكون أمراً يصعب تصديقه أن تشهد المنطقة اندلاعاً آخر للاضطرابات الاجتماعية وحتى الصراع نتيجة للصعوبات الاقتصادية وعدم قدرة الحكومات على معالجتها بشكل مناسب.

وكانت مجلة Foreign Policy قد كتبت في ٢٠٢٢/٣/١ ما يلي حول تأثير الحرب الأوكرانية في صادرات القمح إلى الشرق الأوسط:

ظلت أوكرانيا تُعرف باسم سلة غذاء أوروبا لقرون عدة، بسبب وجود بعض الأراضي الزراعية الأكثر خصوبة على وجه الأرض. وتعتبر صادراتها الزراعية سريعة النمو - الحبوب والزيوت النباتية ومجموعة من المنتجات الأخرى - ضرورية لإطعام السكان من إفريقيا إلى آسيا. ويقع الجزء الأكبر من الأراضي الزراعية الأكثر إنتاجية في أوكرانيا في مناطقها الشرقية، وهي بالضبط تلك الأجزاء التي تتعرض أكثر للهجوم الروسي. وفي الوقت الذي تتجمع فيه غيوم الحرب على طول حدود أوكرانيا، فإن أحد المخاوف التي لم يلاحظها أحد نسبياً، هو السؤال عما يحدث لهذه المناطق، وتأثيره على البلدان في جميع أنحاء العالم التي تعتمد على أوكرانيا للحصول على الغذاء، في حالة هجوم روسي شامل على البلاد.

أوكرانيا مُصدِر رئيس للذرة والشعير والقمح، لكن القمح هو الذي يؤثر تأثيراً كبيراً في الأمن الغذائي في جميع أنحاء العالم. في عام ٢٠٢٠، صدّرت أوكرانيا ما يقرب من ١٨ مليون طن متري من القمح من إجمالي محصول بلغ ٢٤ مليون طن متري، ما يجعلها خامس أكبر مصدر للقمح في العالم. ويشمل أكبر الجهات المستوردة للقمح الأوكراني الصين والاتحاد الأوروبي، ولكن العالم النامي هو المكان الذي أصبح فيه القمح الأوكراني من أهم الواردات. فعلى سبيل المثال، جاء نحو نصف القمح المستهلك في لبنان في عام ٢٠٢٠ من أوكرانيا، وفقا لبيانات منظمة الأغذية والزراعة (الفاو). وباعتماد السكان على الخبز ومنتجات الحبوب الأخرى للحصول على ٣٥٪ من السعرات الحرارية، يعتمد لبنان بشكل كبير على القمح الأوكراني.

مواجهة الخطر

ومع وجود ١٤ دولة تعتمد في أكثر من ١٠٪ من وارداتها من القمح على أوكرانيا، يواجه عدد كبير من الدول بالفعل خطر انعدام الأمن الغذائي، بسبب عدم الاستقرار السياسي المستمر، أو العنف المباشر في تلك البلاد. فعلى سبيل المثال، تستورد اليمن وليبيا ٢٢ ٪ و٤٣٪ على التوالي من إجمالي استهلاكهما من القمح من أوكرانيا. واستوردت مصر، التي تعتبر أكبر مستهلك للقمح الأوكراني، أكثر من ثلاثة ملايين طن متري في عام ٢٠٢٠، أي نحو ١٤٪ من إجمالي استهلاكها. ووفقاً لبيانات «الفاو»، صدّرت أوكرانيا أيضاً ٢٨٪ من استهلاك القمح الماليزي، و٢٨٪ من استهلاك إندونيسيا، و٢١٪ من استهلاك بنغلاديش في عام ٢٠٢٠.

شرق أوكرانيا هو سلة الخبز

ولسوء الحظ، تتم زراعة جزء كبير من القمح في شرق أوكرانيا المعروفة بسلة الخبز الأوكرانية التاريخية، التي تتمثل في أقاليم خاركيف ودنيبروبتروفسك وزابوريزهيا وخيرسون، الواقعة إلى الغرب من دونيتسك ولوهانسك، والتي تحتلها بالفعل القوات المدعومة من روسيا علماً أن هذه تحديداً تعتبر من أولى الأهداف الاستراتيجية للغزو الروسي. وعليه؛ فإن الانفصاليين المدعومين من روسيا قد تمكنوا من الاستيلاء على هذه الأراضي، التي يدعون أنها تقع بالفعل داخل ما يسمى بجمهورياتهم، وهذا يعني انخفاضاً حاداً في إنتاج القمح، وهبوطاً حاداً في صادراته، لأن ذلك من شأنه أن يجعل المزارعين يفرون في وجه الغزو، وستتعرض البنية التحتية والمعدات الزراعية للدمار، ويصبح اقتصاد المنطقة مشلولاً. كل من يسيطر على هذه الأرض سيستخرج ثرواتها في نهاية المطاف، ولكن إذا استمرت الظروف بعد الاستقرار فذلك سيشكل خطراً على استمرارية إنتاج القمح بعد الغزو والاحتلال.

مكانة أوكرانيا الزراعية

تعتبر أوكرانيا سلة خبر أوروبا والشرق الأوسط بعد أن كانت وبامتياز سلة خبز الاتحاد السوفياتي قبل تفككه:

- الأولى في أوروبا من حيث مساحة الأراضي الصالحة للزراعة.
- الأولى عالمياً من صادرات عباد الشمس وزيت عباد الشمس.
- الثالثة في العالم من حيث مساحة التربة السوداء (٢٥٪ من حجم العالم).
- ثالث أكبر منتج للبطاطا في العالم.
- الرابعة عالمياً بإنتاج الشعير والرابعة في صادرات الشعير.
- رابع أكبر منتج لدقيق الجاودار RYE في العالم.
- خامس أكبر منتج ورابع أكبر مصدر للذرة وتزرع محاصيلها على ٦٠٪ من أراضي أوكرانيا الصالحة للزراعة.
- الخامسة عالمياً في إنتاج العسل (٧٥ ألف طن).
- الخامسة عالمياً في صادرات القمح.
- الصويا: تُعد أوكرانيا واحدة من أكثر منتجي فول الصويا في العالم.
- اللحم والألبان بالنظر لتوفر الأراضي العشبية والحبوب مما تسهل تربية الماشية والألبان.
- العسل وتنتج أوكرانيا أكبر كمية من العسل للفرد في أي بلد.

ملحق رقم ١

معلومات أساسية عن الطاقة في روسيا

ملحق رقم ٢

الغـاز الـروسي+ احتياطيات الغاز الروسي وصادراته:

روسيا	٤٨,٩ تريليون م٣
إيران	٣٤ تريليون م٣
قطر	٢٣,٨ تريليون م٣
تركمنستان	١٥,٣ تريليون م٣
أمريكا	١٢,٩ تريليون م٣
السعودية	٨,٤ تريليون م٣
الإمارات	٧,٧ تريليون م٣
نيجيريا	٥,٧ تريليون م٣
فنزويلا	٥,٥ تريليون م٣
الجزائر	٤,٥ تريليون م٣

+ صادرات الغاز الروسي حسب الوجهة: عام ٢٠٢٠

ألمانيا	١٦٪
إيطاليا	١٢٪
فرنسا	٨٪
بيلاروسيا	٨٪
تركيا	٦٪
الصين	٥٪
هولندا	٥٪
النمسا	٥٪
بريطانيا	٤٪
اليابان	٤٪
بولندا	٤٪
كازاخستان	٥٪
دول أوروبية أخرى	٥٪
دول أسيوية أخرى	٣٪
دول أوروبية OECD أخرى	١٠٪

صادرات روسيا من الغاز هي الأعلى عالمياً

روسيا	١٩٩,٩ مليار م٣
أمريكا	١٤٩,٥ مليار م٣
قطر	١٤٣,٧ مليار م٣
النرويج	١١٢,٩ مليار م٣
أستراليا	١٠٢,٥ مليار م٣

ملحق رقم ٣

حصص إنتاج النفط لدول أوبك + في أيار ٢٠٢٢

دول المنظمة	
الجزائر	١,٠١٣
أنغولا	١,٤٦٥
الكونغو	٠,٣١٢
غينيا الاستوائية	٠,١٢٢
الغابون	٠,١٧٩
العراق	٤,٤٦١
الكويت	٢,٦٩٤
نيجيريا	١,٧٥٣
السعودية	١٠,٥٤٩
الإمارات	٣,٠٤٠
المجموع	٢٥,٥٨٩

الدول المتحالفة مع الأوبك	
أذربيجان	٠,٦٨٨
البحرين	٠,١٩٧
بروناي	٠,٠٩٨
قازاخستان	١,٦٣٨
ماليزيا	٠,٥٧١
المكسيك	١,٧٥٣
عُمان	٠,٨٤٦
روسيا	١٠,٥٤٩
السودان	٠,٠٧٢
جنوب السودان	٠,١٢٤
الدول خارج أوبك	١٦,٥٣٧

إجمالي دول أوبك + ٤٢,١٢٦ مليون برميل يومياً

ملحق رقم ٤

احتياطيات وإنتاج الغاز في العالم

تتوزع احتياطيات الغاز في العالم بشكل تقريبي على الشكل التالي:

روسيا	٢٠٪
إيران	١٧٪
قطر	١٣٪
المجموع	٥٠٪
تركمنستان	٧٪
أمريكا	٦,٥٪
فنزويلا	٣,٣٪
السعودية	٣,٢٪
الإمارات	٣,٢٪
نيجيريا	٣٪
المجموع	٢٦,٢٪
دول أخرى	٢٣,٨

وحسب التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠٢١ فإن الإنتاج العالمي بلغ عام ٢٠٢ كمية ٣,٨ تريليون م٣ منها ٥٨٤ مليار م٣ للدول العربية ومنها ٣٢٤,٥ م٣ لمنظمة الأوبك

الإنتاج عام ٢٠٢١ بلغ ١٧٥٢,٧ مليار متر مكعب

أمريكا	٩١٥ مليار متر مكعب	٢٤٪
روسيا	٦٣٨ مليار متر مكعب	١٦,٥٧
إيران	٢٥٠ مليار متر مكعب	٦,٤٨٪
قطر	٢٠٦ مليار متر مكعب	٥,٣٤٪
الجزائر	١٣٠ مليار متر مكعب	٣,٣٧٪
النرويج	١٠٨ مليار متر مكعب	٢,٨٪
ماليزيا	٦٣,٢ مليار متر مكعب	١,٦٤٪
مصر	٦٠,٧ مليار متر مكعب	١,٥٨٪

ملحق رقم ٥

خط أنابيب الغاز نورد ستريم٢

تم إكمال خط أنابيب نقل الغاز الطبيعي عبر بحر البلطيق (بتجاوز أوكرانيا) ويمتد من أكبر الحقول الغازية في روسيا إلى ألمانيا وعدد من الدول الأوروبية.. طوله ١٢٣٠ كم ومساره بالقرب ومتوازٍ مع خط نورد ستريم١ الذي ينتقل حوالي ٥٦ مليار م٣ منه إلى ألمانيا منذ عام ٢٠١٢ وبكلفة ١١ مليار دولار.

وقد قررت ألمانيا التوقف عن استكمال إجراءات تشغيل الخط بعد شن روسيا حربها على أوكرانيا.

وفي حالة تشغيله فسوف ينقل نفس كمية الغاز الطبيعي التي ينقلها نورد ستريم١ وبكلفة أقل بـ ٢٥٪ من كلفة الاستيراد الحالية لكونه يربط روسيا بألمانيا عبر بحر البلطيق، ما يقلل الاعتماد على طريقة العبور عبر أوكرانيا المكلفة.

وتُعتبر الشركة الروسية غاز بروم الممول الرئيسي بأكثر من النصف والبقية من شركة أنجي الفرنسية وomv النمساوية وشل الهولندية مع شركات ألمانية أخرى.

وكانت ألمانية مساندة للمشروع ضمن خطتها للتخلي التدريجي عن الطاقة النووية وإغلاق جميع محطات توليد الكهرباء العاملة بالفحم بحلول عام ٢٠٣٨.. وتعتبر أهمية خط الغاز لانخفاض تكلفة النقل بالمقارنة مع بدائل أخرى.. علماً أن أمريكا تسعى لزيادة صادراتها من الغاز المسال إلى الاتحاد الأوروبي وبالتالي اعتماد الأخيرة أكثر على أمريكا.

ملحق رقم ٦

منتدى الدول المصدرة للغاز Gas Exporting Countries Forum, GECF

ويضم ١١ دولة هي (روسيا وإيران وقطر والجزائر وبوليفيا ومصر وغينيا الاستوائية وليبيا ونيجيريا وترينداد وتوباغو وفنزويلا إضافة لسبع دول بصفة مراقب هي (العراق وأنغولا وأذربيجان وماليزيا والنرويج وبيرو والإمارات).

مقر المنتدى في قطر وتأسس عام ٢٠٠١ وعقد آخر اجتماعات في قطر في ٢٠٢٢/٢/٢٢ أي قبل بدء الحرب الروسية الأوكرانية بيومين ويشكل إجمالي أعضاء المنتدى ٧٠٪ من احتياطيات الغاز المولدة و٤٤٪ من الإنتاج الفعلي و٥٢٪ من خطوط الأنابيب و٥١٪ من صادرات الغاز الطبيعي المسال.

ملحق رقم ٧

طاقة المستقبل (الهيدروجين)

الهيدروجين الأزرق والأخضر .. طاقة المستقبل أم إهدار للموارد

لأنه لم يعد هناك متسع من الوقت أمام الدول الكبرى والمنتجة للنفط لتجنب التداعيات المدمرة للتغير المناخي، فقد اختارت العمل بجدية لتقليص الاعتماد على الطاقة الأحفورية الرخيصة (نفط، غاز، فحم) والسعي نحو تطوير الطاقات البديلة.

وتبرز طاقة الهيدروجين (الأخضر، الأزرق، الأمونيا الزرقاء) في طليعة الخيارات المتاحة، لتوفير الوقود بعد النجاح النسبي لطاقة الشمس والرياح في توفير الكهرباء.

فما طبيعة طاقة الهيدروجين وما السر وراء الزخم الكبير لإعادة إطلاقها بعد إهمالها طوال العقد الماضي؟ وهل اندفاعة دول المنطقة مثل السعودية والإمارات وتركيا ومصر، ستكون استثماراً في المستقبل أم إهداراً للموارد.

لنلاحظ أولاً أن هناك توجهاً جدياً الآن لدى الدول الكبرى للتصدي لمعضلة التغير المناخي والالتزام بهدف اتفاق باريس بالمحافظة على ارتفاع متوسط حرارة الأرض دون ١,٥ درجة مئوية. وترجع تلك الجدية إلى استشعار خطورة التغير المناخي، كما ترجع - وربما هو الأهم - إلى التوترات الجيوسياسية بخاصة بين الصين - روسيا وأمريكا، حيث يسعى كل طرف إلى تحميل الطرف الآخر مسؤولية معضلة المناخ وتحميله بالتالي الجزء الأكبر من

التكاليف والأعباء الاقتصادية لمواجهتها وتطوير مصادر نظيفة للطاقة. وذلك ما يفسر الاندفاعة في إعادة إحياء طاقة الهيدروجين لتشكل مكوناً رئيسياً في مزيج الطاقة مستقبلاً.

لماذا الهيدروجين؟

يتشكل مزيج الطاقة المطلوب والذي يحقق «صافي انبعاثات صفري» بحلول عام ٢٠٥٠ من الطاقة المتجددة (الشمس والرياح)، الطاقة النووية، والطاقة الأحفورية النظيفة الخالية من الكربون. ولما كانت الطاقة المتجددة لا يمكن أن توفر أكثر من ٣٠٪ وفق أكثر السيناريوهات تفاؤلاً، والطاقة النووية تواجه معارضة قوية، يبرز الهيدروجين كخيار مناسب لتوفير الوقود بخاصة للقطاعات ذات الاستخدام الكثيف للطاقة مثل الصناعات الثقيلة، وسائل النقل الكبيرة (سفن، طائرات، قطارات آليات ثقيلة مدنية وعسكرية إلخ..) والتي يصعب تشغيلها بالكهرباء. وتتوقع وكالة الطاقة الدولية أن يستأثر الهيدروجين الأخضر والأزرق بحوالي ٢٠٪ من الطلب العالمي على الطاقة في العام ٢٠٥٠.

ولتوضيح الصورة تجدر الإشارة إلى وجود أنواع مختلفة من وقود الهيدروجين لكل منها ميزاته وعيوبه وهي:

الهيدروجين الرمادي: وهو النوع الأكثر انتشاراً حتى الآن ويجري استخلاصه من الغاز الطبيعي، ولكن يرافق العملية إنتاج كميات كبيرة من غاز ثاني أكسيد الكربون، ولذلك يميل إنتاجه للتراجع رغم ضآلة التكلفة.

الهيدروجين الأزرق: يتم إنتاجه كما الرمادي من الغاز الطبيعي مع فارق أساسي هو التقاط الكربون المصاحب وتخزينه في الأرض غالباً في آبار النفط غير المنتجة، ليتم استخدامه لاحقاً في ما بات يعرف بـ «اقتصاد الكربون الدائري».

الهيدروجين الأخضر: يُنتج من الماء بعملية التحليل الكهربائي مع استخدام مصادر الطاقة المتجددة ويمتاز بانعدام انبعاثات ثاني أكسيد الكربون

تقريباً، وهو بالتالي وقود صديق للبيئة بالكامل، وعيبه الأساسي ارتفاع التكلفة والحاجة إلى كميات ضخمة من الطاقة الكهربائية.

الأمونيا الزرقاء: تعتبر الحصان الرابح في مزيج الوقود الهيدروجيني، وتتكون من ثلاث ذرات من الهيدروجين وذرة واحدة من النيتروجين.. وتمتاز بأنها أكثر استقراراً من الهيدروجين، ويمكن نقلها بسهولة بحراً أو بواسطة خطوط الأنابيب، ما يشكل حلاً لأحد أكبر مشاكل الهيدروجين النقي وهي تسببه بتآكل المعادن وتسربه من الشقوق بالغة الصغر. وقد أدى اكتشاف هذا العيب إلى إلغاء مشروع ضخم في أستراليا لإنتاج الهيدروجين الأخضر وتصديره عبر الأنابيب إلى سنغافورة، وجرت الاستعاضة عنه بتصدير غاز الأمونيا.

مستقبل اقتصاد الهيدروجين

من الصعوبة بمكان الجزم بمستقبل طاقة الهيدروجين وبخاصة الأخضر ويرجع ذلك إلى تشابك العوامل والمتغيرات المؤثرة. وهو الأمر الذي جعل دولاً كبرى مثل أمريكا أو دول منتجة للغاز مثل قطر تتريث في ضخ استثمارات كبيرة في هذا المجال، في حين اندفعت الدول الأوروبية بقوة لتبني خيار اقتصاد الهيدروجين، حيث قامت ألمانيا مثلاً بتخصيص الجزء من الميزانية الاتحادية الخاصة بالطاقة النظيفة لمكون الهيدروجين الأخضر.

ولكن يمكن القول إن المتغيرات الرئيسية تلعب لصالح الهيدروجين، ومن أبرز المتغيرات التي يجدر مراقبتها نذكر: السياسات الحكومية ومبادرات قطاعات الصناعة والنقل التي تلعب دوراً حاسماً في تشكيل الأسواق وخلق الطلب. وهو الأمر الذي يحكم جهود تطوير التكنولوجيا. ولتوضيح ذلك نشير مثلا إلى إعلان شركة أيرباص عن تفاؤلها بنجاح برنامجها لتسيير طائرة تعمل بالهيدروجين بحلول العام ٢٠٣٥، إذا تضافرت جهود الأطراف المعنية لحل مشكلات التخزين والتزويد في الطائرات والمطارات. كما أعلنت روسيا عن تكثيف الجهود لتطوير محركات الطائرات العاملة بالهيدروجين. ويتوقع

أن يشهد المستقبل التراب طفرة في محركات الهيدروجين للسيارات بخاصة العسكرية استناداً إلى توالي إعلان الشركات عن خططها في هذا المجال مثل كيا وشفروليه.

مبادرة «منجنيق الهيدروجين»

يختصر المدير التنفيذي لوكالة الطاقة الدولية فاتح بيرول الوضع بقوله «تتمتع طاقة الهيدروجين بدعم سياسي وتجاري غير مسبوق، فالدوافع السياسية باتت أقوى وأوضح والتكنولوجيا باتت أكثر نضجاً وتطوراً والأسواق باتت أكثر استعداداً لتقلبها والتكيف معها.

ويعني كلام بيردل أن العوامل المؤثرة خصوصاً توفر الأسواق والطلب، باتت تؤشر إلى انطلاقة قوية إلى طاقة الهيدروجين، ونشير في هذا السياق إلى مبادرة ذات دلالة مهمة على تشكيل مستقبل الطاقة الهيدروجينية وهي مبادرة «منجنيق الهيدروجين الأخضر» والتي أعلن من خلالها قادة هذه الصناعة السعي إلى زيادة إنتاجهم بمقدار ٥٠ ضعفاً على مدى السنوات الست المقبلة.

الهيدروجين في المنطقة

بغض النظر عن التوقعات والسيناريوهات بشأن تراجع حصة الطاقة الأحفورية حيث تتوقع وكالة الطاقة الدولية تراجعها من ٨٠ إلى ٢٠٪ في حين تتوقع أوبك أن تبقى بحدود ٧٠٪، فالمؤكد أن هناك مسارين واضحين؛ الأول الانتقال المتسارع نحو مزيج الطاقة النظيفة، والثاني بلورة وتطوير مكونات هذا المزيج. وهنا تبرز أهمية الطاقة الأحفورية النظيفة ومسؤولية الدول المنتجة للنفط وكذلك الدول التي تحظى بموارد كبيرة لإنتاج الطاقة المتجددة مثل تركيا ومصر، لتأخذ زمام المبادرة بالاستثمار المكثف والاستراتيجي في تطوير طاقة الهيدروجين بأشكاله كافة وكذلك تطوير تقنيات احتجاز وتخزين واستخدام ثاني أوكسيد الكربون التي يعول عليها كثيراً في معظم سيناريوهات التحول إلى الطاقة النظيفة.

وتبرز كل من تركيا والسعودية والإمارات ومصر في مقدمة دول المنطقة التي تولي اهتماماً كبيراً بطاقة الهيدروجين. إذ أطلقت كل من السعودية والإمارات عدة مشاريع لإنتاج الهيدروجين الأزرق ومشاريع تجريبية للهيدروجين الأخضر، ونجحتا في تصدير شحنات من الأمونيا الزرقاء إلى اليابان، وفي تركيا تم خلال العام الحالي البدء باختبارات مكثفة لإدراج الهيدروجين في منظومة الطاقة المتجددة من خلال دمجه في شبكات توزيع الغاز بنسب متدرجة لتصل إلى ٢٠٪. وتتمتع تركيا بميزة فريدة هي وفرة موارد الطاقة المتجددة ما يؤهلها لتكون منتجاً مهماً للهيدروجين الأخضر، إضافة إلى وجود بنية تحتية متكاملة للغاز الطبيعي تؤهلها أيضاً لإنتاج الهيدروجين الأزرق، أما مصر فقد وقّعت خلال العام الحالي عدة اتفاقيات مع شركات «إيني» الإيطالية و«ديمي» البلجيكية وسيمنز الألماني لإجراء دراسات جدوى لإقامة مشاريع لإنتاج وتصدير الهيدروجين الأخضر. (المصدر TRT)

ملحق رقم ٨

الثروات الطبيعية والقدرة الصناعية لأوكرانيا

في ملحق منفصل تحدثنا عن الطاقات الكبيرة التي تمثلها أوكرانيا في مجال الزراعة وإنتاج القمح والحبوب وغيرها، وحجم صادراتها واحتمالات تأثيرها على العالم والشرق الأوسط تحديداً.

إلا أنه الواقع – وربما ما كان غائباً عن بال الكثيرين هو ما تكتنزه أوكرانيا من ثروات معدنية ومواد خام وطاقات صناعية نلخصها بما يلي:

رغم أن مساحة أوكرانيا تمثل ٠,٤٪ من سطح الأرض وسكانها يمثلون ٠,٨٪ من سكان العالم إلا أنها تمتلك خمسة بالمائة من الموارد المعدنية في العالم حيث يوجد فيها خامات Ore Deposit تصل إلى ٢٠ ألف راسب من ١٩٤ معدن معروف يُعد ٧٨٠٠ منها من المعادن الصناعية المهمة وتمتلك أحد أهم الاحتياطيات عالمياً من المنغنيز والحديد والمواد الخام غير المعدنية والمنتشرة في جميع أنحاء أوكرانيا وحسب موقع Investment Monitor نذكر منه ما يلي:

المعادن الثمينة

- الأولى في أوروبا من احتياطيات اليورانيوم.
- الثانية في أوروبا والعاشرة عالمياً من احتياطي (التيتانيوم) الضروري لصناعة تدريع (Shielding) المركبات والسفن الحربية والقذائف المواجهة والمركبات الفضائية.
- الثانية عالمياً من الاحتياطيات المكتشفة من خامات المنغنيز العالي جودة والضروري لصناعة الصلب والفولاذ (١٢٪ أو ٢,٣ مليار طن من احتياطيات العالم).
- الثانية عالمياً في احتياطي خام الحديد (٣٠ مليار طن).
- الثالثة في أوروبا من حيث احتياطي خام الزئبق.
- الثالثة في أوروبا (المرتبة ١٣ عالمياً) في احتياطي الغاز الصخري (٢٢ تريليون متر مكعب).
- السابعة عالمياً في احتياطي الفحم (١١٥ مليار طن).
- أحد أغنى ١٠ دول عالمياً في معدن الليثيوم (صناعة البطاريات والهواتف الذكية وغيرها).
- ثاني أكبر شركة في أوروبا وسابع أكبر دولة في العالم من حيث القدرة المركبة لمحطات الطاقة النووية.
- ثالث أكبر دولة منتجة للغاز ورابع أكبر سوق للغاز في أوروبا (مع رابع أكبر نظام لأنابيب الغاز الطبيعي في العالم إذ يوفر ١٤٢,٥ مليار متر مكعب من سعة إنتاج الغاز في الاتحاد الأوروبي.
- ثالث أكبر مصدر للحديد في العالم.
- الرابعة في أوروبا والـ ١٣ عالمياً من حيث طول السكك الحديد ٢١٧٠٠ كم.
- الثالثة عالمياً في صادرات الطين.
- الخامسة عالمياً في صادرات التيتانيوم.
- التاسعة عالمياً في صادرات الخامات والخبث (ركام المعادن) Slag والرماد.
- ثاني أكبر منتج للصلب في العالم.

- مقر لواحدة من أكبر الشركات المصنّعة لقاذفات الصواريخ في العالم.
- الخشب يعتبر أحد الصادرات الرئيسية.
- الكابلات.
- المحركات النفاثة ومحركات الصواريخ.
- الأسلحة.
- الأمونيا وتصدر أوكرانيا حوالي ٧٪ من الأمونيا في العالم.
- قاطرات السكك الحديدية.
- الجلود والغراء/ الكحول/ الأحذية/ مضخات الفرامل وغيرها.

ملحق رقم ٩

شركات النفط الروسية العاملة في العراق في مجال الطاقة

١- شركة لوك اويل Lukoil في حقل غرب القرنة ح وتنتج حالياً بحدود ٤٠٠ ألف ب/ي ويفترض رفع الإنتاج إلى ٨٠٠ ألف ب/ي بحلول عام ٢٠٢٧.

٢- شركة غاز بروم Gasprom العاملة في حفل بدرة الحدودي وتنتج حالياً ٣٣٠٠٠ ب/ي.

٣- شركة غاز بروم العامل في حقل سركالا في إقليم كردستان العراق وتنتج ٢٣٠٠ ب/ي.

٤- شركة روزنفت Roseneft وتعمل في حقوق صغيرة في إقليم كردستان العراق بما مجموعة حوالي ١٠٠٠٠ ب/ي.

٥- شركة لوك أويل Lukoil العاملة على تطوير حقل (القطعة ١٠) في جنوب العراق ويتوقع أن تبدأ بالإنتاج عام ٢٠٢٤ وبطاقة ٣٠٠٠٠ ب/ي.

ولا نتوقع أن تتأثر أعمال الشركات الروسية بالحرب الروسية الأوكرانية إلا فيما يتعلق بإجراءات تسديد مستحقاتها من قبل العراق ولم يفتح ذلك لحد الآن.

التأثيرات الاقتصادية للأزمة الروسية-الأوكرانية ومستقبل الطاقة*

د. محمد أبو حمّور**

تمهيد

إنَّ التحديات والأزمات التي يمر بها العالم بشكل عام والمنطقة العربية بشكل خاص غير مسبوقة، فقد غيّرت طبيعة الحياة التي كنّا نعرفها للمليارات من الأشخاص. نحن نعيش اليوم فترة استثنائية من التاريخ، فترة ستؤثر على كل واحد منّا لعدة عقود، إن فهم حجم هذه الأزمات وما ينتظرنا يمثل تحدياً لنا جميعاً، فتداعيات جائحة كورونا ما تزال قائمة في عدد من الدول والحرب الروسية-الأوكرانية عززت هذه التداعيات، ونحن إلى الآن نجهل كيف ستكون نهايتها.

إن الأضرار الاقتصادية الناجمة عن الحرب أدت إلى تباطؤ وتيرة النمو العالمي منذ بدايتها ويتوقع أن يستمر تأثيرها إلى العام المقبل على أقل تقدير، مما ينتج مزيداً من التضخم والتأثير ولا سيما في البلدان منخفضة الدخل وذات الاقتصادات النامية والأسواق الصاعدة.

يساهم الصراع القائم اليوم في تفاقم الضغوط الاقتصادية الناجمة عن جائحة كورونا، على الرغم من أن العديد من دول العالم تتخطى حالياً المرحلة الحرجة من الجائحة، فهناك ارتفاع ملحوظ في مستوى الطلب والعرض في سوق

---

* قدِّمت في ندوة منتدى أصيلة بالمملكة المغربية (٢٤-٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٢٢) ضمن محور «الطاقة ومستقبل الاقتصاد الدولي».

** الأمين العام السابق لمنتدى الفكر العربي؛ وزير المالية ووزير الصناعة والتجارة الأسبق (الأردن).

النفط العالمي بسبب عدم كفاية العرض، وانتعاش قوي للطلب الناجم عن رفع الكثير من الدول القيود الصحية المفروضة لمكافحة الوباء، حيث ارتفع الطلب على النفط ليصل خلال الربع الأخير من سنة ٢٠١٩ إلى حوالي ١٠٠ مليون برميل يومياً، بينما كانت الإمدادات المعروضة من النفط للسنة نفسها حوالي ٩٨,٩ مليون برميل يومياً[١].

ارتفاع أسعار النفط والتنمية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا

أوضح تقرير نشره موقع «ميدل إيست آي» البريطاني انعكاسات أسعار النفط المرتفعة على دول منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا في ظل الحرب الروسية - الأوكرانية، مبيناً أن ارتفاع أسعار النفط سيدعم مشاريع التنمية في دول «أوبك بلس» وسيضخ أموالاً في خزائنها، إلا أن هذا الارتفاع سينعكس سلباً على أغلب الدول ومنها الدول العربية مثل الأردن وتونس ولبنان ومصر، والتي ستشعر بالمعاناة من ارتفاع أسعار النفط وانعكاساتها على ارتفاع تكاليف المعيشة، ومعدلات التضخم، وزيادة في أسعار القمح والخضروات[٢].

وبالعموم فإن الاقتصاد العالمي بأكمله يشعر اليوم بآثار تباطؤ النمو وزيادة سرعة التضخم نتيجة الحرب، وذلك من خلال ارتفاع أسعار السلع الأولية ولا سيما النفط والغاز الطبيعي والقمح، وانقطاع التجارة وسلاسل الإمداد بين الاقتصادات المجاورة، وتراجع ثقة مجتمع الأعمال، وزيادة شعور المستثمرين بعدم اليقين، ويتوقع أن يصل تباطؤ النمو العالمي من ٦,١٪ تقريباً في عام ٢٠٢١ إلى ٣,٦٪ في عامي ٢٠٢٢ و٢٠٢٣، وهو ما يعني تراجع التوقعات السابقة

(١) ينظر: العربية تقرير («أوابك»: الطلب العالمي على النفط يرتفع إلى ١٠٠,٦ مليون برميل يومياً بالربع الثالث)، ٢٠٢٢.

(2) Middle East Eye: Russia-Ukraine war: How soaring oil prices will be felt in the Middle East, 2022.

لصندوق النقد الدولي بمقدار ٨, ٠٪ و٢, ٠٪ لعامي ٢٠٢٢ و٢٠٢٣، كما يتوقع أن يتراجع النمو العالمي إلى حوالي ٣, ٣٪ على المدى المتوسط أي بعد عام ٢٠٢٣ [٣].

وبسبب تراجع النمو الاقتصادي العالمي فقد تأثر النمو الاقتصادي في المنطقة العربية كنتيجة لتباطؤ مستويات الطلب الخارجي، وانخفاض الأسعار العالمية للنفط وكميات إنتاجه في ظل التزام الدول العربية باتفاق أوبك، بالإضافة إلى الأوضاع الداخلية غير المستقرة في عدد من الدول العربية، إذ بيّنت بعض الإحصائيات أن حوالي ٤٠٪ من عدد سكان الدول العربية يعيشون تحت خط الفقر العالمي، وأن تحقيق أهداف التنمية المستدامة المتعلقة بالقضاء على الفقر وعدم المساواة بين مختلف أفراد المجتمع تراجعت، وأن معدلات النمو السكاني والبطالة ارتفعت، إذ يُتوقع أن تصل إلى ٨, ٢٤٪ خلال العام الجاري[٤].

الآفاق العالمية والإقليمية لمواجهة التحديات الحالية والمستقبلية

لقد أفضت الحرب الروسية – الأوكرانية إلى مفاضلات أكثر تعقيداً على مستوى السياسات ولا سيما المفاضلة بين التصدي للتضخم وحماية التعافي، وبين دعم الفئات الضعيفة وإعادة بناء هوامش الأمان المالي والغذائي، وأصبح على صناع القرار معالجة ضعف الهيكلية الاقتصادية التي ظهرت قبل الأزمة بفترة طويلة، وذلك من خلال تحسين مناخ الأعمال المحلية لإيجاد ظروف أكثر ملاءمة لريادة الأعمال والابتكار، وتعزيز شبكة الحماية الاجتماعية وتحسين السياسات المالية، ووضع خطط تقوم بالاعتماد على المصادر الذاتية للدولة، وتطوير التعامل مع الأزمات المترتبة على الحرب وفق رؤية استراتيجية تأخذ

(٣) ينظر: تقرير صندوق النقد الدولي (تقرير آفاق الاقتصاد العالمي)، ٢٠٢٢، https://www.imf.org/ar/Publications/WEO/Issues/2022/04/19/world-economic-outlook-april-2022.

(٤) ينظر: تقرير منظمة العمل الدولية (جائحة كوفيد-١٩ أضرت بالشباب من حيث التوظيف أكثر من أي فئة عمرية أخرى)، ٢٠٢٠. https://news.un.org/ar/story/2022/08/1108842

في اعتبارها مختلف المتغيرات الآنية والمستقبلية، وبما يتلاءم مع الظروف الموضوعية في كل دولة من الدول.

ثم اعتماد سياسات ولوائح تنظيمية هدفها تخفيف مخاطر وقوع صدمات عالمية، وفي الوقت نفسه تعزيز الاستثمارات في أنظمة طاقة قادرة على الصمود، والتشجيع على التغيُّرات السلوكية، والتركيز بشكل أكبر على التدابير المتعلقة بتعزيز الإنتاجية، والحدّ من انعدام الأمان الاقتصادي، ورفع نسبة النمو الاقتصادي من خلال تحفيز الاستثمارات، التي يعد دورها أساسياً في إعادة النشاط لعجلة الاقتصاد والتجارة وتحسين مستويات المعيشة، من خلال توفير السلع، وخفض نسب البطالة المتصاعدة وتوفير فرص العمل للمواطنين، وبالتالي إتاحة المجال للاعتماد على الذات وبناء مجتمع الإنتاج.

إضافة إلى ما يتبع ذلك كله من زيادة معدلات الادّخار، والمساهمة في زيادة الصادرات وتنوع المقدرات الاقتصادية، وتوفير ظروف ملائمة لنقل التكنولوجيا والنهوض بالقدرات الفنية والتكنولوجية للقوى البشرية، وهذا هو الاستثمار الأنسب على الصعيدين المحلي والدولي من خلال الطرق المباشرة وغير المباشرة، والعمل على تأمين الطاقة الوطنية وتعزيزها، وتوسيع العمل في قطاع الطاقة المتجددة والبحث فيه، وتعزيز الأمن الغذائي وإعادة مراجعته على ضوء أمن الطاقة وما رسمته الحرب الروسية-الأوكرانية، ذلك لأنه من أكثر القطاعات التي تتفاقم تبعاته بسبب المشكلات الدولية، والعمل على الحد من الاعتماد على الدول الأخرى في قطاع الطاقة.

العمل العربي المشترك ومعالجة الأزمات

وفي هذا المجال أدعو الدول العربية للعمل الجاد والمشترك نحو دعم الأمن المائي والغذائي خصوصاً أنها من أكبر المستوردين للغذاء بمعدل يصل إلى ٢٨٥ دولاراً للفرد سنوياً، وإيجاد حالة من الاكتفاء العربي في السلع الاستراتيجية

وخصوصاً الحبوب للوصول إلى الأمن الغذائي، وأن تتعاون الدول العربية الحليفة في منظمة «أوبك» من خلال الاستفادة من أرباح ارتفاع أسعار النفط والغاز للقيام بمشروع عربي لزراعة الحبوب في الدول العربية المؤهلة للزراعة للوصول إلى الاكتفاء الذاتي(٥).

ويرى بعض الدارسين الاقتصاديين أن من أسباب التراجع الاقتصادي في بعض الدول العربية ضبابية الفكر التنموي وغياب الرؤية الاقتصادية، وعدم التفكير في مفهوم التحول الاقتصادي والانتقال من مرحلة بنيوية إلى مرحلة أخرى، وتجاهل التحولات الاجتماعية السلبية الناتجة عن تفاقم مشكلات الفقر والبطالة، وتغييب دور الجامعات والخبراء والعلماء الاقتصاديين عند رسم الخطط التنموية والسياسات الاقتصادية، وتجذر ثقافة التوجه إلى الأجنبي عند الإدارة العربية لرسم الخطط والاستثمار، كما أن أهم سبب لتدني التجارة البينية بين الدول العربية هو الإنتاج السلعي الضعيف، وعدم وجود تكامل اقتصادي عربي للإنتاج، لذا يمكن أن تعمل كل دول عربية على مشروع التحول إلى دولة إنتاجية اقتصادية، وبناء نظام اقتصادي تتعظم فيه مدخلات العلم والتكنولوجيا، والاستفادة من التجارب السابقة للخروج من هذه الأزمة.

وتحتاج منطقتنا العربية إلى العديد من الإجراءات والإصلاحات التي من شأنها إزالة العوائق وسد الفجوات من أجل تحقيق الاقتصاد المعتمد على الذات وتحقيق الهدف السابع من أهداف التنمية المستدامة، وهو تحقيق زيادة كبيرة في استغلال الطاقة المتجددة التي أثبتت أنها أكثر مرونة وقدرة على الصمود في وجه التحديات مقارنة بمصادر الطاقة الأخرى خلال أزمة كورونا، وهذا يتطلب

(٥) ينظر: د. عصام الجلبي، محاضرة في منتدى الفكر العربي، (أثر الحرب الروسية الأكورانية على أسواق النفط وأسعاره)، عمّان.

وضع العديد من السياسات والاستراتيجيات والاستفادة من التطور التكنولوجي المتسارع في استخدام هذه الموارد.

المسؤولية العالمية في تحقيق أهداف التنمية المستدامة

أشير هنا إلى تقرير للبنك الدولي الذي صدر في عام ٢٠٢١ تحت عنوان «تتبع الهدف السابع من أهداف التنمية المستدامة: التقدم نحو تحقيق الطاقة المستدامة»، والذي بيّن أن السنوات العشر الماضية شهدت زيادة في نسبة سكان العالم الذين أُتيحت لهم الكهرباء أكثر مما كانت عليه في أي وقت مضى، وبَيّن التقرير أنه ما لم يتم تعزيز الجهود بدرجة كبيرة في البلدان التي تعاني من أكبر حالات العجز في الحصول على الكهرباء؛ فإن العالم سيعجز عن تحقيق هدف حصول الجميع على خدمات الطاقة الحديثة الموثوقة والمستدامة بتكلفة ميسورة بحلول عام ٢٠٣٠ [٦].

وبالرغم من وجود فجوة كبيرة بين دول العالم في موضوع الطاقة، إلا أن هناك تقدماً واضحاً في العديد من الجهات، وفي مشهد الطاقة العالمي الذي يشهد تحولاً رئيسياً، وتؤدي الطاقة المتجددة دوراً حيوياً متزايداً في مساعدة البلدان على إنشاء شبكات طاقة حديثة وآمنة.

إن التحول نحو الطاقة المتجددة أمرٌ حتمي، وهذا يتطلب من الدول المنتجة للنفط وخاصة الدول العربية النظر إلى تاريخها في تعاملها مع النفط، وعدم السماح للشركات والدول الأجنبية أن تخل بمبدأ العدالة وأن تهيمن على هذا القطاع كما فعلت بقطاع النفط. كما أن مصادر الطاقة المتجددة شهدت نمواً غير مسبوق خلال الأعوام العشرة الماضية، فشهد عام ٢٠١٨ تحسناً ملحوظاً

(٦) يتظر:البنك الدولي، تقرير (تتبع الهدف ٧ من أهداف التنمية المستدامة: تقرير بشأن التقدم المحرز في مجال الطاقة في المنطقة العربية)، ٢٠٢١.

في أعداد البلدان التي تتبع سياسات متقدمة للطاقة المستدامة بأكثر من ثلاثة أضعاف خلال الأعوام الثمانية السابقة إلا أن حصتها من إجمالي الاستهلاك النهائي للطاقة ظلت ثابتة مع نمو استهلاك الطاقة العالمي بمعدل مماثل، والأداء القوي في سياسات الطاقة المتجددة الموزع على جميع مناطق العالم، وبين فئات الدخل المختلفة، حيث كانت البلدان الخمس التي حققت أكبر تقدُّم في سياساتها خلال السنوات الأخيرة من خارج مجلس التعاون الاقتصادي والتنمية، هي ساحل العاج والإمارات ورواندا والأردن ومصر.

كما يمككنا التوسع في الاقتصادات الخضراء والزرقاء (موارد المحيطات واستخدامها المستدام)، إذ يمكن توفير ٨,٤ مليون وظيفة إضافية للشباب بحلول عام ٢٠٣٠، وذلك من خلال تنفيذ تدابير السياسة الخضراء والزرقاء[٧]، ويتوقع أن تسرع عملية تحول الطاقة توسع الاقتصاد العالمي بنسبة ٢,٤٪ أي أكثر من النمو المتوقع للخطط الحالية خلال العقد المقبل، وتوفير ما يصل إلى ١٢٢ مليون وظيفة متعلقة بالطاقة بحلول عام ٢٠٥٠، وهو ما يتجاوز ضعف عدد الوظائف المسجلة عام ٢٠١٩ عند ٥٨ مليون وظيفة[٨].

وأؤكد هنا أهمية التنسيق بين الدول العربية والعمل على تطوير التكنولوجيا المتعلقة في مجال الطاقة المتجددة فيها، وخصوصاً الطاقة الشمسية، فالأردن والإمارات العربية والمغرب من الدول العربية التي نجحت في توليد الطاقة البديلة وتعمل على تحسين إنتاجها من الطاقة المتجددة، كما ينبغي على الدول العربية العمل على تحسين بنية الاقتصاد الوطني وتطويرها من خلال تحسين القدرة على الاستثمار والتصنيع، والعمل على مشروع وطني لتصنيع الاقتصاد

(٧) المرجع السابق.

(٨) ينظر: الوكالة الدولية للطاقة المتجددة، تقرير (توقعات تحولات الطاقة حول العالم)، ٢٠٢٢.

وتنويع مصادره في الدول التي تعتمد على النفط بشكل كبير في اقتصادها، مع ضرورة أن تبدأ المنطقة العربية بتصنيع المعدات والخلايا والأنظمة سواء للطاقة الشمسية أو طاقة الرياح، والدخول في تصنيع تكنولوجيا الطاقة المتجددة بأشكالها المختلفة.

التحديات الأمنية في قارة آسيا

ودور مؤتمر التفاعل وبناء تدابير الثقة CICA

في تعزيز الأمن الجماعي في القارة

د. عادل العضايلة*

لا يخفى على أحد أن المخاطر والنزاعات الجيوسياسية في العالم اليوم باتت مُقلِقة إلى حدّ كبير، وعلى الرغم من أن توصيات المؤتمرات والتقارير والدراسات الدولية تحذر من خطورة عدم حل هذه المخاطر، إلا أن الأنظمة السياسية لا زالت غير قادرة أو غير راغبة بفعل شيء ملموس للتعامل مع هذه المخاطر، فالتهديدات والمخاطر التي تواجه العالم هي، تهديدات تقليدية تتشابه فيها الفواعل والخصائص، كالنزاعات الحدودية، والصراعات الداخلية العرقية والطائفية والمذهبية، وانتشار السلاح النووي وسباق التسلُّح وغيرها، فضلاً عن تهديدات غير تقليدية، وهي أنماط جديدة من التهديدات ظهرت في العلاقات الدولية، لكنها مجهولة المصدر، ولا تصدر عن دول أو وحدات سياسية، والأطراف فيها غير متكافئة، كالإرهاب، والتطرف، والاتجار بالمخدرات، والجريمة المُنظَّمة العابرة للحدود، والأمن السيبراني، والتهديدات الوبائية، والاتجار بالبشر، وغسيل الأموال، وغيرها.

بدأ تأسيس النظام الدولي الحديث مع إقرار معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨، والذي قام على مبدأ توازن القوى وحفظ الأمن والسلام، وكانت أوروبا تمثِّل

---

* سفير سابق، يعمل خبير لدى منظمة مؤتمر التفاعل وتدابير بناء الثقة في آسيا (الأردن).

مركز الثقل في هذا النظام، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وإنشاء منظمة الأمم المتحدة، انبثق نظام دولي ثنائي القطبية بوجود عملاقين من مراكز القوّة، ظلّ حتى عام ١٩٩١ عندما انهار الاتحاد السوفياتي، لتتربع الولايات المتحدة على عرش النظام الدولي كقوة مهيمنة وحيدة عرفت بالنظام الدولي أحادي القطبية، ولكن بموازاة ذلك هناك مجموعة من القوى الدولية تصعد بقوة إلى المشهد الدولي، هي الصين وروسيا والهند والاتحاد الأوروبي وربما على شكل تجمعات كدول البريكس.

ومن هنا يمكن القول إن نظاماً دولياً جديداً تصاغ ملامحه السياسية، وإن لم تتبلور حدوده بعد، ومن هي الدول المشاركة فيه، وهل سيكون نظاماً ثنائي القطبية أم متعدد الأقطاب، وفي كلتا الحالتين ستكون الصين أحد أطراف هذا النظام.

وإستناداً إلى نظرية القوة في العلاقات الدولية، فإن مركز القوة في هذه الحالة سينتقل من الغرب إلى الشرق، أو بشكل أدق سيعود إلى الشرق، لأنه من المعروف أن آسيا كانت هي مركز القوة قبل نحو ٦٠٠ عام، وكانت الصين هي القوة العظمى إبان حكم مملكتها الوسطى، خلال الفترة ٥٠٠-١٥٠٠، ولم تتمكن أوروبا من انتزاع القيادة منها إلا في نصف الألفية الأخيرة، ولهذا تعمل الولايات المتحدة على تعطيل ذلك بكل الوسائل والإمكانيات، أو على الأقل تأخير حدوثه، فهي تعمل أحياناً من خلال تنفيذ سياسة المحافظين الجدد القائمة على فلسفة، «فرض سيطرتها على إقليمها ومنع الآخرين من السيطرة على إقليمهم»، كما يقول المفكر الأمريكي جون مير شايمر، أحد مفكري الواقعية السياسية في أمريكا، ومن خلال تشتيت القوى الآسيوية إلى أقطاب متنافسة ومتناحرة، وأحياناً أخرى من خلال تبنى شعار المثالية العالمية، والادعاء بأنها تعمل على إشراك الآخرين بشكل فعال في السياسة الدولية والإصغاء إليهم وحل مشاكلهم.

أهمية قارة آسيا

تتميز قارة آسيا بالتنوع الثقافي والسياسي والجغرافي الأوسع في العالم، فمساحتها ٤٤,٥ مليون كم٢ وعدد سكانها ٤,٥ مليار إنسان وعدد دولها ٥٢ دولة، ساهمت في تشكيل البيئة العالمية الاقتصادية والتكنولوجية، حققت ثورة اقتصادية وتكنولوجية بنمط رأسمالي آسيوي كان للدولة دور أكبر فيه، ومن الناحية الجغرافية يوجود فيها أهم أربع ممرات مائية حيوية للعالم: مضيق ملقا وهو واحد من أهم الممرات البحرية للشحن في العالم، وأقصر طريق بحري للتجارة بين الشرق والغرب، يمر فيه سنوياً نحو ٥٠ ألف سفينة، ومضيق هرمز ويعبره يومياً نحو خمس إنتاج العالم من النفط، ومضيق باب المندب ويعبره نحو خمسة ملايين برميل من النفط يومياً، ومضيق البسفور ويعبره ثلاثة ملايين برميل يومياً.

المشهد الأمني في آسيا

المشهد الأمني في آسيا معقد ومتشابك، ففي شمال شرق آسيا حيث المثلث الصيني الكوري الياباني بمكوناته المعقدة، نجد تطوراً متميزاً على مستويات متقدمة في العلاقات الاقتصادية والتجارية، لكن على الصعيد الأمني والسياسي لا زال عدم الثقة والشك والريبة هما سيد الموقف، بسبب ما يطلق عليه «قضايا التاريخ وجروح الاستعمار»، وقد شاهدت بحكم عملي سفيراً للأردن في كوريا مدة خمس سنوات، كيف كانت شعوب هذه الدول وحكوماتها تستعيد ذاكرة التاريخ في كل مناسبة وطنية للتنديد بالحقبة الاستعمارية، تتداعى فيها الخلافات من حديث عن جرائم إلى تصريحات، إلى ردود أفعال سياسية عنيفة، ثم قرارات حكومية ثأرية متبادلة، وفرض قيود تجارية تؤثر على حركة التجارة والأشخاص بينهما.

أما في شرق آسيا فالعلاقة الهندية الباكستانية المتوترة هي سيدة الموقف، على الرغم من اندلاع ثلاثة حروب قاسية بينهما في الأعوام ١٩٤٧ و١٩٦٥ و١٩٧١، ودخول القوتين في سباق تسلح نووي وتقليدي، إلا أن المخاوف من تكرار السيناريو

الأفغاني في كشمير لا زالت قائمة، وإذا ما استمر الوضع عليه فقد يتصاعد النزاع إلى صدام مسلح، قد تضطر الباكستان فيه لاستخدام السلاح النووي، وهو ما يعني كارثة ستصيب المنطقة بأسرها، خاصة وأن الصين بجوار البلدين.

أما في دول آسيا الوسطى، حيث الموقع الاستراتيجي والثروات الطبيعية، والآفاق الاقتصادية الواعدة، ومركز خطوط أنابيب النفط والغاز، وممر طريق الحرير وخطوط السكك الحديدية والموانئ الدولية، فقد أصبحت مركز تنافس بين الولايات المتحدة والصين وروسيا فيما يُعرف باسم اللعبة الكبرى الجديدة.

تطرح التحديات الأمنية في آسيا الوسطى نفسها بقوة على الرغم من أن دولها بذلت جهوداً كبيرة لمواجهتها، لكن الانسحاب الأمريكي المفاجىء من أفغانستان خلَّف فراغاً أمنياً كبيراً، وأعاد المخاوف حول قدرة الدول على التكيف مع مرحلة ما بعد الانسحاب الأمريكي، والخشية من عودة التطرف والتهديدات الإرهابية بإنمطاط جديدة ومن عمليات نزوح جماعي من أفغانستان تؤثر على استقرار المنطقة.

وتزداد المخاوف من أن تصبح أفغانستان بيئة ملائمة لنشاط التنظيمات الإرهابية وتمددها في المنطقة، وعودة تنظيم داعش والقاعدة، والمجموعات الجهادية الأخرى، وتجارة المخدرات والجريمة المنظمة، وعلى الرغم من الانسحاب الأمريكي من أفغانستان وإغلاق بعض القواعد العسكرية في دول آسيا الوسطى، إلا أن الولايات المتحدة بدأت بتعزيز وجودها في المنطقة، من خلال إقامة قواعد عسكرية قادرة على نشر طائرات بدون طيار، لردع حكومة طالبان، ولمواجهة وإعاقة توغل الصين أكثر في هذه المنطقة.

أما في منطقة غرب آسيا فعلى الرغم من الأحداث التي تُفرض عليها إقليماً ودولياً، وعلى الرغم من تراجع أهميتها نسبياً في السنوات الأخيرة، إلا أنها تبقى في قلب اهتمام القوى الكبرى، بسبب موقعها الاستراتيجي، وتوفر موارد الطاقة، وخطوط الملاحة الدولية، وستظل تحظى بأهمية واسعة ومنطقة صراع للقوى الكبرى.

وتتداخل هنا القضايا بشكل أكبر لتصبح أكثر تعقيداً، خاصة في ظل الصراعات الداخلية والحروب الأهلية، والتمدد الإيراني في الإقليم والتدخل التركي، واستغلال الجانبين للفوضى السائدة في المنطقة، بالإضافة إلى الانقسامات الطائفية والعرقية والصراع الشيعي السني، ومكافحة التطرف والإرهاب، وعلى رأس كل ذلك الصراع العربي الإسرائيلي ومآلات القضية الفلسطينية غير الواضحة.

أما في جنوب شرق آسيا فيتصدر المشهد الأمني، تصاعد الصراع حول المناطق المتنازع عليها حول الجزر والحدود البحرية، وقضايا الإرهاب والجريمة العابرة للحدود، وأزمة موارد المياه، والأمن البشري والغذائي والتدهور البيئي، وعلى رأس كل ذلك الصراع في بحر الصين الجنوبي، وعقد التحالفات الأمنية والعسكرية، وحشد القوات والأساطيل البحرية.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه اليوم في ظل هذا الواقع كيف يمكن للدول الآسيوية التعامل مع هذه التحديات المعقدة؟

الحقيقة على الرغم من أن التجربة الآسيوية في مجال التنمية الاقتصادية والتكنولوجية تعتبر من أنجح التجارب في العالم، إلا أن الدول الآسيوية فشلت في بناء منظومة أمنية سياسية مؤسسية تحقق الأمن والرخاء والازدهار، كما فعلت الدول الأوروبية التي تجاوزت آلام الحرب العالمية الثانية، وقامت ببناء منظومة مؤسسية «الاتحاد الأوروبي»، نجحت في جلب السلام والرخاء إلى شعوب أوروبا.

الرؤى الأمنية الرئيسية التي تتصارع في آسيا

في ظل هذه التشابكات والتعقيدات الأمنية في القارة نستطيع أن نرصد ثلاث رؤى أمنية رئيسية تتقاطع أحياناً وتتعارض أحياناً أخرى حول كيفية تشكيل نظام أمني في آسيا:

الرؤية الصينية

ترتكز رؤية الصين الأمنية على مفهومين هما: «ثنائية الأمن والتنمية» و«الأمن غير القابل للتجزئة»، ولأن الأمن ضروري لتحقيق التنمية فهو بالضرورة الضمانة لحماية السلام والاستقرار والرخاء، وترى الصين أنه من خلال التنمية يمكن مواجهة التحديات الأمنية في آسيا والعالم على حد سواء، على اعتبار أن مصالح الناس وعلاقاتهم متشابكة ومتداخلة في هذا العالم، لتعزيز السلام والازدهار الاقتصادي، وتعزيز الروابط الاجتماعية والثقافية والتاريخية، خاصة وأن الصين تقدم نفسها للدول على أنها شريك اقتصادي وتجاري يمكن الاعتماد عليه، وليس في نيتها أو من أهدافها استغلال الشعوب وثرواتها كما يفعل الغرب، وفي هذا الإطار تأتي المبادرات والمشاريع الصينية التنموية العالمية المختلفة ومنها:

١- مبادرة «الحزام والطريق» أو «حزام واحد طريق واحد»: مشروع لإحياء طريق الحرير القديم بشقّيه البحري والبرّي، أطلق عام ٢٠١٣، وهو عبارة عن حزام اقتصادي يتضمن نحو ألف مشروع، لربط الدول الأوروآسيوية بشبكة من الطرق البرية والحديدية وخطوط الطيران وأنابيب النفط والغاز وشبكات الإنترنت، أما طريق الحرير البحري أو ما اصطلح على تسميته «سلسلة اللآلئ»، وهي عبارة عن منظومة موانىء متكاملة تربط القارات ببعضها.

٢- البنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية، الذي تم إطلاقه عام ٢٠١٦ لمواجهة هيمنة الولايات المتحدة والغرب على البنك الدولي وصندوق النقد الدولي.

٣- مشروعا: صنع في الصين ٢٠٢٥ ومشروع المعايير الصينية ٢٠٣٥، كشكل من أشكال الحرب التكنولوجية الباردة بين الصين والغرب، للسيطرة على سوق التكنولوجيا العالمي، وكسر الهيمنة الغربية في قطاع التكنولوجيا، ولهذا هاجمت الولايات المتحدة المشروعين كغيرهما من المبادرات الصينية، ووصفتهما بأنهما سرقة مجهود علمي أمريكي ومن ثم البناء عليه.

وفي هذا يقول البرفسور سون ديجانغ، المتخصص فى شؤون الشرق الأوسط بجامعة فودان الصينية، إن هذه المشاريع هي عبارة عن «نسخة صينية للعولمة مقابل العولمة الغربية، كما أنها مشاريع للسلام الإنمائي مقابل السلام الديمقراطي الغربي».

وتقول الصين إن رؤيتها الأمنية ترتكز على مبادىء معاهدة وستفاليا القائمة على مبدأ السيادة ورفض الخضوع لأية إملاءات خارجية، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول، والولاء القومي للدولة ولنظامها السياسي، وهذا يعني فرض الدولة سلطتها المطلقة والدائمة على كافة القضايا داخل حدود إقليمها، والسياد في نظر الصين تتفرع إلى أشكال سياسية واقتصادية وثقافية وتكنولوجية، وضمن هذا المفهوم تعتبر الصين أن فرض الولايات المتحدة قيمها على العالم أو حتى الترويج لها انتهاك لسيادة الدول.

ومع ذلك فلا شك أن الصين توظف هذه الرؤية لتحقيق مكاسب سياسية، لكنها ليست بعقلية استعمارية لاستغلال ثروات الشعوب ومقدراتها، ومن هنا يمكن القول إن جوهر هذه الرؤية ترتكز على أربعة عناصر رئيسية كما حددها وزير الخارجية الصيني «وانغ يي» وهي: الأمن المشترك لأن الأمن الذاتي لا يمكن تحقيقه بسبب تشابك وترابط المصالح، والأمن الشامل بحيث يشمل جميع أنواع الأمن التقليدي وغير التقليدي، والأمن التعاوني، لأنه لا يمكن تحقيق الأمن للجميع من دون تعاون وثقة متبادلة، والأمن المستدام بحيث يكون الأمن دائماً وغير مؤقت أو آني لحل كافة القضايا وتداعياتها في المنطقة.

الرؤية الأمريكية

بعد انتصار الولايات المتحدة في الحرب الباردة وظهور ما اصطلح على تسميته «القرن الأمريكي»، بدا تيار المحافظين الجدد بوضع تصوراته للقيادة الأميركية للعالم وكيفية الحفاظ عليها، فجميع قادة المحافظين الجدد من أمثال ديك تشيني وجون بولتون وبول ولفويتز، اتفقوا على اتخاذ كل ما يلزم من

وسائل لمنع ظهور منافس جديد للولايات المتحدة، والنوايا هنا متجه نحو الصين، وفي هذا تقول كوندوليزا رايس مستشار الأمن القومي للرئيس بوش الابن: «إن الصين تريد تغيير الوضع القائم، وتغيير موازين القوى في آسيا لمصلحتها، وهي خصم استراتيجي للولايات المتحدة».

ولهذا بدأت الولايات المتحدة تعمل مبكراً على هندسة نظام أمني وسياسي في آسيا على النمط الأمريكي، بدءاً من دعم نظام «شيانغ كاي شيك» في تايوان، وإنقاذ كوريا الجنوبية من سيطرة الشيوعيين خلال الحرب الكورية ١٩٥٠-١٩٥٣، ومروراً بالتدخل الأميركي المباشر في فيتنام عام ١٩٦١، والمساهمة الفاعلة في إنشاء التحالفات الإقليمية والثنائية مع الدول الآسيوية، ووجدت واشنطن في الخلافات الإيديولوجية بين قطبي النظام الشيوعي «الصين والاتحاد السوفياتي»، التي بلغت ذروتها في ستينيات القرن الماضي، فرصة لتحييد الصين وعزل الاتحاد السوفياتي، وعرقلة مساعي موسكو مدّ نفوذها في آسيا.

أفول عهد القرن الأمريكي

ما من شك أن أوهام القرن الأميركي بدأت تتلاشى خاصة بعد الفشل الذي منيت به الولايات المتحدة في أفغانستان والعراق والحرب على الإرهاب والأزمة المالية العالمية، بموازاة تقدّم قوى تعتبر خصوماً لواشنطن، تمتلك إمكانات وقدرات اقتصادية ومادية وبشرية وتكنولوجية هائلة، وأصبحت المنافس المحتمل للولايات المتحدة. ودفعت هذه التطورات صانع القرار الأميركي إلى إيلاء اهتمام أكبر في قارة آسيا والعالم، لمواجهة طموح المنافس الأكبر وصاحبة اليد الطولىً هناك الصين ومن بعدها روسيا.

وهو ما عبر عنه منظروا البيت الأبيض بسياسة الاتجاه شرقًا وإعادة التوازن في شرق آسيا والمحيط الهادىء»، وعليه أصبح التنافس على أشده بين اتّجاهين متباينين هما، طموح الصين تعزيز دورها الإقليمي والدولي بما يتناسب مع قدراتها الاقتصادية والعسكرية، وسعي الولايات المتحدة للحفاظ

على مصالحها ومكانتها الدولية، ومع تشابك وتعقيدات العلاقات الدولية في عالم اليوم فإنّ تداعيات الصراع بين واشنطن وبكين على المستوى الأمني، طالت كافة مناطق آسيا، من جنوب شرقها وما حولها، وتجاوزها إلى شرق آسيا وشبه الجزيرة الهندية مروراً بغرب آسيا ووصولاً إلى آسيا الوسطى.

ومع إقرار معظم الأمريكيين بمركزية قارة آسيا والصين تحديداً لمصالح بلادهم الاقتصادية، فقد سعت الولايات المتحدة إلى خلق علاقات تعاون بنّاء مع الصين، لحماية مصالحها في المنطقة، وضمان الدعم الصيني لممارسة أقصى قدر من الضغط على كوريا الشمالية لإنهاء برنامجها النووي، إلا أنها في الوقت نفسه تعمل على محاصرة الصين وتحييدها عن إنشاء أي منظومة أمنية آسيوية إقليمية، يكون للصين يد طولى فيها، ولهذا تعمل على إحداث شرخ في العلاقات بينها وبين جيرانها وبقية الدول الآسيوية، من خلال تقويض الدور المركزي للمنظمات والتجمعات والاتحادات الإقليمية في آسيا.

وهنا يمكن القول إن الرؤية الأمريكية الأمنية في آسيا والمحيط الهادئ ترتكز على أربعة عناصر هي، التحالفات الثنائية والإقليمية، والترويج للقيم الغربية، وحماية حرية التجارة، وحماية ممرات الملاحة البحرية. ولأن منطقة آسيا مركزية للمصالح الاقتصادية والأمنية الأمريكية، كان لا بد من بناء منظومة تحالفات ثنائية ومتعددة عسكرية وأمنية واقتصادية، بالإضافة إلى بناء شراكة استراتيجية تقوم على مبادىء سيادة القانون والحكم الرشيد والتجارة الحرة والحوكمة والديمقراطية وحقوق الإنسان.

ولتشويه صورة الصين تصف واشنطن دوماً الأنشطة الصينية في بحر الصين الجنوبي على أنها مخالفة للقانون الدولي، وغير مشروعة، وأن دفع المزيد من التعزيزات العسكرية إلى بحر الصين الجنوبي، واستصلاح الجزر القائمة، وبناء الجزر الاصطناعية وإقامة قواعد عسكرية عليها، أمر ينتهك روح القانون الدولي للبحار ويقوض الروح الجوهرية للتعاون الإقليمي ويجب معاقبة الصين عليها.

وفي إطار تعزيز تحالفاتها الأمنية في آسيا جاء اتفاق أوكوس AUKUS لتصنيع الغواصات النووية لصالح أستراليا، بهدف تعزيز الأمن في بحر الصين الجنوبي والمحيط الهادىء، لكن الحقيقة أن في الاتفاق هدفاً آخر أبعد من صفقة الغواصات، وهو أن هذا الاتفاق عبارة عن تحالف استراتيجي تكنولوجي عسكري لتبادل المعلومات والمعرفة في المجالات الأمنية والدفاعية والتكنولوجية والذكاء الاصطناعي، لمواجهة الصين وتعطيل قدراتها الدفاعية وعرقلة عمل أساطيلها في بحر الصين الجنوبي.

أما في المنطقة العربية في غرب آسيا فمن المعروف أن الولايات المتحدة تمكنت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، من الهيمنة على المنطقة بشكل كامل، لحماية مصالحها المعروفة، وتمكنت من صياغة تحالفات مع بعض دولها، وعلى الرغم من تراجع النفوذ الأمريكي خلال مرحلة المد القومي العربي والنزعة التحررية، إلا أنها عادت بقوة في سبعينيات القرن الماضي، لتعزز نفوذها بشكل أكبر، وتصبح لاعباً رئيسياً في صياغة سياسات المنطقة والتلاعب بقضاياها.

وتمتلىء ملفات أمن المنطقة بالاتفاقيات والتحالفات الأمنية مع قوى خارجية ذات نفوذ وقوة على رأسها الولايات المتحدة، وتأتي هذه الاتفاقيات في ظل عدم وجود رؤية أمنية عربية موحدة تتوافق عليها جميع الدول، حتى إنه وعلى مدى عقود تكونت قناعة لدى معظم دول المنطقة، بأن التحالف مع الولايات المتحدة هو أفضل وسيلة لحماية أمن المنطقة ودولها، على اعتبار أن واشنطن ركيزة أساسية للأمن والدفاع عن المنطقة، حتى إنه مع تغير الظروف وتآكل الثقة بالولايات المتحدة، ونسج تحالفات أمنية مع قوى خارجية أخرى غيرها، إلا أن الولايات المتحدة لا زالت القوة الأكثر تأثيراً ونفوذاً في المنطقة.

وقد أشار الرئيس جو بايدن خلال زيارته للمنطقة بقوله «إن الولايات المتحدة تعتزم المحافظة على وجودها النشط في الشرق الأوسط ولن تسمح بفراغ تملأه روسيا أو الصين»، كما أكد على ذلك الناطق الرسمي للبيت الأبيض بقوله، «إن واشنطن تعتقد أن عدداً كبيراً من دول المنطقة تفضل الولايات المتحدة على روسيا والصين، وقد سمعنا في كل عاصمة أن خيارهم الأول وأولويتهم هو الولايات المتحدة».

الرؤية الروسية

عبر تاريخها كانت روسيا تنظر إلى «أوروبا الكبرى» على أنها شريك في التاريخ والجغرافيا والثقافة، وحاولت نسج علاقات متطورة معها من منظور المصالح والمنافع المتبادلة، حتى إن بعض المفكرين الروس، طرحوا بعد انهيار الإتحاد السوفياتي، فكرة انضمام روسيا إلى معظم المؤسسات الأوروبية بهدف الاندماج مع أوروبا بشكل أقوى، للمساعدة في تحقيق التنمية وتعافي الاقتصاد الروسي، لكن هذه الدعوات لم تلقَ أذاناً صاغية من أطراف روسية عديدة، لأنهم يوقنون بأن الولايات المتحدة لن تقبل ذلك، وماضية في عزل روسيا ومحاصرتها بكل الوسائل والإمكانيات.

حاولت واشنطن عزل روسيا اقتصاديا وكبح جماح نمو اقتصادها، وتعطيل دبلوماسيتها للطاقة التي كانت تسعى من خلالها الهيمنة على أوروبا، وضرب علاقاتها مع الدول الأوروبية، وإعادة إحياء استراتيجية الرعب الأوروبي من روسيا، وتوسيع حلف الناتو باتجاه حدودها، والتهديد بتنفيذ مشروع الدروع الفضائية الصاروخية الأميركية دون موافقتها، والعمل على تفكيك الدولة الروسية من خلال تحريض النزعة الاستقلالية في القوقاز، وتعزيز الوجود الأميركي في حديقتها الخلفية في دول آسيا الوسطى.

كل ذلك دفع الرئيس فلاديمير بوتين إلى اتخاذ قراره بإعادة ترتيب أولويات بلاده السياسية، ودورها الدولي والإقليمي، والاستدارة نحو آسيا، كما ورد في تقرير نادي فالداي الروسي الذي صدر بعنوان «نحو المحيط العظيم»، والذي أكد ضرورة تحوُّل روسيا نحو آسيا بسبب أهميتها المتزايدة.

ومن خلال هذه الرؤية تسعى روسيا لإقناع الدول الآسيوية بأن الأمن في العالم واحد لا يتجزّأ، كما أن المصالح لم تعد مجرد مصالح اقتصادية وعلاقات تجارية فقط، بل تتجاوز ذلك لمصالح سياسية وأمنية، وضورة تشكيل جبهة سياسية لمواجهة سياسة الغطرسة الأمريكية والتوسع في مناطق نفوذ غيرها،

ولتعزيز هذه الرؤية سعت روسيا لتعزيز تعاونها الأمني والسياسي والاقتصادي والثقافي مع دول آسيا، من خلال المنظمات الإقليمية المختلفة، كمنظمة شنغهاي ومؤتمر التفاعل وبناء الثقة في آسيا؛ السيكا.

الأزمة الروسية الأوكرانية وتأثيرها على الأمن الآسيوي

جادل البعض بأن تأثير الحرب الروسية الأوكرانية وتداعياتها على دول آسيا سيكون أمراً ثانوياً بالنسبة لكثير من الدول غير المنخرطة في النزاع بشكل مباشر، لكن الواقع أن أزمة أوكرانيا لا تتعلق فقط بالنظام الأمني الأوروبي، وكلما طال أمد الحرب كلما كانت تداعياتها أكبر على مستقبل النظام العالمي، وخاصة على النظام السياسي والأمني في قارة آسيا، وقد ظهر ذلك جلياً في الجانب الاقتصادي، فارتفاع أسعار النفط والغاز والحبوب والأسمدة والمواد الكيماوية، انعكس سلباً على ارتفاع أسعار السلع الأساسية، مما زاد مخاوف الدول من حدوث عدم استقرار أمني وسياسي في بعض الدول.

أما من الناحية السياسية فقد أدت الحرب إلى انقسام مواقف الدول الآسيوية، فردود أفعال الدول تراوحت بين الإدانة الصريحة إلى الحياد إلى الامتناع عن الإدانة، فدول مثل اليابان وكوريا وسنغافورة أدانت الغزو الروسي وطبقت العقوبات المفروضة على روسيا، بينما تشعر بقية دول جنوب شرق آسيا بالقلق من التطورات المتسارعة، واتسمت مواقفها بالحياد بين طرفي الصراع، فيما تبنت الهند استراتيجية الغموض والحياد المتوازن، من خلال التأكيد على السيادة الأوكرانية ومحاباة روسيا في القضايا الجيوستراتيجية، وترى الهند أن الحرب هي صراع جيوسياسي بين روسيا وحلف شمال الأطلسي.

أما في غرب آسيا فعلى الرغم من أن الدول العربية تدرك جيداً أن روسيا لا تملك الإرادة ولا القدرة على أن تكون الراعي الأمني الأساسي في المنطقة، وربما في أحسن الأحوال تكون شريكاً مكملاً للدور الأمني الأمريكي لا أن تحل محله، ومع ذلك فقد كان الحياد هو سيد الموقف، ورفضت الانضمام إلى جهود

الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي لإدانة روسيا وعزلها سياسياً واقتصادياً، لأن معظم الدول العربية ترتبط بعلاقات استراتيجية مع كل من روسيا والولايات المتحدة، ولها مصالح اقتصادية وعسكرية مشتركة مع الجانبين فحاولت الحفاظ على موقف متوازن من طرفي الصراع.

لكن في الوقت نفسه يعتبر الموقف العربي الحيادي شكلاً من أشكال الاستياء من واشنطن لعدم أخذ مخاوف وهواجس الدول العربية الأمنية بعين الاعتبار، خاصة فيما يتعلق بالموضوع الإيراني والسير في طريق المفاوضات دون مشاركة الدول العربية في هذه المفاوضات، وكذلك موقف واشنطن غير الواضح من أزمة اليمن ومحاباتها للحوثيين، إضافة إلى تحيزها الكامل لإسرائيل.

أما ساحة روسيا الخلفية؛ دول آسيا الوسطى، فمنذ تفكك الاتحاد السوفيتي حاولت روسيا جمع هذه الدول تحت جناحيها، حتى لا تكون فريسة سهلة للولايات المتحدة والقوى الغربية، لأن الوجود الأمريكي في هذه المنطقة يشكل تحدياً مباشراً للأمن القومي الروسي، وهو ما وضعها بين المطرقة والسندان، فمن جهة يُنظر إلى روسيا على أنها مصدر للاستقرار والأمن والسلامة الإقليمية، ومن جهة أخرى تخشى هذه الدول على سيادتها إذا ما حققت روسيا الانتصار، ولهذا تحاول البقاء على الحياد.

الموقف العربي من قضية الأمن الآسيوي

ثمة تساؤلات حول موقف العرب من قضية الأمن الإقليمي، وهل للدول العربية دور في تحقيق الأمن الآسيوي يوازي أهميتها الاستراتيجية، خاصة وأنها تساهم بنحو ٣٠٪ من إنتاج النفط العالمي و٦٠٪ من احتياطياته، وبنحو ٢٧٪ من احتياطي الغاز العالمي. ومن دون الدخول في تفاصيل أهمية العالم العربي وموقعه الاستراتيجي االمعروفة، وأن العرب كانوا شركاء في السياسة العالمية أيام الإمبرطوريات الرومانية والفارسية، وأقول العرب وليس الدول العربية، لكن تأثير الدول العربية في السياسة الدولية اليوم بات محدوداً، وقد لا يذكر

للأسف، إلا من بعض المحاولات الخجولة، ومما يؤلم أن الدول العربية تقوم اليوم بدور المنفذ للقرارات الدولية دون المشاركة في صنعها، مع الاعتراف بأن جهوداً تبذل من بعض الدول للتأثير على تكييف القرارات التي تمس المصالح العربية وإن كانت هذه الجهود فردية.

تمكنت الولايات المتحدة بمهارة من عزل الدول العربية عن بقية دول آسيا ردحاً من الزمن، من أجل إبقائها تحت سيطرتها الحصرية عقوداً طويلة، لكن في السنوات الأخيرة يبدو أن هناك إدراكاً لدى العديد من الدول العربية بضرورة تنويع شراكاتها الخارجية وخياراتها الدبلوماسية، وبدأت حملة دبلوماسية لتعزيز علاقاتها مع القوى الآسيوية الصاعدة، خارج إطار القوى التقليدية: الولايات المتحدة وأوروبا، أو ما بات يعرف اصطلاحاً «بالتوجه شرقًا»، انسجاماً مع التحولات الدولية والإقليمية.

أسباب غياب التاثير العربي في السياسة الدولية:

وأبرزها: انشغال الدول العربية بالتحديات المحلية المتعلقة بالصراعات الداخلية والإقليمية والنزاعات المذهبية والإقليمية والطائفية وعلى رأسها الصراع السني الشيعي، عدم تجذر نظم ديموقراطية تؤمن بتداول السلطة سلمياً، وغياب المعارضة الحقيقية، وفشل المطالبات بالمساءلة والمحاسبة، والإخفاقات في مجال الحوكمة، وتفاقم ظاهرة الفساد مع سياسات الانفتاح الاقتصادي، والخصخصة والليبرالية والقصور في ميادين الحريات المدنية والتعليم وتمكين المرأة والشباب، التي تشير إليها تقارير «التنمية البشرية العربية والدولية»، والخلافات العربية العربية والسماح للقوى الدولية والإقليمية في تغذيتها، وتهميش الأقليات وحرمانها من الحقوق السياسية والمدنية ورؤية كل دولة إلى التهديدات التي تواجه الدول العربية من زاوية مختلفة.

بالإضافة إلى ذلك فإن مؤسسات التعاون الإقليمي العربي لا زالت قاصرة عن معالجة حالة الضعف التي تعانيها الدول العربية، ولم تتمكن الجامعة العربية

من إنشاء نظام أمني جماعي له أهداف مشتركة وآليات واضحة ومحددة للعمل، بسبب قصور ميثاق الجامعة ومؤسساتها المختلفة عن مواكبة المتغيرات التي طرات على النظام السياسي العربي، على الرغم من المحاولات التي بذلت ولا زالت تبذل حتى اليوم، لإيجاد توافق عربي للتعاون من خلال تعديل ميثاق الجامعة ومعاهدة الدفاع.

من جهة ثانية ساهمت التدخلات الإقليمية والدولية في المنطقة العربية، ومشاريع السلام الدولية التي طرحت لحل القضية الفلسطينية، والرؤية من الصراع العربي الإسرائيلي، بخلق تحالفات واتفاقيات أمنية إقليمية خارج إطار النظام الأمني العربي ومؤسساته، وأن معظم التحالفات الأمنية التي حصلت كانت عارضة أو ضرورية أملتها مصالح محددة بين بعض الأطراف، سرعان ما تنتهي عند انتهاء الهدف، وهناك اختلاف في رؤية الأنظمة السياسية لمصالح كل دولة ولأسلوب العمل العربي المشترك.

مؤتمر التفاعل وتدابير بناء الثقة في آسيا CICA:

تأسس المؤتمر عام ١٩٩٢ كمنتدى اقليمي بمبادرة طرحها رئيس جمهورية كازاخستان السابق «نور سلطان نزار باييف»، لتعزيز الأمن والسلام والاستقرار في قارة آسيا، ولتحقيق إجماع على نظام أمني وسياسي واحد لمواجهة التحديات والتهديدات الأمنية في قارة آسيا، بناء على ثلاثة معايير، هي: بناء تدابير تعزيز الثقة الكاملة بين الدول الآسيوية، واعتماد أسلوب التدرج والمرحلية في التعامل مع القضايا المختلفة، وتقسيم مجالات التعاون حسب الأولويات والبدء بالقضايا التي لا خلاف حولها.

تم تقسيم تدابير بناء الثقة إلى خمسة مجالات، هي: المجال الاقتصادي، المجال البيئي، المجال الإنساني، والتحديات والتهديدات الجديدة، «الإرهاب وإدارة مراقبة الحدود والاتجار بالبشر والجريمة المنظمة»، والمجال العسكري والسياسي. ومنذ أن تولت كازاخستان رئاسة المؤتمر للدورة الأولى رفعت شعار

«الشراكة من أجل الأمن والتنمية في آسيا»، وأصبحت السيكا منبراً للحوار وتبادل وجهات النظر حول قضايا الأمن والتنمية وبناء الثقة بين الدول الأعضاء، والتوصل إلى تفاهمات حول القضايا الخلافية.

في عام ٢٠١٢ طرح الرئيس الكازاخي نور سلطان نزار بابيف مشروعاً لتطوير المؤتمر وتحويله الى منظمة دولية، تحت مسمى «منظمة الأمن والتنمية في آسيا»، OSDA على غرار منظمة الأمن والتعاون في أوروبا OSCE، وقد تم اتخاذ قرار في قمة دول السيكا التي عقدت في شهر أكتوبر الماضي في أستانا، بالموافقة على تحويل المؤتمر الى منظمة دولية، وهناك الآن مشاورات تجري بين الدول الأعضاء من أجل إستكمال عملية التحويل، وقد يستغرق هذا وقتاً طويلاً، نظراً للتباينات في المواقف بين الدول الأعضاء حول تحقيق مفهوم الأمن في آسيا. ويضم المؤتمر في عضويته ٢٨ دولة أعضاء دائمين، منها ثماني دول عربية، هي مصر وفلسطين والأردن والإمارات العربية المتحدة والعراق والبحرين وقطر والكويت، و٩ دول بصفة مراقب، بالإضافة إلى ٧ منظمات دولية وإقليمية مراقبة، من ضمنها جامعة الدول العربية.

السيكا عضو مراقب في الجمعية العامة للأمم المتحدة، ويتعاون مع العديد من المنظمات: المنظمة الدولية للهجرة، ومنظمة الأمن والتعاون في أوروبا، ومكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة، ومنظمة التعاون الاقتصادي، ومنظمة شنغهاي للتعاون، والجامعة العربية، والاتحاد الاقتصادي الأوراسي، ومنظمة التعاون الاقتصادي، ومنظمة التعاون الإسلامي، والمجلس التركي، وحوار التعاون الآسيوي، ورابطة جنوب شرق آسيا، ورابطة جنوب آسيا للتعاون الإقليمي، ومجلس التعاون لدول الخليج العربية.

تعمل سكرتارية السيكا من خلال مجموعة الخبراء المتخصصين وبالتعاون مع الدول الأعضاء، على تقديم مشروع أمني إقليمي خاص بقارة آسيا، إلا أنه لم يتم التوصل حتى اليوم إلى اتفاق جماعي على أهداف هذا المشروع ومحاوره، وقد طرحت بعض المقترحات للمساهمة في بناء الثقة وتعزيز التعاون في المجال

الأمني، «كمدونة سلوك للأمن الإقليمي» و«برنامج شراكة أمنية آسيوية»، وتأسيس «مركز الاستجابة لحالات الطوارئ الأمنية الآسيوية»، وإنشاء آليات تعاون في قطاعات متخصصة، بما قد يساعد في تحقيق تعاون أكثر فاعلية، كهيئة الأمن النووي، وأمن الشبكات الإلكترونية، والقرصنة السيبرانية.

لم تغفل السيكا البعد الإنساني في برامجها ونشاطاتها المتعددة والمتنوعة، وتم اتخاذ تدابير لتعزيز الحوار بين الحضارات، والتعاون الثقافي وتعزيز القيم الديمقراطية وحقوق الإنسان، كما تعمل السيكا على تنظيم حوار بين كبار منتجي ومستهلكي الطاقة في العالم، من أجل استقرار السوق، وتعزيز كفاءة الطاقة واستخدام الطاقة المتجددة، خاصة وأنها تضم في عضويتها دولاً من أكبر المنتجين والمستهلكين، كروسيا والصين وقطر والكويت وكوريا الجنوبية وإيران والهند والإمارات العربية.

وتجمع السيكا المتضادات في عضويتها وعملها، ففيها حلفاء للولايات المتحدة وآخرين للصين وآخرين لروسيا، كما أن هناك خلافات في وجهات نظر أعضائها حول بعض الملفات الساخنة، كشبه الجزيرة الكورية والتحالف العسكري الأمريكي الكوري الجنوبي، والقضية الفلسطينية والعلاقات مع إسرائيل، والوضع في العراق وسوريا الحرب على الإرهاب، واعتماد نظام الإجماع لاتخاذ القرارات، وكل ذلك يسبب الخلافات ويعرقل التوصل إلى توافق على كثير من القرارات.

وبهدف حل هذه المعضلة تتجه معظم الدول الأعضاء نحو تجنب إثارة قضايا خلافية داخل مؤسسات وهيئات السيكا، وتترك الحديث حولها في اللقاءات الثنائية، أو بين القيادات العليا بشكل شخصي، وتلتزم في الوقت نفسه ببحث المسائل التي يتوافق عليها الجميع، وتفضل معالجة القضايا الأمنية الشائكة من خلال التعاون الثنائي وحل الخلافات خلف الأبواب المغلقة، والالتزام الصارم «بمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية» باعتباره أفضل وسيلة من وسائل تجنب الصراع.

لكن للأسف يمكن القول إن المشاركة العربية في نشاطات السيكا ضعيفة ولا ترقى لمستوى إمكانيات الدول العربية، على الرغم من أن هذه المنظمة مؤسسة ذات أبعاد أمنية وسياسية واقتصادية ذات أهمية، وهناك دول فاعلة ومؤثرة في عضويتها، كما أنها قامت بإنشاء مؤسسات استشارية مهمة في مجال تقديم المقترحات والتوصيات فيما يتعلق بالقضايا الأمنية والسياسية والاقتصادية، وهناك مشروع تنفيذ وإنشاء صندوق تمويلي لمساعدة الدول الفقيرة في بعض القضايا التنموية، إلا أن السيكا ليست من أولويات الدبلوماسية العربية في الوقت الحاضر.

يضم مؤتمر التفاعل وتدابير بناء الثقة في عضويته كلاً من: أفغانستان، أذربيجان، البحرين، بنغلاديش، كمبوديا، الصين، مصر، الهند، إيران، العراق، الأردن، كازاخستان، قيرغيزستان، منغوليا، باكستان، فلسطين، قطر، كوريا الجنوبية، روسيا، سريلانكا، طاجيكستان، تايلاند، تركيا، الإمارات العربية المتحدة، أوزبكستان وإسرائيل وفيتنام، ودول مراقبة بيلاروسيا، إندونيسيا، اليابان، لاوس، ماليزيا، الفلبين، تركمنستان، أوكرانيا والولايات المتحدة.

آفـــاق الفكـــر

- **خطاب النهضة في الفكر العربي المعاصر .. زكي نجيب محمود أنموذجاً**
(د. سعيد بوعيطة)

- **لعبة اللغة : رحلة الإنسان مع المعنى**
(د. الصادق الفقيه)

- **في المتخيَّل والمتخيَّل الديني**
(حنان البوعمري)

- **المنهج والمنهجية عند ريتشارد سويدبيرغ**
(عبد الإله فرح)

خطاب النهضة في الفكر العربي المعاصر
زكي نجيب محمود أنموذجاً

د. سعيد بوعيطة*

تمهيد

تقوم النهضة/الحداثة على وعي فكري تقدمي. تترتب عليه ظواهر وتحولات تاريخية عدة، لهذا؛ جاء التنوير في أوروبا نتاج أحداث وتحولات تاريخية مهمة، حدثت متلاحقة في فترة زمنية غير متباعدة، نتجت عنها الحداثة باعتبارها ثورة فكرية لفلاسفة ومخترعين ومبدعين، أدت إلى الثورة الصناعية، والثورة الأمريكية، والثورة الفرنسية. وقعت هذه الأحداث والتحولات في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أعقبتها حركة الاستعمار الأوروبي في المرحلة الثانية (بعد الثورة الصناعية)، كانت الأولى مع الكشوفات الجغرافية في القرن السادس عشر، لكن على الرغم من الدور السلبي الذي مارسه الاستعمار، فإن نتائج حركة التنوير قد انتشر بعضها في المستعمرات، لأن كل حدث تاريخي كبير لابد أن تصاحبه وتترتب عليه تحولات عدة، تعرضت بدورها للنقد كما حدث للتنوير في أوروبا من قبل الحداثيين من أمثال هيغل (١٧٧٠-١٨٣١م) الذي قال إن التنوير رفع شيئاً متناهياً إلى مرتبة المطلق الذي يتماثل مع الفعل الديني في العصور الوسطى، إذ لم يكن عقلانياً ولا حراً، ويختلف معه في ذلك الكثير.

---

* باحث مغربي، مدير تحرير مجلة «**نوافذ**» الصادرة عن مركز الدراسات الحضارية (المغرب).

من هنا، صار للحرية وزن وأهمية في صناعة العصر الحديث، حيث قامت هذه الحرية على النقد والاستقلال في العمل، الشيء نفسه قام به الفيلسوف إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤م)، إذ اتبع منهج المدرسة الألمانية، ذلك المنهج الذي يقود إلى التقدّم، وهو ما سارت عليه أوروبا فيما بعد برمتها. مما جعلها تنتقل من مخلفات تخلف أوروبا في العصور الوسطى إلى الحداثة في العصر الحديث، لكن لم تعد الحداثة أوروبية فقط، بل أصبحت عالمية. بدأت فكراً حداثياً، ثم غدت تحولات تحديثية على أرض الواقع، مما يعني الدمج والانصهار بين الحداثة والتحديث، فقد تشكلت عناصر تكوين التنوير من خلال العقل، والعلم، والحرية للتقدّم. بهذا المعنى، فالتنوير رفع للوصاية، وبلوغ لسن رشد لا يتأسس إلا من خلال نظام ديمقراطي أساسه المواطنة التي أساسها علاقة قانونية بين الحاكم والمحكوم، كما يشكل سلوكاً حضارياً، يؤمن بالتعددية واحترام الرأي الآخر.

إن التطور التاريخي للحداثة والتحديث يمر بمراحل كل واحدة تمهد للأخرى، تضع أساساً لما بعدها. فلولا حركة التنوير الأوروبية في فرنسا وألمانيا وبريطانيا، لما قامت الحداثة في تلك المنطقة أو القارة، ولما حدثت كل تلك التحولات والمتغيرات التي أثرت في حياة الإنسان، وغيرت فكر الناس وسلوكهم وتياراتهم ونخبهم فيما بعد، ولما وصلت البشرية إلى مراحل التقدم الذي نشهده اليوم. كان النهوض الأوروبي مؤسَّساً على العقلانية بعد إزاحة هيمنة الكنيسة على الفكر والسلطة، إذ قاد ذلك النهج إلى العلمانية والليبرالية اللتين مرتا بمخاض أنتج سلبيات عديدة. لكنهما انتصرتا في النهاية في بلدانهما وفي غيرها.

إن عصر التنوير الذي هو المنبع والأساس للحداثة والنهضة، قد اصطلح عليه مصطلحات عديدة منها: عصر العلم، وعصر العقل، وعصر الفلسفة، وعصر النقد، من منطلق أن التنوير ليس مناهضاً للدين كما يصوره خصوم التنوير والنهضة، ويراه أعداؤه خطراً على الفكر والثقافة والدين، ونحن نتحدث عن أوروبا في عصر التنوير وبعده، وقد كان الفيلسوف فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م) رمزا لعصر التنوير، إذ أوضح إيجابيات التنوير وطالب بإعادة بناء الدين

المسيحي على أساس عقلي، بيد أن المشكلة في العالمين العربي والإسلامي اللذين نهضا في فترة تاريخية معينة ثم تدهورت حضارتهما، هي المشكلة التي نعيش تداعياتها الخطيرة اليوم في مقابل التطور والتقدم الذي تعيشه أوروبا. أما في العالم الإسلامي والعربي، فقد بدأ تأثير التنوير والحداثة الأوربية في عهد الدولة العثمانية، وخصوصاً عصر السلطان سليم الثالث (١٧٦١-١٨٠٨م) في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، عندما بدأ اكتشاف أوروبا الحديثة من خلال الاحتكاك بالأوروبيين والفرنسيين خاصة بعد الثورة الفرنسية، إذ أصبحت مصر تستقبل أفكار الحداثة الأوربية قبل غيرها منذ حملة نابليون عليها في نهاية القرن الثامن عشر.

يطول الجدل حول قضية شغلت المثقفين فترة زمنية طويلة وبخاصة بعد سقوط الدولة العثمانية، إذ أزيحت مظلة الخلافة ليجد الإسلاميون أنفسهم أمام تحد أدى إلى تأسيس حزب الإخوان المسلمين المصري نهاية عقد العشرينات من القرن العشرين، مما جعله يركز على استراتيجية مفادها أن ما يحصل في العالمين العربي والإسلامي، عبارة عن تغريب يهدد الدين الإسلامي واللغة العربية، ولابد من مواجهته، لكن في مقابل، فهم العلمانيون والليبراليون العرب والأتراك وغيرهم، أن الذي جرى عبارة عن عملية تحديث شوهها الغرب باستعمار هذه الأقطار. دار بعدها جدل واسع، خاصة بعد أن ألّف طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣م) كتابه «مستقبل الثقافة في مصر». لخص فيه رأيه الخاص بالعلاقة مع الآخر/الغرب، حيث كانت رؤيته قوية وحادة، لكونها نابعة من اقتناع أساسه النهج الذي سلكه الأوروبيون. بهذا الموقف، اتهم طه حسين بالتغريب، بينما كانت دعوته حداثية، لكن على الرغم من هذا الجدال، فقد شكل جانباً مهماً في الثقافة العربية، ارتبط بالدعوة إلى الحداثة والتحديث كلما سنحت الفرصة لذلك. لكونها شاملة للأدب والعلم والاقتصاد والسياسة...إلخ، حيث جاء العديد من المفكرين ليكملوا المشوار وبناء الفكر الحداثي: محمد أركون، محمد عابد الجابري، زكي نجيب محمود...إلخ، فقد عمل هؤلاء وغيرهم على بناء خطاب نهضوي حداثي على المستوى الفكري.

مقدمة

لم تعرف النهضة باعتبارها هدفاً للمفكرين العرب، إلا بعدما وجدوا أنفسهم في مقارنة مع العالم الغربي المتقدم، حيث بدأت الصدمة الحضارية مع حملة نابليون بونابرت على مصر، أعقبتها البعثات العلمية إلى أوروبا لأغراض دفاعية، إلا أن تلك المقارنة أوجبت انتباه العرب لواقعهم المتردي حينها أدركوا بيقين ما تسبب به الحكم العثماني من تخلف وانحطاط حضاري نتيجة عزل الوطن العربي عن العالم الأوروبي المتسارع، كما مهد ضعف البلاد العربية إلى دخول المستعمر الغربي عليها، وتبعاً لهذه البيئة المتخلفة فكرياً وسياسياً واقتصادياً، ظهرت تيارات إصلاحية بغية إصلاح حال البلاد، والدعوة إلى نهضة عربية، حيث تعددت مدلولات هذه الأخيرة، بتعدد التيارات وتنوع الأقطاب والانتماءات والمرجعيات، سواء كانت دينية أو فكرية، حيث كانت العودة إلى نقاء الإسلام الأول ورفض البدع الدخيلة عنه هو سبيل النهضة عند التيارات الدينية، في حين حاول اتجاه آخر تكريس فكرة الاقتناع بالبديل الغربي باعتباره الأسلوب الأمثل للنهضة والتقدم العربي، في حين حاول اتجاه ثالث الجمع بين الحداثة والأصالة معاً في قالب واحد، لكن كل هذه المحاولات الإصلاحية كانت موحدة الهدف، تسعى لتحقيق نهضة عربية، واستمرت الجهود الفكرية في الواقع العربي الإسلامي الحديث حتى النصف الثاني من القرن العشرين، حيث راحت تبحث عن مخرج من مأزق التخلف السائد بغية التغيير من الواقع المتردي وتحقيق النهضة العربية التي قادها مفكرون عرب.

يعد المفكر زكي نجيب محمود من بين أبرز أقطاب الفكر العربي النهضوي المعاصر من خلال دعوته للاهتمام بالجانب العلمي. يقف زكي نجيب محمود على قمة الموجة الثالثة بالغة الأهمية في تيار النهضة العربية، تلك التي كانت بمثابة دعوة إلى النهوض كما أرادتها الموجة الأولى الإحيائية إبان القرن التاسع عشر مع رفاعة الطهطاوي، والتي صاغ منطقها محمد عبده.

وفي الوقت نفسه، دعوة للانفتاح على الآخر كما أراد مفكرو الموجة الثانية الحداثية في النصف الأول من القرن العشرين، إذ امتلكت بحساسيتها التوفيقية ناصية الوسطية والتوازن، فعلى الرغم من أن الكثير ممن سبقوا زكي نجيب محمود، قد ساروا على طريق النزعة التوفيقية، إلا أن دعوتهم إليها بقيت متناثرة في مناحي شتى، رهينة تعبير أدبي ما في رواية كما كان الأمر لدي نجيب محفوظ، أو خبيئة نزعة فنية رومانسية أقرب إلى الحدس الصوفي منها إلى التحليل العقلي كما كان الأمر في دعوى التعادلية لدى توفيق الحكيم في كتابه الموجز تحت العنوان نفسه، أو قرينة معالجة جزئية كما كان الأمر لدى علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»...إلخ. فيما تجاوزت هذه النزعة عند زكي نجيب محمود حد الدعوى العامة، لتستقر في مشروع كبير، امتد لثلث عمره، مالئاً كل الفراغ بين الأعمال العشرين الأخيرة من كتبه التي بدأت مع كتابه «تجديد الفكر العربي» عام ١٩٦٩، وتنتهي بـ «عربي بين ثقافتين» عام١٩٩١. حيث تميزت بدرجة من العمق النافذ إلى التحليل الفلسفي، والتأصيل الفكري لأعماق الشخصية القومية والذات الحضارية، بحثاً عن آليات التفكيك وإعادة التركيب، وكشفاً لمعايير الصدق في شتى مناحي ومكونات الثقافة العربية (الأدبية والفنية والعلمية والدينية). مما مكنه من صوغ منطق تلك النزعة/ المرحلة، وإلقاء بيانها الأخير والشهير بعنوان (الأصالة والمعاصرة).

فأين يتجلى الخطاب النهضوي في فكر زكي نجيب محمود؟ ما هي أبرز التصورات الفكرية النهضوية في فكر زكي نجيب محمود؟ ما هي المرجعية الفكرية التي يستند إليها الفكر النهضوي عند زكي نجيب محمود؟ تقودنا هذه الأسئلة المحورية وغيرها، إلى استجلاء خطاب النهضة في الفكر العربي الحديث (زكي نجيب محمود أنموذجاً) من خلال القضايا التالية: الخطاب النهضوي العربي المعاصر، زكي نجيب محمود والفكر النهضوي العربي المعاصر، الوضعية المنطقية في الفكر العربي المعاصر، المرجعية المعرفية للفكر النهضوي عند زكي نجيب محمود، البعد الفلسفي في الفكر النهضوي لزكي نجيب محمود.

زكي نجيب محمود والخطاب الفكري النهضوي العربي المعاصر

زكي نجيب محمود مفكر مصري معاصر، لقب بأديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء لاشتغاله الواسع بالفلسفة والأدب. درَّس الفلسفة في الجامعات الكويتية والمصرية، من أبرز أعماله: «تجديد الفكر العربي» (١٩٧١)، و«نحو فلسفة علمية» (١٩٨٥)، و«موقف من الميتافيزيقا»(١٩٩٥)، كما يعدّ أول مفكر يدخل اتجاهات الوضعية المنطقية إلى الساحة الفكرية العربية، ومن الرواد المتحمسين لها والداعين لها، كما يعدّ أحد أقطاب التنوير العقلاني في الفكر العربي المعاصر، وكذا أحد الرواد الداعين إلى العلم التجريبي، مما جعله صاحب مشروع نهضوي عربي. عمل المفكر زكي نجيب محمود على تقديم أفكاره ونظراته للنهضة العربية على أنها إعادة صياغة لتلك القيم القديمة بل واستبدالها بقيم جديدة، لأن القيم القديمة في نظره، غير مجدية لبناء مشروع نهضوي ناجح؛ وأن التراث لا يمكن الأخذ به في الواقع المعاصر، لذا وجب استبداله بمعطيات أخرى جديدة، تتماشى ومتطلبات الواقع المعاصر، لأن الواقع العربي المعاصر، يحتاج إلى نهضة علمية تكون معالجتها ضمن منطلقات واقعية معاصرة وليست ماضية ومنقضية، كما ربط فشل الحركات الإصلاحية، بتركيزها على الموروث والعودة إلى القديم والتقوقع داخله، مما استدعى البحث عن اتجاه جديد، يخرج الأمة العربية من الانحطاط الحضاري والفكري.

وتجلى عنده في تبني التيار العلمي الذي يرى أنه لا نهضة لأي أمّة سوى النهضة العلمية، لأن هذه الأخيرة، تشكل محور التقدم لأي مجتمع، فإذا تحققت، تحقق معها النهوض والتقدم والازدهار في جميع الجوانب الأخرى (سياسياً، اقتصادياً، عسكرياً...إلخ)، لهذا حاول إسقاط الوضعية المنطقية وأهم مبادئها على الثقافة العربية، من خلال طرحه أفكار علمية في قوالب عربية كمحاولة منه لبناء مشروع النهضة العربية انطلاقاً من منهج غربي (الوضعية المنطقية).

جعلت هذه الدعوة زكي نجيب محمود، يحتل مكانة بارزة في الفكر العربي المعاصر باعتباره أول من أدخل إلى الساحة الفكرية العربية الوضعية المنطقية التي درسها في الغرب في منتصف الأربعينات والخمسينيات، حيث واجه حضارة قوية وكان ذلك سبباً وجيها لتعرضه لصدمة حضارية، ملاحظاً درجة الفرق ومدى التفاوت الموجود بين واقع الغرب المتقدم وواقع الأمة العربية المتخلف كما تركها قبل سفره على قدر وافر من التخلف، لكن هذا ليس بجديد على المفكرين العرب الذين تعرضوا لمثل هذه الصدمة الحضارية مثل رفاعة الطهطاوي وغيره، فعند عودة زكي نجيب محمود من البعثة العلمية التي قضاها بالغرب، حاول نقل الخبرات والتجارب والأفكار التي كانت سبباً رئيساً في النهضة والتقدم والتطور على جميع الأصعدة والمستويات المرتبطة بالعالم الأوروبي المتقدم ومحاولة تطبيق مبادئها على الواقع العربي. ليتسنى له استيفاء شروط اللحاق بالركب الحضاري الذي يعتبر أمل ومطلب كل مفكر عربي. لهذا، رأى زكي نجيب محمود أن العرب إذا أرادوا أن يحدثوا نهضة عربية، لا بد لهم من اعتماد النظرة العلمية العقلية الذي استوحاها من الوضعية المنطقية، لأنه عايش عصر العلم التجريبي أثناء ازدهاره في الغرب. مما سيؤدي حسب زكي نجيب محمود إلى تطوير الفكر العربي المعاصر في شتى المجالات الثقافية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، لهذا، حاول زكي نجيب محمود تبني هذا الاتجاه العلمي، خاصة الوضعية المنطقية التي تبلورت أفكارها انطلاقاً من الإيمان بالأخذ بالنظر العقلي والعلمي، من أجل بناء فكر عربي تنويري، يساهم في بناء مشروع نهضة عربية في المقام الأول منطلقاً في هذه النظرة من المثال الأوربي الواقعي وما حدث في أوروبا من تطور هائل لا يتناقش فيه اثنان، وذلك بانطلاقها من القاعدة العلمية التي دعمها العلم التجريبي وازدهار فلسفة العلم في القرن العشرين، خاصة الوضعية المنطقية بما طرحته من مبادئ وقوانين، تنظم السير العقلاني للتفكير السليم، فقد حاول زكي نجيب محمود أن يلفت النظر إليها لاستفادة الفكر العربي من هذه المبادئ والقوانين، ليقوده إلى التجديد والانبعاث باعتباره سبيل التقدم والنهضة والرقي.

وإذا كانت دعوة زكي نجيب محمود واضحة وصريحة للنهل مما أنتجه حقل العلم التجريبي المعاصر وتبني مبادئ وأسس الوضعية المنطقية في معالجة وتحليل وتشخيص المشكلات والأزمات التي تعاني منها الأمّة العربية، فما هي ماهية الوضعية المنطقية؟ وما هي أهم مبادئها؟ وكيف حاول زكي نجيب محمود تبنيها، من أجل تحقيق نهضة عربية؟

الوضعية المنطقية في الفكر العربي المعاصر

لم يقتصر انتشار الوضعية المنطقية في العالم الغربي فقط، بل أثارت اهتمام المنشغلين بالفلسفة في الوطن العربي، حيث وجدت مؤيدين لها، ركز عليها المفكرون والباحثون المهتمون بالفلسفة، الذين أولوا للوضعية المنطقية أهمية بارزة، نتج عن ذلك اتخاذ بعض المواقف تجاه مبادئ وأسس هذا التيار.

وإذا نظرنا إلى الوضعية المنطقية باعتبارها تياراً فلسفياً معاصراً، فإنها لم تلق قبولاً في الوسط الفكري العربي وأنصاراً، يجعلون منها أحد أهم التيارات البارزة في الفكر العربي المعاصر. لكن على الرغم من ذلك، فإن هذا لا ينفي وجود صدى عند المهتمين والمشتغلين بالفلسفة في الأوساط الفكرية للعالم العربي، مما أثار جدلاً واسعاً بين أغلب الباحثين والمفكرين المنشغلين بالفلسفة، أدى إلى تباين آراء المفكرين العرب حولها، لكن على الرغم من ذلك، فإن الوضعية المنطقية أو المحدثة هي إحدى الفلسفات ذات الحضور الملحوظ في الفكر العربي المعاصر، يؤكد ذلك ما أورده بعض المنشغلين بالفلسفة، يقول إبراهيم زكريا: (من المؤكد أن الكثيرين من كتاب الطليعة أو المثقفون في العالم العربي كونوا أفكارهم وآراءهم الفكرية والفلسفية في جو مشبع بكثير من أفكار النزعة الماركسية والوجودية والفلاسفة التحليليين ودعاة الوضعية المنطقية وغيرهم)[1]، بمعنى أن الوضعية المنطقية من بين الفلسفات التي تثير اهتمام الباحثين فيها وفي أفكارها. كما يؤكد محمود أمين العالم سيادة هذه المدرسة الفلسفية في بعض الأروقة الجامعية العربية[2]، مما يدل على انتشار هذا التيار

الفلسفي العلمي المعاصر في الفكر العربي، من خلال اهتمام مفكرين وباحثين وأكاديميين به. يؤكد زكريا إبراهيم هذا من خلال قوله (شغلت فيه المعركة الدائرة بين أنصار هذا المذهب (الوضعية المحدثة) وخصومه صفحات غير قليلة من مجلاتنا، بل من جرائدنا اليوم أحياناً)[٣]. مما يدل على أن الباحثين والمهتمين بالدراسات والأبحاث الفلسفية، قد أسهبت أقلامهم في الحديث عن هذا الاتجاه، كما دافع العديد من المفكرين عن الوضعية المنطقية بحماس، لهذا، أكدوا على أن تقدم العلوم كان مقروناً دائماً باندحار الفلسفة ونكوصها، فإذا غزا العلم ميداناً من الميادين، انحسرت عنه الفلسفة التي لا تحتوي على شيء. وكأن العلم والفلسفة في نظره ضدان لا يجتمعان ولا يزال الصراع في نظره قائماً وستكون الغلبة للعلم، ما لم تغير الفلسفة طريقتها وأسلوبها ومناهجها وطبيعة مواضيعها وتتطور بتطور العلم وتتفاعل مع نتائجه، وهذا ما نلمسه في الوضعية المنطقية التي تعنى بدراسة قضايا العلم، لأن الرائد في عملية التفلسف ينبغي أن يكون العلم، لذلك، فإن الفلسفة التي لا تستوحي من روح العلم ولا تتفاعل مع الحركة العلمية هي فلسفة محكوم عليها بالفشل، كما يرى المفكر المصري صلاح قنصوه أن ما يسمى بالفلسفة العلمية، ليس فرعاً من فروع الفلسفة ولا يندرج تحت مباحثها ولا نستطيع أن نضعه كعنوان لأي مذهب فلسفي[٤]، لأن استخدام مصطلح الفلسفة العلمية يستهدف بالدرجة الأولى رفع قيمة ومكانة المذهب الفلسفي على الساحة الفكرية من خلال استعارة ما رسخه العلم من مكانة هامة وسمعة طيبة، كما يرفض الإقرار بالوجود الفعلي للفلسفة العلمية، لكونه يضع الفلسفة تحت رحمة ووصاية العلم عند المرحلة التي يصل فيها العلم أوج تطوره، بينما تتميز الفلسفة بالنظرة الشمولية للحياة، مقابل نظرة العلم الجزئية، بمعنى أن القول بفلسفة علمية يحيلنا على أن العلم جزء من الفلسفة ليس إلا، فلا يصح أن نحصر التصور الشامل للفلسفة بكل مباحثها ومواضيعها في مجال واحد فقط وهو العلم[٥].

أما المفكر العراقي ياسين خليل[٦] المتأثر بالوضعية المنطقية، فيؤكد أن الوضعية المنطقية ليست معادية للفلسفة، بل الفلسفة العلمية التي ميزت القرن العشرين، مدينة بالشيء الكثير من إنجازاتها لهذا الاتجاه الفلسفي، لهذا، اعتبر الفلسفة جزءاً من المعرفة الإنسانية. لابد أن تصل في النهاية إلى درجة العلمية مبتعدة كل البعد عن الفلسفة التي لا يكون دعامتها التجارب أو التي لا تعتمد على البرهان في دراستها وتبريرها[٧]، بل ذهب ياسين خليل أبعد من ذلك، حين اعتقد أن الوضعية المنطقية حاولت إيجاد مناهج وأدوات علمية في الفلسفة، فقد أكد أن طريقة التحليل المنطقي للغة، هي المنهج العلمي الجديد في الفلسفة الذي أنتجته الوضعية المنطقية، حيث قدمت للفلسفة منهجاً جديداً يهتم بتحليل قضايا العلوم من منح منهج التحليل المنطقي الأسلوب والطريقة الفلسفية والعلمية الخاصة، التي تعتمد صياغة العبارات بشكل واضح وبسيط من دون أن تجهد الفلسفة نفسها في بناء أنظمة فلسفية جديدة، كما يشير ياسين خليل إلى أن التحليل المنطقي حقق الكثير في مجال الرياضيات[٨]، وانعكس ذلك بنتائج إيجابية في ميدان الدراسات الفلسفية. لهذا، يؤكد أن بيرتراند راسل باعتباره فيلسوفاً ورياضياً، هو من ألهم جماعة ڤيينا اتخاذ التحليل المنطقي كطريقة علمية جديدة لحل المشكلات المعروفة في نظرية المعرفة، وكذلك حل المتناقضات المعروفة في المنطق وكذا الرياضيات، لأن منهج التحليل المنطقي يقوم بالإشادة بما حققه العلم من نتائج إيجابية وتعزيز مكانته والمشاركة في إنجازاته، وإذ يعتبر ياسين خليل أن منهج التحليل المنطقي منهج وطريقة جديدة تطبقها جماعة ڤيينا في تحليل القضايا من الناحيتين الشكلية والدلالية، فهُم يستهدفون تخليص الفلسفة والعلوم من الميتافيزيقا والقضايا الفارغة من المعنى وبناء منظومة فلسفة عامة لجميع العلوم بحيث تكون أرضية صالحة وأساسية لوحدة العلم[٩].

أما المفكر إبراهيم زكريا، فيؤكد في كتابه «مشكلة الفلسفة» أن الفلسفة تستحق لقب العلم، لأن اهتمام الفيلسوف بالتفسير العلمي هو بغير أدنى شك خاصية تميزه عن كل من الفنان والأديب وعالم الاجتماع...إلخ. كما تساءل إبراهيم زكريا عن إمكانية وجود فلسفة علمية مثلما أكد عليها راسل الذي يرى أن (المثل الأعلى للفلسفة لابد أن يكون مثلاً علمياً خالصاً، لأن مجال البحث في الفلسفة، لا ينبغي أن يتجاوز دائرة المشكلات التي لم يتحكم العلم في دراستها بطريقة علمية بحتة)[١٠].

انطلاقاً من هذا، أكد إبراهيم زكريا على أنه يرفض وجود فلسفة علمية منطلقاً من أن طبيعة مواضيع الفلسفة المختلفة لها مناهج متعددة بتعدد المواضيع والمجالات، وتختلف تماماً عن مناهج العلوم الطبيعية، لهذا، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نبني فلسفة بالتصور الكلي والشامل من معطيات وضعية جزئية، ففي رفضه هذا، يؤكد على (أن الفلسفة العلمية إنكار لكل فلسفة، لما للفلسفة من أسبقية وأولوية)[١١]، أما المفكر المغربي محمد عابد الجابري، فلا يرفض الوضعية المنطقية، لكنه يؤكد أن المنطلق والهدف الأساسي للوضعية المنطقية، يتمثل في الدرجة الأولى في رفض الميتافيزيقا، كما أن مسألة قبول أو رفض الميتافيزيقا، ليست مسألة علمية، بقدر ما هي موقف فلسفي، يسوغ مبرراً لكلامه هذا حيث أكد أن العلم ليس من مهامه أن يعطي رأيه في القضايا التي تكون خارج نطاقه واهتمامه ودراسته، كما أكد أن موقف الوضعية المنطقية من تحليل المفاهيم، معيب إلى حد كبير، إذ يرى أن التحليل المنطقي للمفاهيم والنظريات المستعملة من طرف العلم بالمعنى المنطقي الوضعي، تحليل من الناحية الصورية، يستهدف الهيكل المنطقي للغة العلم.

يرى الجابري أنه منطق صوري يشكل مع المنطق الرمزي، الوجهين الرئيسيين للمنطق الصوري الحديث باعتباره وسيلة للبرهنة والإقناع، لا للاكتشاف[١٢]، بينما العلم بحاجة أيضاً إلى الخيال المبدع بنفس المقدار إلى

الصراحة المنطقية، لهذا، ينتقد الوضعيون المناطقة في مبدأ التحقق، حيث أنهم أهملوا ما لا يمكن التحقق منه بالتجربة وحجتهم في ذلك مصادرة الأفكار الميتافيزيقية، فيمكن أن تؤدي إلى توقف العلم بتوقف الاكتشافات التي تتطلب الخيال، كما كان له الاهتمام والعناية من طرف المشتغلين والمهتمين بالفلسفة في الفكر العربي، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث اعتبر أن هذا الاتجاه قد أنتج فلسفة، تخص به أكثر من التيارات الفلسفية الأخرى، أما بالنسبة للجانب السلبي، فينتقدها نقداً لاذعاً، لأن الوضعية المنطقية تقتصر فيها مهمة الفلسفة فقط في التحليل، لهذا، رد الفلسفة إلى مجرد تحليل للألفاظ وإيضاح لها هو أمر لا يمكن أن يقر به أحد من الفلاسفة على مدار تاريخ الفلسفة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال للفيلسوف أن ينزل بمهمة الفلسفة إلى هذا الدور التافه الطفيلي[١٣]، بمعنى أن حصر الفلسفة بنظرتها الكلية وتصورها الشامل ومباحثها ونظرياتها وأقسامها ومواضيعها في جزء بسيط وهو التحليل الذي يختزل الفلسفة ومهمتها، وتقزيم لوظيفتها، لأن الوضعيين المناطقة وصلوا إلى إنكار أية مهمة للفلسفة[١٤]، كانت حجتهم في ذلك أن تحليل اللغة لوحده كاف للجواب عن المشكلات الفلسفية. لهذا، وقعوا في مبالغات فجة. لكن تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن بعض الباحثين بلغوا أوج نقدهم للوضعية المنطقية عندما أكد أن (فلاسفة أكسفورد لم يضيفوا شيئاً جديداً في تحليلاتهم الفلسفية، بل تراجعوا خطوة إلى الخلف بالنسبة إلى ما فعله أسلافهم راسل وفيجنشتاين[١٥]، من خلال ما تقدم، نجد أن الوضعية المنطقية باعتبارها اتجاهاً فلسفياً معاصراً، أثارت جدلاً في الفكر العربي بين مؤيد ومعارض.

المرجعية المعرفية للفكر النهضوي عند زكي نجيب محمود

١- المنهج الوضعي المنطقي

إن من أهم الأسباب التي جعلت زكي نجيب محمود يتبنى المنهج الوضعي المنطقي، هي وعيه العميق بكل أشكال وأنواع التخلف والتفكير اللاعلمي الذي

تعيشه الأمة العربية عامة والمجتمع المصري بصفة خاصة، نتيجة عدة ظروف وعوامل مختلفة، مثل عامل الاستبداد والغزو الصليبي والحكم العثماني سابقاً وانعدام حرية الرأي وسلطة الماضي على الحاضر والتفكير الخالي من العقلانية والتفسير المنطقي، وغيرها من العوامل التي كانت سبباً في تدهور الأوضاع الفكرية والثقافية، وظهور مشكلات اجتماعية، ونفسية وأزمات فكرية مختلفة، فقد كان للعلم في أوروبا دور حاسم في جميع مجالات الحياة وأبعادها المختلفة، ولأن زكي نجيب محمود عايش ذاك العصر، فقد انطلق من خلفية كون العلم أساس التقدم، لهذا، اتخذ زكي نجيب محمود المنهج الوضعي منهجاً له في إطار مشروعه النهضوي، لأنه يراه (أقرب المذاهب الفكرية مسايرة للروح العلمية كما يفهم العلماء الذين يخلقون لنا الأسباب الضارة في معاملهم)[١٦]، بناء على هذه النظرة العلمية، استهدف زكي نجيب محمود القضاء على مبررات التفكير اللاعقلي المتغلغل في الواقع العربي، لينتهي إلى نتيجة مؤداها أن التفكير العقلاني، سيساهم في القضاء على أسباب التخلف والجهل الذي كان سائداً آنذاك، ومن أهم تلك الأسباب هي غموض الألفاظ والخلط بين المعاني، لهذا، اعتبر الوضعية المنطقية توجهاً مناسباً لمعالجة ذلك الغموض والخلط الذي تعانيه الأمة العربية، فبلور رؤيته للوضعية المنطقية، وأهم مبادئها ونظرياتها كأنسب ما يعالج به هذه الأزمة الفكرية للواقع العربي بصفة عامة والواقع المصري بصفة خاصة.

حاول زكي نجيب محمود أن يوظف المذهب الوضعي لصالح الفكر التنويري على رأي إمام عبد الفتاح إمام، فلم تكن الوضعية المنطقية مجرد مذهب يتبناه ويتبعه، بقدر ما كانت منهجاً، يعتمد على النظرة العلمية ويدعو إليها، فلم يكن توجهه للوضعية المنطقية يهدف إلى اعتناق مذهب فلسفي يعارض به تلك المذاهب الأخرى، بقدر ما كان طريقة للسير ومنهجاً للنظر رأى فيه إصلاح الاعوجاج والتسيب الذي يُشاهَد في حياتنا الثقافية[١٧].

لم يتبنَّ زكي نجيب الوضعية المنطقية فقط ليؤيد اتجاهاً، ويعارض اتجاهات، بل كانت تمثل له المخرج والمنفذ والحل لمعالجة الأزمة الفكرية الخانقة المتمثلة في التفكير اللاعقلي، وحيث كانت الألسنة والأقلام في نظرِه ترسل كلاماً إرسالاً غير واضح وينتقص إلى الثقة والضبط في المعنى، وهو يشير هنا إلى اللغة التي لا تعبِّر عن الواقع، مما ولد حقلاً من الالتباس الفكري وشيوع الخرافة كأن نفسِّر الأحداث بغير أسبابها الحقيقة فلا نفسر المرض إلا بعلله البيولوجية كالجراثيم ونبتعد عن التفسير الخرافي، كأن نرد المرض لأمور ميتافيزيقية، فوجد الحل الوضعية المنطقية من بين التيارات التي عالجت مثل هذه القضايا بإسقاطها على اللغة العربية لتفك الغموض، وكشف التباس الفكري واللغوي[١٨]، لأن الوضعية المنطقية هي أكثر الفلسفات إيماناً بالعلم كما كانت تتصدر التيارات الفلسفية العلمية المعاصرة في القرن العشرين والتي تتخذ من العلم وقضاياه ونتائجه موضوعاً لها. كل هذه الأسباب جعلت دعوة زكي نجيب محمود تتمسك بالعلم كسبيل للنهضة العربية، وجعلته يتبنى ويتتبع هذا المنهج الوضعي لأسباب تتعلق بالنهضة العربية، وما تمر به البيئة والواقع العربي من تخلف وجهل وتفكير ونظر غير عقليين وجمود فكري، أشار إلى ذلك قائلاً: (إنني من اللحظة التي اطلعت فيها على الوضيعة المنطقية شعرت بأنه إذا كانت الثقافة العربية في حاجة إلى ضوابط تصلح لها طريقها فتلك الضوابط تكمن هاهنا، أي في الوضعية المنطقية)[١٩].

٢- الوضعية المنطقية

كانت بداية اهتمام زكي نجيب محمود بالوضعية المنطقية بعد أن اطلع على محاضرات الفيلسوف ألفرد آبير في مناقشة وتحليل هذا المذهب، وعلى رأس هذه الأعمال كتاب صغير عنوانه «اللغة والحقيقة والمنطق»، يلخص فيه اتجاهه وتصوراته الفلسفية، ومنذ ذلك التاريخ، أخذ زكي نجيب محمود يتأثر بالوضعية المنطقية التي يتبناها[٢٠]، يقول في هذا الشأن: (فما تلقيت الفكرة الأساسية

في هذا الاتجاه حتى أحسست بقوة أنني خلقت لهذه الوجهة في النظر[٢١]. أثمر تأثره بهذا الاتجاه، بتأليفه ثلاثة كتب محورية. شكلت محور رؤيته الفلسفية، وتجلت هذه الأعمال في «المنطق الوضعي» بجزأيه و«خرافة الميتافيزيقا»، و«نحو فلسفة علمية».

عرض زكي نجيب محمود في هذه الكتب الثلاثة بكثير من الحماس، نظرية التحليل المنطقي للغة وفكرة التحقق التجريبي المميز للقانون العلمي، ففي كتابه «المنطق الوضعي» الذي صدر الجزء الأول منه سنة ١٩٥١، (وهو عبارة عن دراسة منطقية من زاوية التجريبية العلمية) أوضح في مقدمة الطبعة الأولى من الكتاب، اتجاهه الوضعي الذي أخذ يدعو له ويدافع عنه، حيث قال: (أنا مؤمن بالعلم كافر بهذا اللغو الذي لا يجري على أصحابه ولا على الناس شيئاً، وعندي أن الأمة تأخذ بنصيب من المدنية يكثر أو يقل بمقدار ما تأخذ بنصيب من العلم... ولما كان المذهب الوضعي بصفة عامة، والوضعي المنطقي بصفة خاصة، هو أقرب المذاهب الفكرية مسايرة للروح العلمي كما يفهمه العلماء الذين يخلفون لنا أسباب الحضارة في معاملتهم، فقد أخذتُ أخذ الواثق بصدق دعواه وطفقت أن أنظر إلى شتى الدارسات فأمحو لنفسي ما تقتضيني مبادئ المذهب الوضعي أن أمحوه)[٢٢]، لقد حاول زكي نجيب محمود أن يكيف الوضعية المنطقية وفق ما يتوافق وخصوصيات ومقومات الثقافة العربية، لأن البيئة تختلف والمجتمع يختلف، ومما لاشك فيه أن المجتمع العربي له خصوصيته، التي جعلت زكي نجيب محمود يشكل وضعية منطقية خاصة، تختلف نوعاً ما عن دور الوضعي المنطقي الغربي، كما يقول إبراهيم بدران في كتابه «الفلسفة في الوطن العربي (لأن الوضعي المنطقي المحدث قد يختلف عن الوضعي المنطقي الأصلي من حيث الدور الذي يمكن أن يؤديه في مجتمعه)[٢٣]، لهذا، حاول زكي نجيب محمود تطبيق مبادئ الوضعية المنطقية على الواقع العربي وفق شروطه الخاصة، قصد إخراج الأمّة العربية من تلك الأزمة الحادة الناتجة عن طريقة التفكير وعدم الدقة في الجانب اللغوي.

فعلى الرغم من اختلاف سبل المعالجة والطرح والتحليل، إلا أنه اعتقد أن لا مخلص من هذه الأزمة سوى الدعوة إلى التمسك بالعلم التجريبي وما ينتجه لاستثماره في بناء الصرح الحضاري للأمّة العربية. يقول عنه المفكر اللبناني ناصيف نصار في هذا الصدد: (لقد أدرك زكي نجيب محمود أن التجديد الحضاري في العالم العربي المعاصر، يقتضي نظرية جديدة في المعرفة الإنسانية، فحدد شروط الوصول إلى الحقيقة والتعبير عنها، وأدرك أن النهضة تحتاج إلى الاعتماد على العلم وعلى فلسفة العلم، فكرس جهده الفلسفي لشرح الوضعية المنطقية ونشرها بين دارسي الفلسفة في مصر، وغيرها من البلدان العربية)[٢٤].

كما دعا زكي نجيب محمود إلى المنهج الوضعي المنطقي من خلال المحاضرات التي كان يلقيها في الجامعة، وكل ما كتبه من مقالات وكتب لإرساء دعائم مكانة العقل وإبراز أهميته في بناء الحضارات وفي بناء الأمة العربية، بذل هذه الجهود من أجل تحقيق وتبليغ رسالة تنويرية، تساهم في بناء نهضة عربية. حيث رفض كل ما يراه عائقاً لها ورفض سلطة الماضي على الحاضر، كما رفض أن يتحول القديم إلى مقدس يرفض فيه أي نقاش، لهذا، انتقد الحياة الثقافية والاجتماعية آنذاك ورفض أن تبقى رهينة مرحلة تهيمن عليها سلطة ميتافيزيقية، تفسر الأشياء بغير أسبابها، لأنه لاحظ أن القيم الأوروبية القائمة على العدل واحترام الإنسان احتلت الريادة والقيادة، في حين بقيت الشعوب العربية في حالة تدهور وتخلف.

البُعد الفلسفي في الفكر النهضوي عند زكي نجيب محمود

يذهب زكي نجيب محمود إلى أن موضوع الفلسفة هو تحليل الألفاظ والقضايا التي يستعملها العلماء في أبحاثهم العلمية. بمعنى أن تحليل القضايا والألفاظ هي تركيبات من رموز تنطوي أو لا تنطوي على مبدأ معين، فتخرجه من الكمون إلى العلن ليزيد الأمر وضوحاً[٢٥]، بمعنى أن موضوع الفلسفة عند

الوضعية المنطقية وكما ذهب زكي نجيب محمود إلى ذلك، هو تحليل عبارات وقضايا العلم من الناحية المنطقية، بمعنى أننا نطبق منهج التحليل المنطقي على عبارات العلم، قصد التأكد إذا كانت سليمة البنية المنطقية أم لا، كما أن مهمة فيلسوف العلم أو الوضعي المنطقي هي تحليل الألفاظ والقضايا والعبارات التي يستخدمها العالم في التحقّق من فرضياته ومدى مطابقة تلك الفرضيات الأولية التي وضعها العلَماء مع واقع التجارب المحسوس[٢٦]. لهذا، فوظيفة الفلسفة عند زكي نجيب محمود هي تحليل وتوضيح ما يقرر العلماء، فإذا كان العلم يقرر، فإن الفلسفة توضح ما يقرر، انطلاقاً من هذا التصوّر، فإن فلاسفة التحليل وفلاسفة الوضعية المنطقية، كما اقتنع بذلك زكي نجيب محمود؛ معنيون بتحليل العبارة من الناحية الشكلية/ اللغوية لا المضمون، بمعنى، أن اهتمامهم ينصب على بناء العبارات من خلال تتبعهم أسس ومبادئ وقوانين القواعد المنطقية العامة التي تسري على كل للغات، بل إنهم معنيون بـ «منطق العلم»، لأن التحليل المنطقي لعبارة أو قضية معينة، هو في نظر زكي نجيب محمود مستقل عن مضمونها، لكونه يتناول صورة التركيب وما يربطها من علاقات، لهذا، اتبع زكي نجيب محمود الوضعية المنطقية التي تعالج القضايا شكلياً أو صورياً أو وفق التعبير الأرسطي تعنى بالصورة لا بالمادة[٢٧].

نلاحظ أن ما طرحه زكي نجيب محمود في مهمة الفلسفة متأثراً برواد الوضعية المنطقية وخاصة أرشنباخ الذي يرى بأن الفلسفة هي إيضاح للمعاني عن طريق التحليل المنطقي. يقول كارناب: (إن المهمة الوحيدة للفلسفة هي التحليل المنطقي لكل معارف وأقوال العلماء وأقوال الحياة اليومية من أجل إيضاح كل واحد من هذه الأقوال والعلاقات القائمة بينها)[٢٨].

تتخذ الفلسفة العلمية في نظر زكي نجيب محمود من التحليل المنطقي منهجاً لها، والذي بواسطته يعتقد أنصار الوضعية المنطقية أن يتشبهوا بالعلماء وان يرتقوا في أبحاثهم إلى الدرجة العلمية؛ ليصبحوا أشباه علماء، لأنهم

بواسطة التحليل المنطقي يستطيعون الولوج إلى عالم الأفكار العلمية، لهذا، فإن الفلسفة العلمية في نظره، تكتسب علميتها من خلال الالتزام بالدقة التي تشبه دقة العلماء في استخداماتهم. إن اعتماد الفلسفة العلمية منهج التحليل المنطقي، يؤهلها إلى درجة العلمية في الدقة والضبط، طامحين في ذلك أن يتشبهوا بالعلماء، لأنهم واعتقاداً منهم أنه من خلال منهج التحليل المنطقي يستطيعون الاطلاع على الأفكار والمعطيات العلمية الذي يطرحها ويعالجها العلماء في أبحاثهم. إن الفلسفة هي كذلك علمية لالتزامها دقة تشبه دقة العلماء في استخدامهم لرموزهم لأنهم يريدون لفلسفتهم أن تكون شبيهة بالعلم بالمعنى الذي يجعل الفلاسفة يشاركون العلماء في موضوعات بحثهم، لكونهم (يريدون من هذه الفلسفة أن تكون مشابهة للعلم، لكن ليس بالمعنى أن الفيلسوف يبحث في مواضيع العلم لأن هذا ليس مجاله بل مجاله هو التحليل المنطقي لهذه القضايا العلمية)[٢٩].

يرى زكي نجيب محمود أن توظيف التحليل المنطقي لقضايا معينة، سيقود بالضرورة إلى تحديد مهمة الفلسفة تحديداً خاصاً، يجعل منها علماً، لأنها لا تعنى بالمدركات العلمية والقضايا العلمية فحسب، بل لأنها عندئذ ستنتهج منهج العلم والدقة والتحديد والضبط العلمي، لأن الفلسفة العلمية حسب زكي نجيب محمود، ليست فقط ذات صلة وثيقة بالعلم؛ بل إن الفلسفة بالمعنى الذي يسعى إليه زكي نجيب محمود لا تورط نفسها في مجالات العلوم الخاصة، كما لا تخلق لنفسها مجالات غير مجالات العلوم، بل يجعل من مهمتها الرئيسة؛ التحليل المنطقي للقضايا العلمية، وهذا ما يؤهلها لأن نطلق عليها «فلسفة العلم»[٣٠]، بمعنى، تصبح منطقاً للعلم على رأي كارناب أو تحليلاً له، ليصبح هدفها هو التوضيح لا الإضافة الجديدة[٣١]، انطلاقاً من هذا تصبح مهمة الفلسفة العلمية هو توضيح المعاني الغامضة في المجال العلمي، وهذا يؤدي بالفلسفة إلى أن تعالج وتحلل قضايا العلم بعدة أوجه وجوانب.

فلسفة اللغة في فكر زكي نجيب محمود

يحدد محمود زيدان فلسفة اللغة من خلال قوله: (فلسفة اللغة مجموعة مترابطة من الدراسات، يعكف عليها المناطقة والفلاسفة تنشأ عن ما يقلقهم من أسئلة ومشكلات، تتعلق باللغة كما أن علماء اللغويات حين تطورت علومهم ذهبوا إلى الخوض فيها والبحث في مسائل منطقية أو فلسفية، تنشأ من أبحاثهم اللغوية)[٣٢].

يتبين من خلال هذا التحديد، أن وظيفة فلسفة اللغة هي دراسة نقاط التقاطع والقواسم المشتركة بين الأبحاث المنطقية والفلسفية واللغوية (لسانيات، علم الدلالة)، كما حددها الزواوي بغورة بقوله: (فلسفة اللغة هي مبحث فلسفي جديد، يهتم باللغة من منظور فلسفي، يعتمد على مناهج لغوية فلسفية أساسية كالتحليل المنطقي والألسني والتأويلي)[٣٣]، ففي كتابه «نحو فلسفة علمية»، دافع زكي نجيب محمود عن الوضعية المنطقية، وتبنى الطرح القائل إن الفلسفة عبارة عن تحليل لقضايا العلم وعبارته ونتائجه. يقول في هذا الصدد: (دعوانا في هذا الكتاب أن الفلسفة تحسن صنعاً لو عرفت على وجه التحديد والدقة أن مجالها هو التحليل وحده وذلك يحقق لها صفة العلمية)[٣٤]، بهذا، فدور الفلسفة عند زكي نجيب محمود هو تحليل مفاهيم العلم، أما عن اللغة فقد حصرها في كتابه «تجديد الفكر العربي» في هذه الرموز التي نتبادلها كلاماً وكتابةً وفق ضوابط ضبط تركيباتها وتصريفاتها[٣٥]. بناءً على هذا التعريف، يتضح تأثير الوضعية المنطقية على زكي نجيب محمود، مما جعله يرتكز على الجانب اللغوي على شكل رموز وصور لغوية، معتبراً اللغة بمثابة تركيب من الرموز والقواعد التي تتحكم في الكتابة.

من خلال تحديد مفهوم فلسفة اللغة عند زكي نجيب محمود، يتبين أن هذا الأخير، يرى أن التحليل المنطقي ينطلق من اللغة كما فعل فلاسفة الوضعية

المنطقية، مما جعله يحدد طبيعتها، ويرى زكي نجيب محمود أن الفلسفة تحليل، بمعنى، أنها تقوم على توضيح المعاني من خلال اعتمادها على التحليل المنطقي للغة. إن دور الفلسفة هو بحث ودراسة المعاني ووسيلتها في ذلك التحليل، لأن الطرح والتصور الذي تتخذه وتتبناه الوضعية المنطقية عنده، هو التقابل بين اللغة والعالم[٣٦]، ذلك أن الفلسفة حسب الطرح الجديد الذي حددته الوضعية المنطقية مع زكي نجيب محمود، عبارة عن نشاط أو فاعلية مهمتها (توضيح المفاهيم التي تقع عند الناس بين الجهل التام والعلم التام، بمعنى أنها مفاهيم يتداولها الناس وهم على بعض العلم بها، فلا هم يجهلونها كل الجهل ولا هم يعلمونها كل العلم فتتناولها الفلسفة بالتحليل والتوضيح ... وهنا يكون عمل الفلسفة أن تدنو من تلك المفاهيم لتراها في تفصيلاتها ودقائقها)[٣٧].

نستشف من خلال هذا النصّ، أن مهمة الفلسفة الأساسية هي تحليل المفاهيم التي لا يمكن التعامل معها إلا من خلال أدوات وطرق لغوية وبالدراسة التحليلية المعمقة، لتصل الفلسفة إلى معانيها ومفاهيمها في بنيتها الداخلية. لهذا، فإن كانت المشكلات الفلسفية، تنشأ من جراء الاستعمال السيء للغة، فإن المخرَج من هذا المأزق هو الكشف عنها بواسطة التحليل المنطقي للغة، لأن الكلام يصبح غير مفهوم ولا يحمل معنى في الواقع، بل يبقى مجرد أخلاط من رموز ولا يدل على شيء مطلقاً وإذا اقتضى منّا شيئاً فهو حذفها من دائرة الكلام المقبول والسليم[٣٨].

يتم تداول هذه الفكرة كثيراً من قبل أنصار الوضعية المنطقية، وعلى رأسهم زكي نجيب محمود الذي أخذها عن فيجنشتاين الذي حصر مهمة الفلسفة عند التحليليين في توضيح الأفكار القائم على التحليل المنطقي للغة، مما أكد إمكانية تجاوز اعتقاد تميز الفلسفة بموضوعها الخاص الذي تبحث فيه، لأن الفلسفة طريقة بغير موضوع، بل تأخذ العبارة من هذا العلم أو ذاك،

وقد تأخذها من أفواه الناس في حياتهم اليومية[٣٩]، بناءً على هذا، فإنّ موضوع الفلسفة هو الألفاظ والكلمات لا الأشياء، أما موضوع الأبحاث الفلسفية عند زكي نجيب محمود، فهو تحليل يميزه الطابع اللغوي والمنطقي لعبارات وقضايا العلم، إنها نفس مهمة الفلسفة عند التحليليين والوضعيين المناطقة، وبناءً على كل هذه الأفكار، نجد أن مهمة الفلسفة في نظر زكي نجيب محمود، هي التحليل المنطقي للغة.

الانتقال من ثقافة اللفظ إلى ثقافة الأداء وقصور اللغة التقليدية

إن دعوة زكي نجيب محمود الصريحة والواضحة إلى النظر العقلي والتفكير العلمي، ورفض كل ما لا يستطيع العقل تبريره، جعله يدعو إلى تقصي وفحص مضمون كل الكتابات الأدبية (النقد الأدبي والفلسفي) بكل أنواعها، وكذا تحليلها ومعالجتها، معالجة علمية، وإخضاعها لمبادئ ومعايير علمية ولغوية مرتبطة بالنزعة المنطقية، فقد انطلق في ذلك من نقده للغة العربية في عهودها الأولى، لكونها ركّزت على الخيال والألفاظ المجازية التي لا تدل في الواقع على شيء يمكن تحديده أو تعيينه، لهذا، رأى زكي نجيب محمود أن اللغة العربية لغة مثالية، وليست أداة تصل المجتمع العربي بمشكلات العالم الواقعي الحسي، كما تجلى في القصائد الشعرية القديمة (الشعر الجاهلي في التغني بالمثاليات والخرافات الزائفة)، لأن الشاعر عندما يصف ظاهرة ما، يعبر عنها بلغة مثالية. مما لا يمكن معه تبرير هذه الظاهرة بمنطق العقل والواقع والعلم، لكن يمكن للشاعر أن يبررها بعواطفه وميولا ته، لأنها نابعة من أعماقه، هذا الشعر في نظر زكي نجيب محمود يمكن أن يكون كالميتافيزيقا التأملية التي تصف أشياء لا تمت للواقع بصلة[٤٠].

تجديد اللغة

انطلاقاً من انتقاده للغة العربية في تعبيرها المثالي، اقترح زكي نجيب محمود تجديد اللغة لكي تصبح واقعية وتجدي نفعاً، فإذا أراد أفراد المجتمع

العربي إن يحسنوا التواصل فيما بينهم، استوجب ذلك خلق لغة جديدة، تكون مؤهلة لتقوم بهذا الدور. لذلك، كان لزاماً على أفراد الأمّة العربية إذا أرادوا بلوغ درجة من النهضة والتقدّم، أن يحسنوا هذه المدلولات اللغوية لتحليل الإحساسات والأفكار التي تنطوي عليها أو تتضمنها. يقول زكي نجيب محمود في هذا الإطار: (لست أتصوّر لأمّة من الأمم ثورة فكرية كاسحة الرواسب، إلا أن تكون بدايتها عميقة عريضة تراجع بها اللغة وطرائق استخدامها، لأن اللغة هي الفكر، ومحال أن يتغير هذا بغير تلك... فعندئذ ينعكس هذا كله على طريقة استخدام اللغة[٤١].

من خلال هذا النص، يؤكد زكي نجيب محمود أن أي أمة إذا أرادت تحقيق النهضة الفكرية، استوجب عليها أن تحدث ثورة في مجال اللغة، بمعنى، تجديد اللغة كي تصلحها وتحسن استخدامها، لأن اللغة في نظر زكي نجيب محمود هي وجه الفكر، فإذا ما تطورت اللغة، انعكس ذلك آليّاً على الفكر، ومن ثم حدث التطور والتقدّم[٤٢].

لقد انطلق زكي نجيب محمود من فكرة مفادها أنه إذا أرادت الأمة العربية أن تحدث التقدّم والتطوّر والنهضة العربية، وجب عليها أن تنهض باللغة أولاً، لأن لهذه الأخيرة دور حاسم علاوة على كونها أداة تواصل بالمقام الأول مستهدفاً بذلك أداتية اللغة، وأن المشكل ينشأ انطلاقاً من سوء استخدامنا للغة كما ذهب إلى ذلك فيجنشتاين[٤٣]. من هنا، استوجب على كل أفراد الأمّة العربية فَهم واستيعاب دلالات ومفاهيم ومقاصد اللغة من طرف المتكلم والسامع على حد سواء، لأن ذلك يؤدي إلى تحليل ومعالجة المعرفة الإنسانية. لهذا، بدأ زكي نجيب محمود بنقد اللغة العربية في عهودها الأولى القديمة، حين كانت تعتمد على الخيال والمجاز. من هذا المنطلق، أراد زكي نجيب محمود للغة العربية أن تنطلق من الواقع لتعالج نفس الواقع، والتعبير عن المعاني وإيصالها، لكن لن يتحقق ذلك حسب تصوره، إلا إذا تجردت من التصنع اللفظي والميتافيزيقا التي تخلق اللبس في الكلمات والغموض في المعاني.

لقد حاول زكي نجيب محمود تقويم المنظومة اللغوية لخدمة مشروعه النهضوي انطلاقاً من تجديدها ومعالجتها، لتفلح في فهم الواقع بل واحتوائه، لأن اللغة هي الفكر وهي من تميز الشعوب عن بعضها البعض وتعتبر ظاهرة إنسانية وإطاراً من بين الأطر الاجتماعية لأي أمة أو مجتمع إنساني، أداة تعبر عن الفكر، لذلك، أراد لها زكي نجيب محمود أن تتميز بالدقة والضبط وارتباطها بالواقع الحسّي، مما يبرز تأثره بالوضعية المنطقية التي تربط اللغة بالواقع، فحسب زكي نجيب محمود، يجب أن تنتقل اللغة من الزخرف والتنميق اللفظي والمجاز والتعبير عن تلك المثاليات، إلى الاستخدام الصحيح والأمثل والأنسب للألفاظ والعبارات بوضوح ودقة، يقول في هذا الصدد: (لا يغيب عن نهضتنا الحضارية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أو قل إلى يومنا هذا، صحبتها بالضرورة نهضة في مجال اللغة. فذلك أمر محتوم في مجال التطور الذي لا مفر منه، لكن ألاحظ أن النهضة اللغوية لها طريقان، فأما أحدهما فطريق سلكه فريق من الناهضين أرادوا للغة العربية أن تنافس اللغة العامية في وسيلة أدائها، وأما الطريق الثاني فسلكه فريق ظن أن النهوض باللغة العربية إنما يكون بإحياء القديم)[٤٤]. من خلال هذا النص، نجد أن النهضة العربية تستوجب النهضة اللغوية حسب زكي نجيب محمود، بل إن النهضة العربية، تنطلق من ثورة في اللغة مؤداها تجديد اللغة لإصلاح القاعدة اللغوية، وهذا في نظره، يجب أن يحدث من باب الضرورة لإحداث التقدم والتطور. لقد أكد زكي نجيب محمود على أن تطور اللغة العربية مرهون بشرطين اثنين:

١. أن تحافظ على عبقريتها الأدبية وفصاحتها من جهة.

٢. أن تكون أداتية في المقام الأول، بمعنى لديها وظيفة ازدواجية من جهة أداة تواصل، ومن جهة أخرى أداة توصيل، لتنهض بالفكر وبالأمّة العربية وتحقيق النهضة العربية المنشودة.

إن الثورة في تجديد اللغة، سيدخل الشعوب العربية في عصر التفكير العلمي مُنطلِقاً في ذلك كما أشرنا سابقاً بنقد اللغة العربية في عصورها الأولى والتي

تميزت بجمال عباراتها بدل الاهتمام بالدور الذي يجب أن تؤديه هذه الألفاظ، لكي تحقق وَفْقَه منهجهاً بضبط القول ضبطاً يصونه من الانزلاق في سياق اللفظ الذي يلهينا عن المعنى[٤٥].

قضايا الميتافيزيقا في فكر زكي نجيب محمود

يعد زكي نجيب محمود من أبرز المدافعين عن الوضعية المنطقية، حيث تمسك بمبادئها من خلال تأييده لموقفها العلمي والمنهج التجريبي، لهذا، رفض قضايا الميتافيزيقا، وذلك اتساقاً مع مذهبه الوضعي الذي يقصي ويستبعد البُعد الميتافيزيقي، تجلى ذلك في كتابه «موقف من الميتافيزيقا» (الصادر سنة ١٩٩٣) الذي عرض من خلاله موقفه الرافض للميتافيزيقا، حيث يقول في هذا الصدد: (كالهرة التي أكلت بنيها جعلت الميتافيزيقا أول صيدي أول ما أنظر إليه بمنظار الوضعية المنطقية لأجدها كلاماً فارغاً لا يرتفع أن يكون كذباً، لأن ما يوصف بالكذب، كلام يتصوره العقل لكن تدحضه التجربة. أما الميتافيزيقا، فهي رموز سوداء تملأ الصفحات بغير مدلول)[٤٦].

يتضح جلياً من هذا القول، أن زكي نجيب محمود يعتبر قضايا الميتافيزيقا قضايا خالية من المعنى. بمعنى أنها كلام فارغ، لا يرمي إلى شيء معين؛ ولا ترتقي حتى لمنزلة أو درجة الكذب. لأن ما لا يمكن أن نصفه بالكذب كلام قريب من المعقولية لكن تفنده التجربة، أما الميتافيزيقا (في نظره) فهي عبارة عن رموز جوفاء فارغة لا تحتوي على أي مدلول، بهذا، حدّد زكي نجيب محمود موقفه من الميتافيزيقا، انطلاقاً من مناصرته الصريحة للوضعية المنطقية وتبني طرحها، لهذا، فالميتافيزيقا في نظره، مجرد لغو لا غير، يؤكد ذلك قائلاً: (أنا كافر بهذا اللغو الذي لا يجدي على أصحابه ولا على الناس شيئاً)[٤٧]. بهذا، فالميتافيزيقا مرفوضة في نظر زكي نجيب محمود، لأنها تبحث في الماورائيات، بمعنى مجال بحثها غير موجود على أرض الواقع الحسي ولا تدركه الحواس التي تعتبر مصدراً

لكل معرفة عند التجريبيين بصفة عامة، والوضعية المنطقية بصفة خاصة، فقد قسَّم زكي نجيب محمود القضايا إلى نوعين، يضم النوع الأول القضايا التحليلية ومجالها الرياضيات والمنطق، أما النوع الثاني، فيشمل القضايا التركيبية ومجالها العلوم الطبيعية والتجريبية، لهذا، فأية عبارة لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو بالكذب، لا يمكن أن تدخل ضمن هذين النوعين، كما لا يمكن بأي حال من الأحوال للميتافيزيقا أن تدخل ضمن دائرة هذين النوعين، لأنها لا ترتق حتى لتوصف بالصدق أو الكذب، فلا يمكنها أن تكون تحليلية، لكونها لا تعالج المواضيع ذات الطابع الرياضي، فلو كانت تعالج المواضيع الرياضية، لحكمنا عليها بنفس الأحكام التي نسقطها على المواضيع الرياضية، كما لا يمكن إخضاع قضاياها للتجربة لتصبغها بالطابع التركيبي، انطلاقا من هذا، استوجب حذفها من قائمة الكلام المفهوم والمقبول [٤٨]، لأنها تلك العبارات (الميتافيزيقا) تعالج قضايا ماورائية، بمعنى أشياء تتجاوز عالم الحسّ، لهذا، فهي في نظره لا تحوي أي معنى، وذلك لسببين: الأول لا يمكن إدراكها بالحواس كما أسلفنا الذكر؛ والثاني يرتبط بكون منطق اللغة (عند الوضعية المنطقية وزكي نجيب محمود) لا يقبل إلا المفردات التي لها تجسيد في الواقع الحسّي وعلى شكل قوالب ومسميات موجودة فعلاً في الواقع، أما الميتافيزيقا، فمجرد أشباه قضايا، لأن القضايا التي تعالجها، خالية من المعنى، لكونها ترتبط بقضايا غيبية لا معنى لها، حيث تأثر زكي نجيب محمود في هذا الجانب بفيجنشتاين الذي ربط ذلك بالاستعمال السلبي للغة (كما سلف الذكر) الذي يرى أن منطق اللغة هو منطق يُساء فهمه، نتيجة الخلط والغموض الذي ينتج عن استخدام اللغة، وهذا في نظر زكي نجيب محمود، ما أدى إلى نشأة الأسئلة الميتافيزيقية والمشكلات الفلسفية التي يرى أن لا وجود لها بالأساس.

لكن الاعتماد على منهج التحليل المنطقي للغة، يكشف عن هذه القضايا وما تتفرع عنها من مشكلات، قصد إبعادها وإقصائها من دائرة الكلام

المنطقي السليم والمفهوم. بل ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث أكد على أن القضايا الميتافيزيقية، ليست سوى مجرد أشباه قضايا، لذا وجب حذفها من دائرة الأبحاث الفلسفية. لأنها تتحدث عن شيء موهوم لا يمت للواقع بصلة[٤٩]، بناء على هذا، دعا زكي نجيب محمود إلى إقصاء الميتافيزيقا وحذفها من دائرة المعارف الإنسانية، لأنها لا تملك أساليب وأدوات الملاحظة التي تمكن من الحكم على الأشياء.

موقف زكي نجيب محمود من الميتافيزيقا

أحدث كتاب «خرافة الميتافيزيقا» الصادر عام ١٩٥٣، موجات هجوم وانتقادات لاذعة، كان أشدّها تطرفاً ضد زكي نجيب محمود، اتهامه أنه خارج عن الدين الإسلامي. وأنه تنكّر وتجاهل القيم الأخلاقية. مما دفع زكي نجيب محمود أن يصدر بعد ما يقارب تسع أو عشر سنوات طبعة ثانية من نفس الكتاب، فعدّل عنوان الكتاب من «خرافة الميتافيزيقا»، إلى «موقف من الميتافيزيقا»، ويتضمن الكتاب بعنوانه الجديد مقدمة جديدة، شرح فيها الأفكار التي غمضت حقائقها على القراء، وذلك لاكتفاء القراء بقراءة مستعجلة وخاطفة، أو الانطلاق من أفكار مسبقة، أدت إلى سوء فهم الكتاب، مما سبب الهجوم على الكتاب، لأن القراء لم يميزوا بين فلسفة ودين في تصوّر زكي نجيب محمود، مما جعل هذا الأخير يدافع عن دينه ويوضح الأمور في كتابه، فإذا كان زكي نجيب محمود قد رفض في البداية الميتافيزيقا بشكل كلي، فإنه عدل من موقفه من مرحلة رفض الميتافيزيقا بشكل كامل، إلى التمييز بين ميتافيزيقا مقبولة وأخرى مرفوضة، فحدَّد الميتافيزيقا المقبولة في الميتافيزيقا النقدية، أما الميتافيزيقا المرفوضة فتجلت عنده في الميتافيزيقا التأملية. وحدد موقفه من خلال قوله: (إنني فرقت بين نوعين لأرفض نوعاً منها وأبقي على الآخر، فإذا كنت تصرف حديثك عما وراء الأشياء من خافيات عن الحواس، فذلك ما قد يورطك فيما ليس له معنى، أما إن صرفت الحديث عما وراء تركيبة لفظية معينة لتكشف عما استتر وراءها من فروض مضمّرة، فذلك مقبول ومشروع بل ضروري للفكر إن أراد أن يتعمق

فهمه للعلم وقضاياه)[٥٠]. انطلاقاً من هذا النص، يحدد زكي نجيب محمود الميتافيزيقا المرفوضة في مجموع العبارات التي تتحدَّث عن كائنات لا تقع تحت عالم الحسّ لا فعلاً ولا إمكاناً.

كما بيَّن موقفه من الميتافيزيقا في مؤلَّفه «موقف من الميتافيزيقا» من خلال قوله: (إننا سنرى في غضون هذا الكتاب وثناياه، أننا هاجمنا الميتافيزيقا بمعناها التقليدي، بمعنى البحث في أشياء لا تقع في عالم الحسّ كالمطلق والجوهر والشيء في ذاته وغيرها)[٥١]. أما الميتافيزيقا النقدية التي تقضي بتحليل القضايا العلمية فهي مشروعة ومقبولة، لأنها نافعة ومفيدة في الدراسات والبحث في قضايا العلوم، لهذا، دعا زكي نجيب محمود بشكل واضح وصريح لرفض وإلغاء كل ما لا يقع تحت عالم الحسّ وحذفها من عالم المعرفة الصحيحة، يرفض زكي نجيب محمود الميتافيزيقا التأملية لعدة أسباب:

١. كون الجملة الميتافيزيقية مجرد إقامة بناء لتزعم أنها تصور الكون كما هو موجود بالفعل. وهنا نجد موضع الخطأ فيها كأن نعلل الأحداث بغير أسبابها، مثل أن نعلل موت المسافر بنعيق الغراب الذي فوق سطح الدار ليلة السفر.

٢. كون الميتافيزيقا تجعل من التحقُّق من الصواب أو عدمه أمراً مستحيل.

٣. كون عبارات الميتافيزيقا التأملية تشتمل دائماً على حدود لا يكون لها معنى في مجالاتها.

فإذا قسّمنا الجملة إلى ثلاثة أقسام: صادقة، أو كاذبة، أو أنها تحتمل الصدق أو الكذب، وجدنا الجملة الميتافيزيقية لا تندرج تحت أي قسم مما ذكرنا. ذلك أن جملة «الخير غاية الوجود» على سبيل المثال، لا هي تحليلية ولا هي تركيبية ولا هي صالحة للحكم عليها بالصدق أو الكذب، لهذا، انتقد زكي نجيب محمود الفلسفة التأملية استناداً إلى كونها لا تعتمد في تأملها على الملاحظة والتجربة.

على عكس العلم الذي ينطلق من أدوات الملاحظة والتجربة الحسية، إن المشتغل بالفلسفة التأملية مثل الشعراء والفنانين يقولون ما لا يفعلون (وعلى العكس العلماء)، يقولون كلاماً مرجع الصدق فيه يكون في نفس الشاعر أو الفنان، وهذا ما لا يمكن أن يحدث في الطبيعة الخارجية، وفي هذه النقطة الجوهرية يتضح الفرق بين كلام وأقوال الفلاسفة والعلماء وأقوال الشعراء التي لا يمكن تجسيدها على أرض الواقع، فحين يتجه الفلاسفة التأمليون إلى داخل وعمق أنفسهم، يتجه العلماء إلى خارج أنفسهم إلى ظواهر الطبيعة، ليدرسوا فيها الظواهر والأحداث على شكل قوانين، والعلماء عندما يدرسون ظواهر الطبيعية، فإنهم يستدلون بمنطق المُلاحِظ والتجربة والنظر العلمي العقلي لا الوجداني الذي يمكن أن تبرره العاطفة، لهذا، يرى أن الشعراء يصنعون لأنفسهم منطقاً ذاتياً داخلياً.

قضايا الميتافيزيقا ومبدأ التحقق

ذهب فلاسفة الوضعية المنطقية إلى إعطاء أهمية بالغة لمبدأ التحقُّق كذلك، فقد سلك زكي نجيب محمود المسلك نفسه، حيث أولى أهمية بالغة لمبدأ التحقُّق باعتباره معياراً للتمييز بين القضايا، ليكون في نظر زكي نجيب محمود مرجعاً ومعياراً، تكمن مهمته الجوهرية في توضيح معاني الألفاظ.

استناداً إلى مبدأ التحقق، فإن القضية التي لا يمكن التحقُّق من صدقها أو كذبها وحتى ولو كانت كاذبة، هي قضية ذات معنى، أما القضية التي لا يمكن التحقق من صدقها أو كذبها، فهي قضية خالية من المعنى، وكما أشرنا سلفاً أن زكي نجيب محمود، ميَّز بين القضايا التحليلية والقضايا التركيبية، لكن معيار التحقُّق لكل منهما يختلف تماماً عن الأخرى، ذلك أن القضايا التركيبية يمكن التحقُّق من صدقها أو كذبها عن طريق الحواس وما يمليه الواقع التجريبي، فمادة الماء مثلاً، قضية تتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أوكسجين، لكن لا يمكن أن نحكم على صدقها أو كذبها، إلا عن طريق الواقع التجريبي، أما القضايا التحليلية، فيمكن التحقق من صدقها أو كذبها انطلاقاً من التأكد من عدم تناقض المقدمات مع النتائج.

بناءً على ما تقدَّم، نجد أن البحث الفلسفي عند زكي نجيب محمود والوضعية المنطقية، يركز على قضايا الخبرة الحسية، مما يخضعه لمحك التجربة أو المنهج التجريبي وموضوعها العلوم الطبيعية، أما الموضوعات المنطقية كالاستدلال والتعريف وغيرها فهي الأنسب لمعالجة الأبحاث الفلسفية التي موضوعها القضايا العلمية، حسب وجهة نظر زكي نجيب محمود، وذلك انطلاقاً من نزعته الوضعية ويسوغ مبرره في ذلك وهو تجنب الوقوع في الميتافيزيقا التأملية الذي خصص لها فصلاً كاملاً في كتابة «موقف من الميتافيزيقا» تحت عنوان «الميتافيزيقا المرفوضة»، يقول في هذا الصدد: (إننا نختار أن تحصر الفلسفة نفسها في التحليل المنطقي وحده، وأن تطرح كل محاولة نحو وصف شيء في العالم وصفاً إيجابياً تعتمد فيه على التأمل.. وليس اختيارنا للمجموعة المنطقية وتركنا للمجموعة الشيئية، تعسفاً وجزافاً. بل هو قائم على أننا ننكر الميتافيزيقا إنكاراً تاماً من جهة.. ومن جهة، أخرى أن نترك الأشياء كالإنسان والمجتمع والتاريخ واللغة والطبيعة إلى العلوم)[٥٢].

القضايا الجمالية والأخلاقية في فكر زكي نجيب محمود

أشار زكي نجيب محمود إلى أن قضايا الأخلاق والجمال ليست بذات معنى، لأنها لا تشير إلى فعل يمكن تجسيده للتحقُّق من صدقها أو كذبها، كما لا تكون العبارة ذات معنى، إلا إذا أمكن تحويلها إلى عمل، كما أن أي لفظ يشير إلى قيمة أخلاقية أو جمالية، فإن دلالته ليست جزءاً من الواقع، لكنها تظهر فقط عندما ينفعل الإنسان لما يراه في الأحداث الخارجية، لهذا، ولتجاوز الميتافيزيقيا، استبعد زكي نجيب محمود ذلك التفكير التأملي من دائرة المعارف الإنسانية، لذلك، فإن الجملة التي تدل على معناها ولا ينعكس ذلك على فعلها، تكون عبارة فارغة من المعنى، أما الفكرة الواضحة، فهي التي يمكن ترجمتها إلى سلوك وعمل يسجله الواقع ويلاحظه، لهذا، فإن أية عبارة لا يمكن ترجمتها إلى سلوك، أو عمل فعلي، فهي ليست عبارة أساساً.

أما بالنسبة للقيم الأخلاقية والجمالية، فقد بين زكي نجيب محمود أمثلة من هذه العبارات الفارغة من المعنى، ذلك أن كل عبارة يقولها قائل ليحكم على

قيمة أخلاقية أو جمالية بأنها خير أو شيء جميل، ليست سوى تعبير منه على ميوله ورغباته، لكونها لا تدل في الواقع على شيء محدد، لأن العالم الخارجي حسب زكي نجيب محمود، لا خير فيه ولا جمال، وكذا لا شر فيه ولا قبح، لأن كل كلمة من هذا القبيل، هي فقط عبارات دالة على شعور المتكلم نحو العالم الخارجي بالدرجة الأولى.

الانتقال من ثقافة اللفظ إلى ثقافة الفعل

يذهب زكي نجيب محمود في هذا الإطار إلى أن ما يميز العصر الحديث، هو بروز ثقافة جديدة، يحتل فيها الإنسان دور الفاعل الأول والأخير في العالم الذي يمثل بالنسبة إليه حيزاً للتجربة والعمل، وليس مجالاً للتأمل والنظر المجردين اللذين لا صلة لهما بالواقع. لأن التجربة والعمل في الواقع الحسّي، يمثلان المرجع والمعيار الوحيد لكل الحقائق. لهذا، فإن الثقافة هي ثقافة الفعل لا ثقافة اللفظ، بمعنى أن على أفراد الأمّة العربية، الانتقال من ثقافة اللفظ التي لا تجدي نفعاً في الواقع؛ إلى ثقافة الفعل التي تمثل التجربة والتطبيق العملي فيها المرجع الوحيد الأقرب إلى الحقيقة.

من خلال هذا المفهوم الخاص بالفكر والعصر، أدرك زكي نجيب محمود أنه لا مخرج للأمّة العربية من تخلّفها الحضاري؛ إلا من خلال مشروع حضاري جديد، يأخذ بحقائق العصر من جهة، ويرتبط في الوقت نفسه بحركة ثقافية واقتصادية وعلمية وسياسية واجتماعية متجدّدة من جهة أخرى، لأن المشروع النهضوي والحضاري لا يتحقق في نظر زكي نجيب محمود إلا بإتباع منطق وفكر عربيين وثقافة عربية جديدة[٥٢]، تراهن على التغيير الشامل في كل مجالات الحياة العربية المتخلفة، كما ترسم أمام الإنسان العربي طريقاً جديداً كفيلاً بتغيير فكره ووعيه، وصولاً إلى تجديد نظرته لنفسه ولعصره. لهذا، كانت من أبرز العوامل التي رآها زكي نجيب محمود مساعدة على تحقيق هذا المشروع النهضوي، عوامل تجديد اللغة والمنهج على السواء، باعتبارهما يصبان في قالب

واحد في حال تجديدهما، نظراً لاستهدافهما مجال العلم، من خلال الاعتماد على المنهج التجريبي الذي يقود إلى التقدم العلمي والتكنولوجي الداعي إلى النهضة والتقدّم، ثم تجديد اللغة التي ستنتقل بدورها من لغة الشعر، والتصنّع اللفظي إلى لغة العلم والقصد في المعنى، وعلى هذه الخطى، يضمن المجتمع العربي الاتساق والتماشي وفق ما تقتضيه الحضارة المعاصرة.

تركيب واستنتاج

على الرغم من كون هذه الدراسة قد أثارت العديد من القضايا المرتبطة بالمشروع النهضوي العربي في فكر الفيلسوف زكي نجيب محمود، فإنها لا تقدم إجابة نهائية وفاصلة حول إشكالية المشروع النهضوي العربي الحديث، لأن العمل النهضوي هو صيرورة تاريخية مستمرة ومتناقلة بين الأجيال، وكل المشكلات والقضايا التي تواجه الإنسان العربي، نظراً لتغير الظروف المستمر، غير أن الهدف الذي سعت إليه هذه الدراسة، يتمثل أساساً في انجاز دارسة وصفية تحليلية لمشروع النهضة العربية عند زكي نجيب محمود على غرار الوضع الراهن للفكر العربي المعاصر وما يمر به من أزمات، ومقارنة مكانة الأمّة الإسلامية بما كانت عليه وما آل إليه حالها، لكن على الرغم من ذلك، يمكن تحديد ما يلي:

١. يعتبر مشروع زكي نجيب محمود النهضوي، مشروعاً فكرياً تنويرياً، تطغى عليه النظرة العلمية في واقع لا علمية المجتمع العربي، مما يعكس حيرة المفكر ونظرة الفيلسوف العربي تجاه قضاياه العربية، وقد ولد التفكير في قضايا الأمة العربية المختلفة، حقلاً معرفياً فكرياً ثرياً بالأفكار القيمة في الفكر العربي المعاصر، وقُدِّمت مشاريع ورؤى ونظريات، قد تكون أكثر اتساقاً وانسجاماً مع الواقع الثقافي الاجتماعي الفكري العربي.

٢. طرح زكي نجيب محمود مشروع النهضة العربية مستهدفاً إخراج الأمّة العربية من بؤرة التخلف والركود والانحطاط الحضاري الذي يتغلغل في الواقع العربي فكراً وحضارة، من أجل بلوغ عالم عربي ناهض ومتقدم بكل المجالات وعلى جميع الأصعدة، لهذا، اعتبر زكي نجيب محمود بجدارة من أبرز ممثلي التيار النهضوي التجديدي في الفكر العربي المعاصر،

حيث حاول طرح حل غربي لحل مشكلة عربية، بغية تحقيق نهضة فعالة، لكن مشروع زكي نجيب محمود النهضوي اصطدم بالعديد من المعوقات، وارتبطت هذه الأخيرة بالبُعد التاريخي والشخصي للأمّة العربية، غير أن الأساسي في هذا المشروع، أنه حاول كشف قضايا التخلف والجهل التي يعانيها المجتمع المصري خاصة، والأمّة العربية بشكل عام.

يعد زكي نجيب محمود أنموذجاً عربياً لما كان أن يعانيه أي مفكر عربي أدرك حجم الهوة ودرجة الفرق والتفاوت بين عالمه المتخلف والعالم الأوربي المتقدم الذي عايشه مدة من الزمن، فلم تكن رحلاته إلى بريطانيا وأمريكا للسياحة، بقدر ما كانت محطة فكرية تنويرية، انبثقت عنها أفكار حاول فيها التنظير لمشروعه النهضوي، مما يشي أن الأمّة العربية تزخر برصيد من المقومات والعوامل الحضارية والثقافية التي يمكنها من الانخراط مجدداً في المسار الحضاري الإنساني والعود إلى سيادتها الأولى كما كانت في سابق عهدها، وتجاوز مرحلة الضعف والتعثر الحضاري والانحطاط، مما سيجعلها هذا الرصيد الحضاري ذات تجربة وخبرة سابقة، تؤهلها لدور القابلية للتفاعل وتقبل متطلبات العصر والتخلص من قيود التبعية إلى الفاعلية والإبداع كما كانت في أوج تطورها وازدهارها.

فعلى الرغم من أن مقارنة الوضع المتدهور الذي يعيشه الإنسان العربي بالغربي المتقدم، هو ما أجمع عليه أغلب المفكرين العرب، فإنهم يختلفون في طريقة طرح المشاريع النهضوية بغية تخليص الأمة العربية من دائرة التخلف والتبعية، فمنهم من يدعو إلى إتباع النموذج الغربي بايجابياته وسلبياته وذلك في سبيل النهضة العربية، في حين يدعو البعض الآخر إلى ضرورة العودة إلى القديم لاستيحاء الحلول منه، أما زكي نجيب محمود، فيستند إلى رؤيا توافقية، تأخذ بمقتضيات العصر دون تجاهل تراث الأمة المعبِّر عن هويتها وشخصيتها العربية، مما جعل المشروع النهضوي الذي تبناه زكي نجيب محمود، مشروع يجمع بين القديم (التراث القديم) والجديد (الغربي المعاصر)، إنه مشروع يدعو إلى المشاركة والتفاعل مع الحضارة الإنسانية مع الحفاظ على الهوية العربية التي تتضمن اللغة والتاريخ، والدين والتراث.

الهوامـــــش

(١) زكريا (إبراهيم) دراسات في الفلسفة المعاصرة، ط١، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٨، ص١٣٢.

(٢) العالم (محمود أمين) الوعي والوعي الزائف، ط٢، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٩، ص: ٩٣.

(٣) زكريا (إبراهيم) دراسات في الفلسفة (مرجع سابق)، ص: ١٦٤.

(٤) قنصوه (صلاح) فلسفة العلم، ط٢، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٣، ص: ٤٢.

(٥) قاسم (محمد) في الفكر الفلسفي المعاصر، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٨، ص:٢٧٤

(٦) خليل (ياسين) مقدمة في الفلسفة المعاصرة، ط١، دار الكتب، بيروت، ١٩٧٠، ص: ٨٨.

(٧) المحافظة (علي) الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، ط١، دار الأهلية، بيروت، ١٩٧٩، ص: ١٢٣.

(٨) خليل (ياسين) مقدمة في الفلسفة المعاصرة(مرجع سابق)، ص: ٩٤.

(٩) القرني (عزت) العدالة والحرية في فجر النهضة العربية، ط١، دار عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٠، ص:٥٢.

(١٠) زكريا (إبراهيم) مشكلة الفلسفة، ط١، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٩، ص: ١٩.

(١١) زكريا (إبراهيم) مشكلة الفلسفة (المرجع نفسه)، ص: ٣٢.

(١٢) الجابري (محمد عابد) مدخل إلى فلسفة العلوم، ط٤، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٨، ص: ١٢١.

(١٣) الجابري (محمد عابد) مدخل إلى فلسفة العلوم (مرجع سابق)، ص: ١٤٣.

(١٤) كامل (فؤاد) أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ص: ١٠٢.

(١٥) كامل(فؤاد) أعلام الفكر الفلسفي المعاصر (المرجع نفسه)، ص: ١٥٣

(١٦) زكي (نجيب محمود) تجديد الفكر العربي،١، دار الشروق، بيروت، ١٩٧١، ص: ١٤٢.

(١٧) إمام (عبد الفتاح إمام) رحلة في فكر زكي نجيب محمود،ط١، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠١، ص: ٦٥.

(١٨) بلقزيز (عبد الإله) الثقافة العربية في القرن العشرين، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٤، ص:٩٤.

(١٩) زكي (نجيب محمود) تجديد الفكر العربي (مرجع سابق)،ص:١١٠.

(٢٠) المرجع نفسه، ص: ١٣٤.

(٢١) نفسه، ص: ١٤٤.

(٢٢) زكي (نجيب محمود) المنطق الوضعي، ط٢، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٥١، ص:١٤٣.

(٢٣) بدران (إبراهيم) الفلسفة في الوطن العربي المعاصر، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص: ٤٥.

(٢٤) نصار (ناصيف) في معركة الأيدولوجيا، ط١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠، ص: ٩٨.

(٢٥) زكي نجيب (محمود) حياة الفكر في العالم الجديد، ط١، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢، ص: ١٤١.

(٢٦) زكي نجيب (محمود) حياة الفكر في العالم الجديد (المرجع نفسه)،ص: ١٤٧.

(٢٧) المرجع نفسه، ص: ١٥٢.

(٢٨) كارناب (رودولف) الأسس الفلسفية للفيزياء، ترجمة: السيد نفادي، ط١، دار الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص: ٦.

(٢٩) نصار (ناصيف) طريق الاستقلال الفلسفي، ط٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٩، ص: ١٢٦.

(٣٠) زكي نجيب (محمود) ثقافتنا في مواجهة العصر،ط٣، دار الشروق ،بيروت،١٩٨٣، ص: ١١٢.

(٣١) زكي نجيب (محمود) حياة الفكر في العالم الجديد(مرجع سابق)،ص: ٩٤.

(٣٢) فهمي زيدان (محمود) في فلسفة اللغة، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص: ٨٨.

(٣٣) الزواوي (بغورة) الفلسفة واللغة، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص: ٦٣.

(٣٤) زكي نجيب (محمود) نحو فلسفة علمية، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٥، ص: ٩٥.

(٣٥) زكي (نجيب محمود) تجديد الفكر العربي (مرجع سابق)، ص: ١٢٢.

(٣٦) المرجع نفسه، ص: ١٣١.

(٣٧) نفسه، ص: ١٣٤.

(٣٨) نفسه، ص: ١٤٣.

(٣٩) نفسه، ص: ١٥٢.

(٤٠) زكي نجيب (محمود) موقف من الميتافيزيقا، ط٤، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٣، ص:٨٨.

(٤١)زكي(نجيب محمود)تجديد الفكر العربي(مرجع سابق)، ص: ١٢٧.

(٤٢) العالم (محمود أمين) الوعي والوعي الزائف، ط٢، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٩، ص:٩٣.

(٤٣) فتغانشتاين (لودفيك) تحقيقات فلسفية، ترجمة:عبد الرزاق بنور، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧، ص: ١٤٢.

(٤٤) زكي نجيب (محمود) تجديد الفكر العربي (مرجع سابق)، ص: ١٢٢.

(٤٥) سعيد (مراد) زكي نجيب محمود أراء وأفكار، ط١، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ١٩٩٧، ص: ١٤٣.

(٤٦) زكي نجيب (محمود) موقف من الميتافيزيقا (المرجع نفسه)، ص: ١٢٩.

(٤٧) المرجع نفسه، ص: ١٣٢.

(٤٨) المرجع نفسه، ص: ١٤٢.

(٤٩) زكي نجيب (محمود) في حياتنا العقلية، ط٢، دار الشروق، بيروت، ١٩٧٩، ص: ٨٩.

(٥٠) زكي نجيب (محمود) في حياتنا العقلية (مرجع سابق)، ص: ١١١.

(٥١) زكي نجيب (محمود) نحو فلسفة علمية، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٥، ص: ٩٥.

(٥٢) زكي (نجيب محمود) نحو فلسفة علمية(مرجع سابق)، ص: ١٤٣.

(٥٣) كامل (فؤاد) أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ص: ٩٨.

لعبة اللغة: رحلة الإنسان مع المعنى

د. الصادق الفقيه*

ميلاد مشترك

تقول الحقيقة العلمية إن كل البشر يولدون ولديهم ملكة الكلام، لكن متى بدأنا القدرة على تنظيم أفكارنا بلغة مفهومة يُفضي الحديث بها إلى المعنى، فهذا ما لم تتفق الأبحاث والدراسات بعد على تاريخ دقيق له. غير أننا نكشف بمرور الوقت أن لغاتنا هي أدوات تكيفية فريدة، شكلتها البيئة، وكل واحدة منها تؤثر على كيفية إدراكنا للوقت في الفضاء العام، وكيف نتذكر الأحداث. ورغم أن التواصل البشري يعتمد على نفس الأسس الجينية؛ مثل الحيوانات الأخرى، إلا أن البعض ينشأون بميل أكبر للتعاون، مما يُساعد على تَشَكُّل التواصل الرمزي عبر اللغة. وقد تغلب الإنسان قديماً على الكثير من مصاعب الحياة وعقباتها بتطوير لغة التواصل وتكثيف التعاون والعمل الجماعي. لذلك، تتطلب مواجهة التحديات الرئيسة في عصرنا الحاضر فهماً أعمق لوظيفة اللغة؛ كيف تطورت، وكيف أثرت على تطورنا البيولوجي والثقافي، وكيف تستمر في تحديد هويتنا، وكيف نختبر العالم، الذي نعيش فيه معاً، من خلالها. ونُدرِك أن التطور هو قصة الاستجابة الإبداعية للتحدي البيئي، الذي يعمل على تنظيم تجربتنا، التي تشمل الجذور التطورية للتواصل البشري عبر النماذج العقلية واللغة السلوكية الأساسية، والتي نتشاركها مع جميع الأنواع، وباعتبارها، أي اللغة، هي الأداة الأكثر مرونة للتكيف البشري.

---

* دبلوماسي سوداني، الأمين العام السابق لمنتدى الفكر العربي - الأردن، وأستاذ العلاقات الدولية والدبلوماسية، جامعة صقاريا/تركيا.

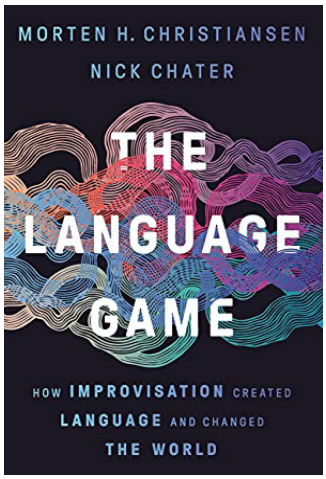

المؤلفان: مورتن إتش كريستيانسن ونيك تشاتر
الناشر: Basic Books
تاريخ النشر: ٢٢ فبراير ٢٠٢٢

لقد استخدم الإنسان، منذ بدء الخليقة، لغة رمزية لأول مرة لتبادل الفهم واكتساب الخبرة. وتعد المحاكاة الصوتية جزءاً من تراثنا الجيني، وتكمن وراء طقوسنا وألعابنا ورياضاتنا ورقصنا حتى يومنا هذا. وساعدت الثقافة الشفوية على التواصل التعاوني، والتخطيط الجماعي، واتخاذ القرار المجتمعي، والتفاوض، والقواعد والأعراف، إذ تمت الاستجابة لكل هذه الاحتياجات بالكلام. واكتشف الإنسان أنه للمرة الأولى، يمكن تعزيز تماسك المجموعة من خلال القصص والأساطير، والرموز الخارجية. وأدت القدرة على تسجيل الأفكار، خارج الذاكرة البشرية، إلى نهضة الفن والكتابة والرياضيات، التي فتحت الباب أمام أفكار جديدة وطرق مستحدثة في التفكير، وجعلت المعرفة في متناول المزيد من الأفراد والمجتمعات. ومثلما حرم الفيروس التاجي «كورونا» بعضنا من حاستي «الشم والتذوق»، دعونا نتخيل التأثير الكارثي لفيروس غامض يحرمنا من اللغة، فالمؤكد أن الحضارة الحديثة ستفسح المجال بسرعة للفوضى، ويضيع المواطنون في فراغ اتصالي؛ إعلامي ومعلوماتي، غير قادرين على التنسيق، أو المساومة، أو التفكير مع بعضهم البعض. إذ إنه بدون القدرة على نقل المعلومات والمهارات بسهولة من شخص لآخر، لمشاركة الأفكار، أو وضع الخطط، أو تقديم الوعود، من الصعب أن نتخيل أنه كان بإمكاننا تحقيق التطور الثقافي والتكنولوجي للصيادين والبدو المعاصرين، ناهيك عن المجتمعات الأكثر تعقيداً. إن امتلاك خازنة«معلوماتية»، تؤدي احدى وظائف الدماغ البشري، لا يكفي، فاتساع الهوة بين مجتمعات القردة والمجتمع البشري في مجالات الثقافة والتكنولوجيا قد لا تنتج فقط من التكوين الخَلْقي للدماغ، ولكن ربما يكون الاختراع البشري للغة هو العامل الرئيس، الذي تتبع منه معظم الاختلافات الأخرى.

ألق التميز

وتبياناً لما قدّمته قصة الميلاد المشترك بين الإنسان واللغة، أقول إني تلقيت كتاباً لمراجعته، وكان تاريخ نشره، في صفحة المعلومات، التي تلي واجهة غلافه، أول ما لفت نظري وجعله يتألق ويأتلف بلؤلؤٍ من المثاني الوضيئة، وتزين بالرقم ٢٠٢٢,٠٢,٢٢، الذي تحتفي بتميزه «لعبة اللغة» الإنسانية في بهائها البصري، وبنيانها التشكيلي الجمالي، وموسيقاها الصوتية الدالة على جنس المتحدثين بها، والناطقين لمفرداتها، إلى جانب بيانها التعبيري الناقل للمعنى. وكأني به مأخوذ بـ «سِفر العدد»،[1] أو مقتبس منه، لاحتفاء بعدد غُيِّبَت عَنَّا مضامينه، ويتخفى عن عقولنا معناه، وترك لـ «حدسنا» الخيار في أن يستكشف كنهه. رغم أن غالبية فلاسفة اللغة العاملين؛ في التقليد التحليلي حول «الحدس»، يشتركون في العمل على ما بدأ يُعرف بـ «نظريات الحقيقة المشروطة عن المعنى»، فما هو إلا زعم بأننا نعرف صورة رقم، أو معنى كلمة ما، عندما نعرف الدور، الذي يلعبانه في الجملة، ونعرف معنى الجملة عندما نعرف الظروف، التي يمكن أن تكون قيلت في ظلها؛ باعتبارها أبسط وحدات المعنى التركيبية. ويتوافق هذا مع الرأي القائل بأن الجمل تتكون من مخزون محدود من العناصر الأبسط، التي يمكن إعادة تجميعها بطرق جديدة، ثم إعادة استخدامها بطرق مبتكرة، طالما أننا نفهم صور تلك التعبيرات الفرعية كمساهمات في معاني الجمل، فيما يمكن الإشارة إليه بسياق «النص». وربما تكون المحاولة اللغوية، بهذا الفهم، هي أكثر الإنجازات البشرية إثارة للدهشة، إذ لا يُفهم أي نص فيها إلا على نحو يقتضيه المنطق.

(١) جاءت تسمية هذا السفر «العدد» عن الترجمة السبعينية المسيحية، وعنها أخذت كل الترجمات الحديثة. وهذه التسمية تناسب الإصحاحين الأول والسادس والعشرين من السفر حيث ورد في كل منهما إحصاء عددي للشعب اليهودي، إذ جرى الإحصاء الأول في سيناء في السنة الثانية لخروجهم، وتم الثاني بعد حوالي ٣٩ سنة في سهول موآب قبل دخولهم أرض الميعاد مباشرة. أما النسخة العبرية فجاء فيها اسم هذا السفر «بمدبار»، أي في البرية، وهما الكلمتان الرابعة والخامسة في الإصحاح الأول والتسمية العبرية تعبر بأكثر دقة عما حواه السفر، لكونه سفر رحلات الشعب اليهودي في البرية.

وعلى الرغم من أن بدايات اختراع الأرقام لا تزال غير مفهومة جيداً، إلا أننا نشاطر «كاليب إيفريت» في قوله إن الأرقام هي الأخرى ابتكار لغوي رئيس ميّز جنسنا البشري وأعاد تشكيل التجربة الإنسانية.[٢] وبالنظر إلى تاريخ نشر هذا الكتاب مجدداً، يمكننا أن نفهمه كمعنى لجملة لا يمكن الحصول على شروطها الحقيقية أبداً، أو لا يمكن التحقق منها من الناحية اللغوية والاصطلاحية، وفقاً لمحددات منطق اللغة ومناهج تحليلها. على سبيل المثال، كل رقم زوجي هو مجموع اثنين من الأعداد الأولية، أي أن معرفة ما يجب أن تحصل عليه من هذه «الصدفة» الرقمية التاريخية هو بعض الشروط، التي تقول لنا إن معرفة صورة معينة للأرقام تمثل هي الأخرى شروطاً قابلة للفصل، لذلك، لا يمكن أن يكون المعنى مجرد التحقق من وضع شخص ما في حالة معينة ومعرفة الجمل، التي ينطقها بمفردات نستطيع فك «شفراتها»، وفهم مقاصدها من خلال ما تحمله من مخزون بياني. وحتى في العصر الحجري القديم، أدركنا، كما يقول «إيفريت» إن تتبع جوانب العالم الطبيعي قد يُحَسِّن فُرصنا في البقاء على قيد الحياة. فقد كنا نسجل الكميات، باستخدام أرقام ما قبل التاريخ، لعشرات الآلاف من السنين.[٣]

---

(٢) كاليب إيفريت، أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا في جامعة ميامي بأمريكا، يستكشف بحثه الموسوم: «الأرقام وصنعنا: العد ومسار الثقافات البشرية»، الذي صدر في ١٣ مارس ٢٠١٧، عن مطبعة جامعة هارفارد، تقاطع اللغة والفكر. ويقول إن هناك أرقام يمكن التنبؤ بها في الطبيعة، ولكن لدينا نحن البشر إحساس رقمي فطري «دقيق» للأعداد التي تصل إلى ثلاثة فقط. ويقترح عالم الأنثروبولوجيا كاليب إيفريت أن «الأرقام» أو «الكلمات والرموز الأخرى لكميات محددة» هي «مجموعة رئيسية من الابتكارات القائمة على اللغة التي ميزت جنسنا بطرق لم يتم تقديرها بشكل كافٍ. ... لقد أعادوا تشكيل التجربة الإنسانية».

(٣) قبل ٤٣,٠٠٠-٤٤,٠٠٠ سنة، قام شخص ما في السلاسل الجبلية بين جنوب أفريقيا وسوازيلاند بنحت تسعة وعشرين خطا في جانب شظية البابون، ربما لتتبع الأيام في دورة قمرية. في فرنسا، عظم عمره ٢٨٠٠٠ عام يعرف باسم لوحة Abri Blanchard يحجب النقوش التي قد تمثل أيضاً مراحل وحركة القمر؛ ويحمل قرن الوعل لأيائل الرنة عمره ١٠ آلاف عام عثر عليه بالقرب من ميامي الحالية علامات حصيلة تشير على الأرجح إلى كميات، مثل الأيام أو دورات القمر.

وهنا أستأذن القارئ لأزعم أن الكتاب لم يرد بهذا «التزامن» في رسم صورة «التوقيت» توسيع حسابه في قوائم التوزيع؛ من خلال تضمين شروط، أو تحسينات رقمية، لكن ربما أراد، أو قد يكون تَقَصَّدَ، تقديم الدلالة الاستنتاجية الصحيحة للتاريخ كـ «جُملة» ذات معنى، واستخدام جديد صحيح له، وإظهاره كأحكام حول أدلة كافية، أو محتملة لحقيقة زمنية جاذبة. وبالتالي، نجح في التأكيد على أن بعض أشكال العروض التقديمية للتحقق الذاتي، التي يمثلها هذا التاريخ ستدعم فكرة الترويج، وتسمح للقراء باشتقاق جميع ميزات استخدام صور الأرقام مثل اللغة ومعناها. على الرغم من أن نسخة ورقية أخرى منه، صدرت بتاريخ ٢٠٢٢, ٤, ١٤، بما قد يمثل نقطة شائكة بالنسبة للكثيرين ممن يشككون في مثل هذه الإحالات، والأسس المعرفية للمعنى المستبطن في صور هذه الأرقام بشكل عام. ففي حين أن التحليل اللغوي لا يهيمن على التفكير في هذه الحالة كجزء من الفلسفة التحليلية؛ كما كان الحال في معظم القرن العشرين، فإنه يظل مجالاً حيوياً يستمر في التطور مع العصر الرقمي الحديث.[٤] وكما في الأيام الأولى للفلسفة التحليلية، كان هناك اهتمام كبير بالتوازي بين محتوى الأقوال وإسناد المحتوى إلى الحالات العقلية، لكن صارت «الرقمنة» الراهنة تهيمن على قياسات المعنى، وابتعد العديد من علماء الإدراك عن الافتراض التحليلي الكلاسيكي القائل إن الأرقام، كما الأفكار لها رمزية، أو تشبه الجملة ذات المحتوى.

(٤) ريمي ريفيل، «الثورة الرقمية..ثورة ثقافية؟»، ترجمة «سعيد بلمبخوت»، إصدار عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والثقافة، الكويت، يوليو ٢٠١٨. يناقش هذا الكتاب تأثير«الرقمنة» على الثقافة، سواء في طريقة إنتاج النصوص، أو توزيعها، أو طبيعة التفاعل الإنساني على الإنترنت، ومن تأتي أهميته للمتخصصين في الإعلام، والثقافة، وعلم النفس، والتربويين.

مؤلفان

إن هذه الرؤية للغة، هي بلا شك، ممتازة لكيفية عمل المعنى، وتستوجب القول إن هناك بعض الأفكار الشائقة في الكتاب، التي هي قيد العرض هنا في هذه المراجعة العامة، والتي يجئ القصد فيها لجعل القارئ يشعر بالفضول لمعرفة مقدار الجذب، الذي ستجمعه هذه الأفكار في المجتمعات العلمية، وما ستخلقه في دوائر الفضاء العام. لذلك، يحسن تقديم من قاما بتأليف هذه الأفكار ليتذكرهما العلماء ويتعرف عليهما العامة، فـ «مورتن إتش كريستيانسن»، هو أستاذ علم النفس في كرسي ويليام كينان جونيور بجامعة كورنيل، وأستاذ العلوم المعرفية للغة بجامعة آرهوس في الدنمارك؛ و«نيك تشاتر»، هو أستاذ العلوم السلوكية بجامعة وارويك ببريطانيا. ويعملان معاً؛ في هذا الكتاب، على إشراك رواة القصص، الذين يحدثون عن كيف حاول الفلاسفة، والمؤرخون، وعلماء الطبيعة، واللغويات، والأنثروبولوجيا، وحتى علماء الرياضيات، وعلماء الكمبيوتر، حل ألغاز اللغة. ففي سرد حكاياتهما، يغوص المؤلفان عادة في حفرة مليئة بثقوب المجهول، ولا يبلغون بسهولة مقاصد وغايات ما يتطلعون لبلوغه. هل يتحدث كل الناس المعاصرين مع بعض الاختلافات المستجدة للغة «آدمية» بدائية؛ كما في قصة «آدم وحواء». [٥]

وبحثاً عن أدلة للإجابات، يلجأ المؤلفان كريستيانسن وتشاتر إلى كتاب «سفر التكوين» في الكتاب المقدس، وعمل القديس أوغسطين،[٦] وأفكار فيلسوف القرن العشرين «لودفيج فيتغنشتاين»، الذي نشرت مقالاً عنه تزامناً

(٥) إن قصة«آدم وحواء»، هي أول رواية متكاملة تُليت علينا في الديانات الإبراهيمية. وباعتبارهما أول رجل وامرأة، فإنّ هذه القصة أساسية للاعتقاد القائل بأن الإنسانية هي في جوهرها عائلة واحدة، حيث ينحدر كل شخص من زوج واحد من الأسلاف الأصليين.

(٦) يعتبر القديس أوغسطين أعظم فيلسوف مسيحي في العصور الوسطى، وبالتأكيد هو الفيلسوف صاحب التأثير الأعمق والأطول في الأخلاق والسياسة، ونظريته في المعرفة.

مع الاحتفال بمئويته، في موقع «التنويري».[٧] كما أورد المؤلفان قصة «شفرة نافاجو»، التي استعملت بين أفراد جيش الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية.[٨] لكن، ما هي السمات الفريدة للدماغ البشري، التي تسمح للبشر بتعلم اللغة؟ وتقفياً لأثر الإجابة، يستكشف المؤلفان أفكار نعوم تشومسكي، الذي نظر في إمكانية أن يولد الأطفال بمخطط «قواعد عالمية» مشفرة في جيناتهم وأدمغتهم.[٩] كما أنهما ينظران إلى «الشتات الأفريقي»! ويقترحان أن السؤال الأكثر إثارة للاهتمام هو «كيف أصبح الدماغ البشري متكيفاً بشكل جيد مع اللغة؟«ومع الاعتراض المبدئي على هذه الانتقائية العنصرية، واختيار مجموعة بشرية واحدة لإجراء الملاحظة، قد يكون من اللائق أيضاً قلب السؤال إلى: «كيف أصبحت اللغة تتكيف بشكل جيد مع الدماغ البشري؟«إذ نظر تشومسكي في مخطط «قواعد عالمية»، التي إن صحت فرضيتها يتوقع أن تنطبق على «الشتات» اليهودي، الذي ينتمي تشومسكي إليه، وعلى جميع من جربوا العيش في مجتمعات غير مجتمعاتهم، خاصة المستعمرين البيض، الذين انتشروا في كل الأرض، وعاشوا بين كل الثقافات واللغات.

---

(٧) الصادق الفقيه، «مئوية فيتغنشتاين؛ مراجعات في مسارات المنطق الفلسفي»، مجلة وموقع التنويري، عمان، الأردن، ٢٧ مايو ٢٠٢١. https://altanweeri.net/6431/1

(٨) كانت «شفرة نافاجو» مبادرة من الطبيب البيطري «فيليب جونستون»، ابن مبشر مسيحي، نشأ في محمية «نافاجو» للهنود الحمر في شمال نيو مكسيكو. وعلى الرغم من أنه لم يكن من قبيلة «نافاجو»، فقد تعلم اللغة عندما كان شاباً. في وقت لاحق، سمع جونستون عن جنود يتحدثون لغة «التشوكتو» فاقترح أن يتواصلوا عبر الراديو، ويخدعون الألمان في معركة حاسمة. وقد استخدم المصريون في حرب أكتوبر لغة«النوبة» لإيصال رسائلهم بين وحداتهم العسكرية المختلفة.

(٩) ظلت نظرية نعوم تشومسكي اللسانية بمثابة طفرة حقيقية غيرت من مسار اللسانيات، ورسمت لها طريقاً نحو تحقيق نجاحات باهرة. وما استغربناه هو لماذا أشار تشومسكي إلى «الشتات الأفريقي» كحالة دراسة، ولم يأخذ اليهود، الذين ينتمي إليهم، والذين ارتبطت بهم كلمة «شتات».

محتوىً وأمثلة

انتظم الكتاب؛ بعد صفحات التعريفات والإهداء، في مقدمة مفتاحية، وثمانية فصول وخاتمة حملت عنوان: «ستنقذنا اللغة من الفردانية» إشارة إلى قدرتها على اتاحة التواصل وتوثيق عُرى العلاقات الجماعية، وانتهت الصفحات بلوازم إزجاء الشكر لمن وجب لهم، وسجل التعريفات، وما ثبت من هوامش ومراجع، وفهرس عام. وأسهبت المقدمة في عرض «الاختراع العرضي الذي غير العالم»، والذي هو «لعبة اللغة»، التي برع في التعبير بها البشر. وتوزعت الفصول بين قضايا الكتاب الأساسية؛ فجاء الفصل الأول تحت عنوان: «اللغة كأحرف». بينما شرح الفصل الثاني مقصده تحت عنوان: «طبيعة انتقال اللغة» عبر الأمكنة والأزمنة. وعرض الثالث إلى «خفة المعنى التي لا تُطاق»، مستفيضاً في شرح المفردات وما تحمله بعضها من معانٍ متعددة، ومتعارضة أحياناً، وما يولده ذلك من إشكالات. وتناول الفصل الرابع «النظام اللغوي عند حافة الفوضى»، وركز الخامس على «تطور اللغة من دون تطور بيولوجي»، فيما اختص السادس بمناقشة «اتباع كل طرف لخطوات الآخر». واستعرض الفصل السابع «أشكالاً لا نهائية من الجمال» في اللغات المختلفة وتراكيبها، وتوسع الفصل الثامن والأخير في تِبْيَان «الدائرة الافتراضية: العقول والثقافة واللغة»، منبهاً إلى قول «ليف فيجوتسكي» «إن علاقة الفكر بالكلمة ليست **شيئاً** بل **عملية**، وحركة مستمرة ذهاباً وإياباً من الفكر إلى الكلمة ومن الكلمة إلى الفكر».[١٠]

لقد تناول الكتاب، عبر هذه الفصول، أمثلة من البيئة يسهل هذه الأيام التعرف عليها؛ ليس لأننا أصبحنا أكثر وعياً بما حولنا من مخلوقات، ولكن لأن وسائل التواصل الاجتماعي جلبتها إلينا في شكل «أيقونات»، أو مفردات مهيمنة على أساليب تواصلنا. إذ يقول الكتاب إن الطيور «تغرد»، وأقول ما أكثر ما تزحمنا به «التغريدات» البشرية هذه الأيام، لا بل أن «تويتر» علمنا «السقسقة»،

(١٠) ليف فيجوتسكي،«الفكر واللغة»، الصادر عام ١٩٣٤، من كتاب «لعبة اللغة»، ص ١٩٨.

بدلاً عن «شقشقة» الطيور، للتعبير عن «توترات» أحوال معاشنا الاجتماعية، وأزمات أقضيتنا السياسية. ويذهب المؤلفان إلى أن القرود الخضراء لها نداءات إنذار منفصلة للتحذير من الأفاعي والنمور، وأزعم أننا صرنا نقلدها برموز «الإيموجي»، الذي استبدلنا بصورها الصامتة مفردات اللغة الناطقة في وسائل التواصل الاجتماعي. ويقولان إنه يمكن لبعض الشمبانزي والببغاوات تقليد الكلام البشري، وأخشى أن نحرمهم من هذه الميزة لأن «الرقمنة» أضعفت قدرتنا على الكلام. وفي حين تتواصل العديد من أنواع الحيوانات بطرق مهمة لبقائها على قيد الحياة؛ يتصارع كريستيانسن وتشاتر، في كتابهما «لعبة اللغة»، مع هذا السؤال: لماذا إذن البشر هم الحيوانات الوحيدة ذات المهارات اللغوية المتقدمة؟ وهذا لأن اللغة، وفقاً لكريستيانسن وتشاتر، ليست اختراعاً بقدر ما هي إلا ارتجال، «لعبة الحزورات على مستوى المجتمع، حيث تعتمد كل لعبة جديدة على تلك، التي مرت من قبل، ويتم إعادة اختراعها باستمرار جيلاً بعد جيل. ويكتسب الأطفال الكلمات والعبارات ليس من خلال استيعاب القواعد، أو النطق وفقاً للأنماط، التي ولدوا بطريقة ما للتعبير عنها، ولكن عن طريق القفز إلى اللعب والارتجال بحرية؛ ونحن نتحدث من دون معرفة قواعد لغتنا تماماً، أو على «السليقة»، كما نلعب التنس دون معرفة قوانين الفيزياء، أو نغني دون معرفة نظرية الموسيقى. بهذا المعنى الحقيقي للغاية، نتحدث ونفعل ذلك بمهارة وفعالية، دون معرفة لغتنا على الإطلاق. وفي تاريخ العرب مِصْدَاقٌ لهذا حيث صَحَّتْ لغة أهل البادية وحسن بيانهم من غير أن يكونوا متعلمين لقواعد مكتوبة، أو قوانين ناظمة لمخارج حروفهم وموسيقى قراءاتهم.

ووفقاً لكتاب «لعبة اللغة»، يقوم الأفراد جميعهم، والثقافات بأكملها، بإعادة تجميع اللبنات الأساسية، أو «المباني الجاهزة» للمفردات والأرقام، للتواصل بشكل عشوائي، إذ تتطلب المواقف المستجدة كلمات وعبارات جديدة، التي غالباً ما تكون قد تغيرت مع الزمن. وعند التحدث، فإن الشاغل الأساس للشخص ليس أن يكون صحيحاً، ولكن أن يتم فهمه، أو فيما يُشبه محاولة استيفاء شرط الحاجة؛ والحاجة أم الاختراع. لذلك، فإن النهج النظري،

الذي اقترحه كريستيانسن وتشاتر حول اكتساب اللغة وتطورها يعكس بشكل وثيق الأفكار، التي صاغها تشارلز داروين حول تطور علم الأحياء.[١١] فقد زعم داروين أن الاختلافات البيولوجية تنشأ عن طريق «الصدفة»، وتصبح سمات ثابتة فقط إذا كانت مفيدة.[١٢] ويقول كريستيانسن وتشاتر، كما سبق، عن اللغة ما يشبه «تخريجات» داروين هذه، على الرغم من أن مصطلح بـ «الصدفة» قد لا يكون أفضل مصطلح لوصف ما يقوم عليه التغيير، الذي يُتَوَقَّع له أن يُؤدي وظيفة. ولذلك، ينصحنا المؤلفان بأن الكلمات ليس لها معانٍ ثابتة، بل هي أدوات مستخدمة في الوقت الحالي للتعبير عن معنىً، ربما يتبدل، أو قد يتغير لضرورات مستقبلية. إذ إن «لعبة اللغة»، بحد ذاتها، هي عبارة عن مجموعة كلمات وعبارات تُعرضُ في حُلَّةٍ «جميلة»، على الرغم من أن كلمة «جميلة» هنا لا تعني أن نثرها وعرضها مصمم بدرجة عالية من الدقة والألق، وإنما لقدرتها ووفائها بالحاجة لإبلاغ المعنى بأفضل وجه. ونجد في الكتاب أن كريستيانسن وتشاتر يستخدمان الكلمات للغرض نفسه، الذي يعتقدان أن أي شخص يفعله، أي أن يُفهم إذا تحدث، وأن يَفْهَم إذا قِيلَ له.

لكن، نلحظ في عموم الكتاب أن كلماته لها التزام جذبٍ ثانٍ، وهو إبقاء القراء مأخوذين بجمال أسلوبه بشكل كامل، ويدفعهم الفضول لتتبع حججه حتى النهاية. فقد نثر المؤلفان مفردات وعبارات جذلة، وضَمِنَا بذلك تتبع القراء لهما صفحة تلو الأخرى، وفصلاً تلو الآخر، مع فرصة التمتع بحكايات

(١١) تعيّن الداروينية شكلاً مميزاً من التفسير التطوريّ لتاريخ وتنوع الحياة على الأرض، وردت صيغته الأصلية في الطبعة الأولى من كتاب «أصل الأنواع On the Origin of Species»، في عام ١٨٥٩. يصوغ هذا المدخل أولاً «داروينية داروين» من حيث هي خمس موضوعات، هي: فلسفيّة مميزة: الاحتمال والصدفة، وطبيعة الانتقاء وقوته ونطاقه، والتكيف والغائية، والاسمية مقابل«الجوهرية/الماهية» حول الأنواع، وطريقة التغيير التطوري وإيقاعه.

(١٢) ينظر له في بريطانيا كمستكشف لأرض الجنوب وبحارٍ شهير، قام بمهامٍ وطنية لخدمة بلاده، لكنه بالنسبة للشعوب الأصلية التي استكشفها كان يعد غازياً ومستعمراً ودموياً.. كانت تييرا ديل فويغو، التي تقع في أرخبيل الطرف الجنوبي من قارة أمريكا الجنوبية مقسّمة بين الأرجنتين وتشيلي، ويسميها أهلها من الـ «هاوش» بالاسبانية، التي تعني «أرض النار»، من أولى المحطات، التي مر بها كوك في رحلته الأولى على متن سفينة «إتش إم إس إنديفور».

مثيرة، وملخصة بشكل عام في العنوان الفرعي للكتاب: «كيف خلق الارتجال اللغة وغير العالم». وكمقياس لما لدى رواة القصص الجيدين، فإن ما أراده مؤلفا «لعبة اللغة» كنصيحة غير مكتوبة هي ألا يتعجل القارئ، عندما يحتاج إلى مزيد من المعلومات، بالتحقق منها في قسم الملاحظات فقط، مع أهمية استخدم الملاحظات كمراجع. ومع ذلك، ستجد أنه بعد الانتهاء من الجزء الرئيس من الكتاب، وقراءة جميع الملاحظات، أن هناك الكثير من القصص، التي تستحق استحضارها. فهل تعلم أن المستعمرين البيض طاردوا وأطلقوا النار على السكان الأصليين في «تييرا ديل فويغو»، الذين استقبلوا بترحاب الرحالة البريطاني جيمس كوك، وطاقم السفينة «إتش إم إس إنديفور»، عام ١٧٦٩؟ وعادوا ثانية بذات الروح السلمية ليرحبوا بتشارلز داروين وطاقم السفينة «إتش إم إس بيجل»، في عام ١٨٣٢؟ وهل تعلم أنه بالنسبة لبعض أنواع الطيور المغردة، تغني الأنثى أيضاً للحال والجمال؟ وهل تعلم أنه على الرغم من مئات السنين من البحث والتكهنات المتضافرة، ما زال العلماء لا يعرفون متى بدأ البشر الحديث؟ وهل تعلم أن الكلمات المرئية للغة الإشارة تُنسى بسرعة أكبر من المفردات المسموعة في الكلام؟

الأسئلة الحائرة

إن ما تقدم من أسئلة، وغيرها، تبدو حائرة، إذ مرت قرون من المعرفة أظهرت فيها «لعبة اللغة» كيف يتعلم الناس التحدث؛ ليس فقط من خلال اكتساب معاني وقواعد ثابتة، ولكن عن طريق التقاط وإعادة استخدام وإعادة دمج أجزاء لغوية لا حصر لها بطرق جديدة. لذلك احتشد هذا الكتاب بالأسئلة: ما هي اللغة؟ لماذا لدينا لغة؟ ومن أين تأتي اللغة؟ ولماذا هي مهمة؟ وبالاعتماد على أمثلة مسلية ومقنعة من جميع أنحاء العالم، يوضح الكتاب: كيف تتكيف ذاكرتنا قصيرة العمر مع فيضان الصوت المتسارع، الذي يمثل الكلام اليومي. ولماذا تعتبر هذه اللغة تحدياً لعلماء اللغة رغم أن الأطفال الصغار يتعلمونها بسهولة. ولماذا تتنوع لغات العالم بشكل مذهل، ولماذا لا يتحدث شخصان نفس

اللغة تماماً. ولماذا البشر لديهم لغة، لكن القرود والشمبانزي ليس لديهم لغة. وكيف أعطتنا اللغة عقلاً كبيراً وغيرت مجرى التطور، وكيف أن اللغة لا تُحِدُّ، ولكنها تُشَكِّل، كيف نُفكر. وفي النهاية، لماذا ما توصلنا إلى فهمه حول كيفية عمل اللغة، يمنحنا أملاً أكبر لمستقبلنا.

إننا قد ننسى غريزة اللغة، لأنها قصة مرتبطة بكيفية تكوين اللغة مع تقدمنا الاجتماعي العمراني. ويعترف الكتاب أن اللغة ربما تكون هي القدرة الأكثر إثارة للإعجاب للبشرية، التي لا تزال غير مفهومة جيداً. ويوضح لنا كريستيانسن وتشاتر أين أخطأت أجيال من العلماء الباحثين عن قواعد اللغة. ويقولان إن اللغة لا تتعلق بالقواعد النحوية الملموسة، ولكن بالحرية شبه الكاملة، شيء مثل لعبة «الحزورات»،[١٣] مع المطلب الوحيد هو الرغبة في التعلم والفهم. غير أنه من وجهة النظر الجديدة هذه، يجد المؤلفان حلولاً مقنعة لألغاز رئيسة مثل أصول اللغات، وكيف يمكن تعلم اللغة، ويمهدان لمناقشات طويلة الأمد؛ مثل، ما إذا كان وجود معنيين لكلمة «أزرق» يغير ما نراه. في النهاية، أظهرا أن العائق الحقيقي الوحيد للتواصل هو خيالنا. وعلى الرغم من أن اللغة متجذرة بعمق في كل ما نقوم به، إلا أنها محيرة للغاية، إذ كيف يمكن للضوضاء، أو الإيماءات، أن تنقل المعنى على الإطلاق؟ وما هي الأنماط المختلفة في الأصوات والكلمات والمعاني، التي تتكون منها اللغة، ومن أين أتت؟ ولماذا يعتبر فهم كيفية عمل اللغة تحدياً هائلاً لجيوش من علماء اللغة المحترفين بينما يمكن لكل جيل جديد من الأطفال إتقان لغتهم الأم بسهولة في سن الرابعة؟ وهل تستطيع الآلات فهم اللغة؟

(١٣) بالنظر إلى أن الحزورات تتضمن الحصول على نقطة عبر الإيماء، باستخدام اليدين عادةً، فقد يبدو أن فكرة اللغة كحزورات لا تنطبق على اللغة المنطوقة. بعد كل شيء، اللغة المنطوقة، أو النطق من أي نوع، غير مسموح به عادة في لعبة الحزورات. هل تعني قصة اللغة من الحزورات أن اللغات البشرية بجميع أنواعها يمكن إرجاعها إلى شكل من أشكال لغة الإشارة؟ من بين أمور أخرى، يشك مايكل توماسيلو، عالِم علم النفس التنموي بجامعة ديوك في نورث كارولينا، في أن هذا قد يكون هو الحال.

لقد جرى إعاقة التقدم نحو الإجابة على هذه الأسئلة، والعديد من الأسئلة الأخرى، بسبب الاعتقاد الخاطئ الأساس بأن التقلبات في اللغة اليومية هي ظِلٌّ شاحبٌ للغة مِثالية، حيث يكون للكلمات معاني واضحة، ويتم تجميعها معاً باتباع قواعد نحوية محددة جيداً. لكن هذه القصة التقليدية تتداخل فيها أشياء متخلفة تماماً، فاللغات الحقيقية ليست متغيرات مشوهة؛ قليلاً، أو كثيراً، لنظام لغوي أكثر نقاءً وتنظيماً. بدلاً من ذلك، تكون اللغة الفعلية دائماً مسألة ارتجال، لإيجاد طريقة فعالة لتلبية متطلبات التواصل في الحال الراهن، لأن البشر، وفقاً للكتاب، هم متواصلون مرحون، ومزاجيون، ومبدعون، وكلماتهم لا تأتي إلا تدريجياً بمعانٍ أكثر استقراراً. لذلك، تعلمنا أن الانتظام النحوي المستقر نسبياً ليس نقطة البداية، بل هم النتيجة من أجيال لا حصر لها من التفاعل التواصلي، والتي من خلالها تصبح الأنماط اللغوية أكثر رسوخاً من أي وقت مضى. وسنرى أن اللجاجة الظاهرة، والاعتماد على اللهجات العامية، وسوء الانضباط في الكلام المعاصر، لا يمثل تجسيداً خشناً لبعض المثالية. وبدلاً من ذلك، فإن لغة مثل العربية، وبأنماطها المعقدة، وأساليبها المتفاعلة، وقواعدها المتداخلة، وجمالياتها الأخاذة والمحيرة، وسموها النابض بالحياة، هي نتاج تاريخها، وخصوصيتها، وعدد لا يحصى من المفردات، التي أدت بشكل تدريجي؛ مقصود وغير مقصود، إلى إنشاء أنظمة نحوية معقدة اليوم. لذلك، فإن الظهور التلقائي للنظام اللغوي في المجتمعات البشرية هو قصة رائعة مثل ظهور الحياة نفسها.

انفجار المعرفة

لقد كانت اللغة هي «نار بروميثيان»، التي أشعلت انفجار المعرفة البشرية، واعتبرت أحد الألغاز الثلاثة العظيمة، التي لا تزال تثير حيرة علماء الأحياء التطورية. وأزعم أن الكثيرين قد سمعوا بتعبير «نار بروميثيوس»، لكن لا يعرف غالب الناس ما تعنيه، ومن أين أتت، إذ تُفْصِح معرفة مثل هذا التعبير عن «انتقائية»، أو ثقافة عالية للشخص، تَنُمُّ عن دراسة الأساطير، وسعة الاطلاع. لذلك، من أجل فهمٍ كاملٍ لمعنى الوحدة اللغوية لـ «نار بروميثيان»، نحتاج هنا

فقط إلى مجرد تَذَكُّر محتوى الأسطورة، وتحليل أحداث القصة الجميلة عن البطل النبيل والآلهة الذين أظهروه.[١٤] وكما قال «ريتشارد دوكينز»، يقدم كريستيانسن وتشاتر شرحاً رائعاً لما يُقَرِّب فهم هذه الأسطورة، ويعرض وصفاً واضحاً للمشكلة، ومعالجة عادلة وسخية للنظريات المتنافسة، تليها دعوة حيوية ومقنعة بشكل فكاهي لحلها.[١٥] وهذا ما جعل «تيم هارفورد» يصف الكتاب بأنه قلب كل ما اعتقد أنه يعرفه عن اللغة رأساً على عقب، لأنه مقنع ومليء بالتفاصيل الرائعة.[١٦] ويشاركه هذا الرأي «دانيال إيفريت» بحديثه عن أن «لعبة اللغة» هي قصة أصلية للغاية ومقنعة عن كيفية تطوير البشر لأعظم اختراعاتهم، وهي اللغة. إنها تستند إلى سنوات من البحث الرائع، الذي أجراه كريستيانسن وتشاتر، وتُظهر علم اللغة في أفضل حالاته. وبجانب متعة القراءة، يستحق الكتاب دراسة متأنية من قبل أي شخص مهتم بطبيعة ووظيفة وأصول الاتصال البشري.[١٧] فالكتاب، في قول «باربرا تفرسكي»، هو رحلة ممتعة عبر الأنواع

---

(١٤) تقول أسطورة «بروميثيوس» إنه من أجل تسهيل الحياة على الناس، سرق بروميثيوس النار من الآلهة وأخذها إلى الناس العاديين، مضحياً بنفسه من أجل هذا الهدف النبيل. والنار هنا ترمز إلى نور المعرفة، التي تبدد المخاوف والشك الذاتي والاستسلام لأحداث مستقبلية مجهولة. لذلك، يرتبط معنى الوحدة اللغوية «نار بروميثيان» ارتباطاً وثيقاً بالمعرفة الفكرية والإبداع.

(١٥) ريتشارد دوكينز هو مؤلف كتاب: «الجين الأناني»، مطبعة جامعة أوكسفورد، الطبعة الأولى عام ١٩٧٦، وفيه يقدم دوكينز حجته حول التطور من خلال التركيز على الجين نفسه، بينما اعتبر آخرون أن التطور يحدث على مستوى الفرد أو المجموعة. ويرى دوكينز هنا عملية الانتقاء الطبيعي بشكل مختلف، ليس الفرد فيها أكثر من وعاء لـ«جين أناني» دافعه الوحيد هو ضمان بقاءه في المستقبل، حتى لو كان ذلك يعني موت الفرد.

(١٦) وإشارتنا إلى الأرقام قد يتأتى فهمها بقراءة كتاب تيم هارفورد، الموسوم بعنوان: «كيف تجعل العالم يضيف»، الصادر عن مطبعة ليتل بروان، في ٧ مايو ٢٠٢٠، وفيه يقول إن الأرقام والإحصائيات الجيدة تساعدنا على رؤية أشياء عن العالم من حولنا وعن أنفسنا، كبيرها وصغيرها، التي لن نتمكن من رؤيتها بأي طريقة أخرى.

(١٧) اشتهر عالمُ اللسانيان دانييل ل. ايفريت بكتابه المعنون: «لا تنم فهنا توجد أفاع: الحياة واللغة في غابات الأمازون»، الذي أصدرته بانتيون بوك، بلندن، عام ٢٠٠٩. وقد سجل فيهً تجربته في دراسة لغة الـ «بيراها»، التي يصفها بأنها «لا تشابه اللغات الأخرى». وذلك لأنها لا تعرف تصريف الأفعال بصيغة الماضي، وتفتقر تماماً للأرقام، وليس فيها أية لفظة للدلالة على الألوان، ولا أي تعبير للدلالة على الحروب، أو على الملكية الخاصة. وأبناء الـ «بيراها» لا يعرفون شيئاً عن «الأساطير»، التي تدل على أصولهم الأولى.

والثقافات من خلال طرق اختراع اللغة وإعادة اختراعها، تتخللها قصص ثاقبة ستشعر أنك مضطر لإخبار أي شخص على مرمى البصر بها.[١٨]

إن هذا كتاب يجادل بشكل أساس في أن نعوم تشومسكي كان لديه بعض الأفكار العظيمة، لكنه في النهاية كان خاطئاً في بعض تقديراته وتقريراته وتبريراته. ومثل غيره، وقع في مجازفات «تبسيط» قد تكون صُممت بشكل مقصود لربط القارئ بمتابعة تصفح الكتاب، مع إعطائه فكرة عن الاتجاه النهائي للفكرة المركزية، التي تتطلع لخلق لغة عالمية متحررة من قيود خصوصية القواعد. رغم ما عهدناه أن غالب المؤلفين يخشون باستمرار من «الفوضى» في استعمالات اللغة، حتى أثناء الترويج لبعض فوائدها الخفية. وحجتهم في ذلك هي أن اللغة؛ مثل الإنسانية، تتطور بشكل أفضل وأكثر فائدة داخل حدود القواعد، وبالتالي داخل حدود الأحكام، ولأن التعريف الحر في لـ «الفوضى» هو الكتابة والكلام «بدون أحكام». وهذا هو المكان، الذي يتعارضون فيه؛ في النهاية، مع أفكار تشومسكي، التي تدعو للغة كونية، وآلة نحوية عالمية. وبالنسبة لشخص غير مختص في مجال اللغات، قد يجد أن هذا الكتاب فيه اختبار قوي لموضوع القواعد والأحكام، وإن كُتِبَ بلغة يمكن متابعتها بسهولة، وحتى عند المناقشات التقنية قام كل من كريستيانسن وتشاتر بعمل موفق في استخدام استعارتهم الجارية للعبة «الحزورات» لشرح الاختلافات وأوجه التشابه فيما كانوا يصفونه باستخدام نظام يعرفه الكثير من القراء جيداً، ويمكن أن يتجاوبون معه بسهولة شديدة.

(١٨) قدمت عالمة النفس «باربرا تفيرسكي»، في كتابها: «العقل في حركة: كيف شكلت الحركة الفكر»، الصادر عن مطبعة بايزك بوكس، في ٢١ مايو ٢٠١٩، نظرية جديدة رئيسة للإدراك البشري، قائلة إن الحركة، وليس اللغة، هي أساس الفكر، فعندما نحاول التفكير في طريقة تفكيرنا، لا يسعنا إلا التفكير في الكلمات. وفي الواقع، وصف البعض اللغة بأنها مادة الفكر. لكن الصور يتم تذكرها أفضل بكثير من الكلمات، ووصف الوجوه والمشاهد والأحداث يتحدى الكلمات.

انتقاء المعنى

تقول الفلسفة إننا قد نفهم الأسماء، وغيرها من تعبيرات الإحالة، على أنها «انتقاء» للمراجع الدلالية للمعنى، التي تنسب إليها بقية الجملة لتعبر عن شيء ما، بشكل تقريبي للغاية.[١٩] من هنا، كانت نظريات المعنى المشروطة بالحقيقة جذابة جداً لأولئك الذين يفضلون دلالات طبيعية واختزالية، ولا يروق لهم أي شيء خارج العالم الطبيعي كشرح لهذا المعنى. وقد جرى، في النصف الثاني من القرن العشرين، توجيه الكثير من الاهتمام في هذا المجال إلى نظريات هذه المراجع الدلالية، نظراً لأهمية شرح مساهمتها في الحسابات النظرية للحقيقة. إن الرأي بأن معنى الأسماء الصحيحة كان دالة لمجموعة من الأوصاف، قاد العديد من الفلاسفة إلى البحث عن تفسير مشروط للحقيقة لتضمين مثل هذه الأوصاف في شروط التحقق من الجمل، التي حدثت فيها كوسيلة للتفسير. ومع ذلك، بدأت موجة جديدة من الاهتمام بأشكال مرجعية أكثر مباشرة في السبعينيات. وفي حين أن مثل هذا المزيج من الاستخدام والتحقق قد يكون واضحاً للجمل والشروط، التي يتم الحصول عليها أحياناً، إلا أنها مسألة أخرى تماماً في الحالات، التي لا يحدث فيها ذلك، كنظرتنا لاتساق الأرقام هذه، والتي تزيأ بها تاريخ نشر الكتاب.

إن هذا مبحث عميق، وذهبت فيه اجتهادات كثيرة، ولا شك أن هناك حاجة إلى مزيد من التفصيل للأفعال والمفردات المنطقية والأرقام وفئات المصطلحات الأخرى، ليس هذا مجال حصرها، لكن نُشير فقط إلى أن معظم الفلاسفة اتخذوا العمود الفقري لحساب المعنى ليكون دلالة، واستخدام اللغة ليكون عملية لإدارة العلامات «الرموز» والعلاقات مع المعنى. وقد تشير هذه العلامات إلى الأشياء بشكل مباشر، أو قد تفعل ذلك بشكل غير مباشر من خلال الوقوف على شيء ما في أذهاننا، على غرار ما قال به جون لوك، الذي وصف الكلمات

(١٩) «فلسفة اللغة»، بقلم مايكل ب. وولف، موسوعة الإنترنت للفلسفة، ISSN: 2161-0002 https://iep.utm.edu/lang-phi/، الأحد ٣ أبريل ٢٠٢٢.

بأنها «علامات على الأفكار»، التي تجعل الإنسان يَحِسُّ بالمعنى لِيُدْرِكه.[٢٠] ومع ذلك، واجهت الحسابات، التي أكدت على الإشارة إلى المصطلحات على أنها مكونة لمعنى معظم التعبيرات، مشكلتين خطيرتين؛ هما، الفشل في شرح إمكانية المصطلحات غير المرجعية، وعدم القدرة على التعرف على الجمل الوجودية السلبية، لأن الإدراك الحسي يعتبر كاملاً ودقيقاً، لكن التجريد هو أول عملية ذهنية تنتمى لملكة الفهم، التي نستطيع بها الوصول إلى الأفكار المركبة. وقد مَرَّت قرون من الأبحاث والدراسات، بما في ذلك جهود الفلاسفة؛ مثل فيتغشتاين، ومؤخراً تشومسكي، ويظهر الآن كتاب «لعبة اللغة» ليوضح كيف يتعلم الناس التحدث؛ ليس من خلال اكتساب معاني وقواعد ثابتة فقط، ولكن، كما أسلفنا، عن طريق التقاط وإعادة استخدام، وإعادة دمج أجزاء لغوية لا حصر لها بطرق جديدة. من هنا، وبالاعتماد على أمثلة مسلية ومقنعة من جميع أنحاء العالم، يشرح الكتاب كيف تتكيف ذاكرتنا قصيرة العمر مع الطوفان المتسارع من الأصوات، التي هي الكلام اليومي. وتعتمد لعبة كريستيانسن وتشاتر على مجموعة رائعة من الأمثلة لإظهار الطريقة، التي تعمل بها اللغة، وقد شكلت تطورنا وهي ضرورية لمستقبلنا.

فلسفة اللغة

يُستخدم مصطلح «فلسفة اللغة» عادةً للإشارة إلى العمل في مجال الفلسفة التحليلية الأنجلو أمريكية، وجذورها في الفلسفة الألمانية والنمساوية في أوائل القرن العشرين. غير أن لدى العديد من الفلاسفة، خارج هذا التقليد، وجهات

(٢٠) لقد كان لوك فيلسوفاً تجريبياً حسياً ومن أكبر أعمال لوك مقال عن الفهم الإنساني، الذي يشرح فيه نظريته حول الوظائف، التي يؤديها العقل «الذهن» عند التعرف على العالم. واشتهر جون لوك زعيم الحسيين بعبارته المشهورة: «إذا سألك سائل: متى بدأت تفكر؟ فيجب أن تكون الإجابة: عندما بدأت أحس». وقد سلم لوك بعجز العقل البشري وقصوره عن معالجة ما يتجاوز حدوده وإمكانياته وقد وضح ذلك في معظم كتبه ولا سيما كتابه «مقال في الفهم الإنساني»، وكتابه «عن العقل البشري»، وخلاصتهما أن العقيدة السائدة قبل لوك هي أن العقل البشري يشتمل على بعض الأفكار الفطرية الموروثة منذ الولادة دون أن يكتسبها العقل من التجارب، التي تمر به أثناء الحياة ولقد بلغ من رسوخ هذا المذهب في نفوس أنه لم يكن يستهدف حتى لمجرد البحث والجدل.

نظر حول طبيعة اللغة واستخدامها. وأصبحت الحدود بين الفلسفة «التحليلية» و«القارية» أكثر سهولة بمرور الوقت، ولكن معظم الذين يتحدثون عن هذا المجال يجتذبون مجموعة محددة من المؤلفين التقليديين، الذين يصرون على اتباع الطرق المتعارف عليها. مع معرفتنا بأن تاريخ فلسفة اللغة يبدأ في التقليد التحليلي بالتقدم في المنطق وبتوترات داخل الحسابات التقليدية للعقل ومحتوياته في نهاية القرن التاسع عشر. ونتجت ثورة من نوع ما عن هذه التطورات، المعروفة غالباً باسم «المنعطف اللغوي» في الفلسفة. ومع ذلك، واجهت برامجها المبكرة صعوبات خطيرة بحلول منتصف القرن العشرين، وحدثت تغييرات كبيرة في الاتجاه نتيجة لذلك.

لقد حدث الكثير من الإعداد لما يسمى بـ «المنعطف اللغوي» في الفلسفة الأنجلو أمريكية في منتصف القرن التاسع عشر، إذ تحول الانتباه إلى اللغة، واعتبر الكثيرون أنها نقطة محورية في فهم الإيمان وتمثيل العالم، وصار يُنظر إليها على أنها «وسيط للمفاهيم»، كما يرى ويلفريد سيلارز.[٢١] وفي وقت لاحق، طور المثاليون العاملون في أعقاب «إيمانويل كانط» حسابات «متعالية» أكثر تعقيداً لظروف إمكانية التجربة، وقد أثار هذا ردود فعل قوية من الفلاسفة الواقعيين والمتعاطفين مع العلوم الطبيعية.[٢٢] وحقق العلماء أيضاً تقدماً، في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، في وصف الوظائف المعرفية، مثل إنتاج

(٢١) صاغ ويلفريد ستوكر سيلارز (٢٠ مايو ١٩١٢ - ٢ يوليو ١٩٨٩)، الذي كان فيلسوفاً أمريكياً ومطوراً بارزاً للواقعية النقدية، مصطلحات معينة شائعة في الفلسفة، مثل «فضاء الأسباب». يشير هذا المصطلح إلى شيئين، هما: وصفه الشبكة المفاهيمية والسلوكية للغة، التي يستخدمها البشر للتغلب بذكاء على عالمهم، وإشارته إلى حقيقة أن الحديث عن الأسباب، والتبرير المعرفي، والنية ليس هو نفسه، ولا يمكن بالضرورة ربطه، بالحديث عن الأسباب والآثار، بمعنى أن العلوم الفيزيائية تتحدث عنها. وقد أحدث بذلك ثورة في كل من المحتوى ومنهج الفلسفة في الولايات المتحدة.

(٢٢) اهتم فيلسوف الأنوار إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤)، بالشأن الديني في كتاب، أو العقلية المتعالية على الزمان والمكان، لا الشعائر التاريخية. لكن المصدر الأساس لأفكار هذه الفلسفة كان كتاب«نقد العقل المحض»، الذي صدر عام ١٧٨١م.

الكلام والفهم، كظواهر طبيعية، بما في ذلك اكتشافهم لمنطقة «بروكا» ومنطقة «فيرنيك»، وهما مركزان عصبيان للنشاط اللغوي.[٢٣]

بيد أن «جون ستيوارت ميل» أعاد العمل حول هذا الوقت تنشيط التجريبية البريطانية، التي تضمنت مقاربة للغة تتبعت معاني الكلمات الفردية للأشياء، التي أشاروا إليها.[٢٤] وأدت تجريبية «ميل» إلى الاعتقاد بأنه لكي يكون للمعنى أية أهمية لفكرنا وفهمنا، يجب علينا شرحه من حيث خبرتنا. وبالتالي، يجب فهم المعنى في نهاية المطاف من حيث الكلمات، التي تمثل مجموعات من انطباعات عن هذا المعنى. وقطعاً لا يشارك جميع المهتمين باللغة ميول «ميل» التجريبية، على الرغم من أن معظمهم شاركوه في إحساسه بأن الدلالة، بدلاً من الصفة، يجب أن تكون في مركز تفسير المعنى. وتُشير الكلمة إلى شيء ما من خلال الوقوف عليه، كما يرمز اسم «بالتيمور» إلى مدينة معينة على الساحل الشرقي لأمريكا؛ وتُشير الكلمة ضمنياً إلى شيءٍ ما عندما «تدل على سمة» بمصطلحات «ميل»، حيث تشير كلمة «أستاذ» عموماً إلى خبير في مجال أكاديمي، وشخص لديه أنواع معينة من السلطة المؤسسية. بالنسبة لمعظم التعبيرات، اعتقد الفلاسفة أن فهم معانيها يعني معرفة ما تمثله، لأننا غالباً ما نفكر في الأسماء الصحيحة، التي تعمل ببساطة كتسميات للأشياء، والتي تشير إليها. فقد مال «ميل» أيضاً إلى استخدام «المعنى» في الحديث عن الدلالة، وقد يكون لديه تحفظات على القول إن أسماء العَلَم لها «معانٍ»، على الرغم من أن هذا لا ينفي أنها تشير إلى أشياء.

---

(٢٣) تُنسب منطقة«فيرينك» إلى الدكتور كارل فيرنيك وهو طبيب أعصاب ونفسي ألماني. وقد افترض وجود صلة بين القسم الخلفي الأيسر من التلفيف الصدغي العلوي والقدرة على فهم الكلمات والمقاطع التي ترتبط بالصور الحسية والحركية للكلمات المنطوقة. وتُنسب منطقة«بروكا» إلى مكتشفها عالم الأعصاب الدكتور بول بروكا، وتوجد في مقدمة الفص الأيسر من الدماغ في الفص الجبهي، وهي المسؤولة عن تنفيذ عملية الكلام حركياً، وتشكيل وبناء الكلمات والجمل، وعن استخدام صيغة الجمع ووصف الأفعال واختيار الكلمات الوظيفية والسياق اللغوي كحروف الجر والعطف، وتقترب من، وتشترك مع، المناطق المسؤولة عن التحكم بحركة الجسم.

(٢٤) رغم أن جون ستيوارت ميل اقتصادي بحكم تخصصه إلا أنه فيلسوف ومفكر؛ يعد من رموز المذهب النفعي وأحد أقطاب الفلسفة التجريبية، وأثرها في فلسفة اللغة.

مفهوم اللغة

لقد أكد فيتغنشتاين، من خلال التحليل المنطقي، أنه يمكننا الوصول إلى مفهوم للغة على أنها تتكون من افتراضات أولية مرتبطة بالعناصر المألوفة الآن لمنطق الدرجة الأولى، أي أن أية جملة لها معنى يمكن أن يتم تقديمها به بشكل واضح في مثل هذا النظام، وأية جملة لا تخضع لمثل هذا التحليل لن يكون لها معنى على الإطلاق. وكل ما يمكن التفكير فيه على الإطلاق يمكن التفكير فيه بوضوح، وكل ما يمكن قوله، يمكن أن يقال بوضوح. وادعاء فيتغنشتاين هنا ليس لأننا لا نستطيع تجميع الكلمات معاً بطرق غير واضحة؛ في الواقع، نحن نفعل ذلك طوال الوقت. بل بالأحرى، عند قيامنا بذلك، فإننا لا نعبر عن أي شيء له معنى. فقد يحظى ما نقوله بإيماءات موافقة من زملائنا المتحدثين، وقد نفهم شيئاً مهماً، لكن ما نقوله لا ينقل أي شيء ذي معنى. ويعكس هذا جزئياً وجهة نظر فيتغنشتاين المبكرة بأن الافتراضات «تصور» العالم، وهذا لا يعني أن نقشاً مكتوباً، أو نطقاً لفظياً لجملة يشبه بصرياً تلك الحالة، التي تعبر عنها. بدلاً من ذلك، يشبه شكل الافتراض صورة بعض الحقائق في العالم، وما كان مطلوباً لفهم هذا كصورة للعالم هو فقط ما كان مطلوباً في حالة الصور الفعلية، أي أنه تنسيق للعناصر في الصورة مع الأشياء الموجودة خارجها، وستكون الحقائق المنطقية صحيحة بفضل العلاقات بين افتراضاتها. وإذ يمكننا القيام بذلك الآن، كانت اللغة توضح شيئاً ما بجلاء؛ حيث لم نتمكن من تصوره قبل افتراضه، على الرغم من بذلنا قصارى جهدنا، وكأن الكلمات كانت لا تقول أي شيء على الإطلاق. ومع ذلك، فإن هذا لا يعني أن كل شيء عن المعنى وفهمنا للعالم لم يكن مسألة تعريف واضح، أو أي شيء يمكننا قوله.

والمعروف أن فيتغنشتاين اعتنق أيضاً عدداً من الآراء في نهاية «المراجعات» على الانتماء والإرادة والأخلاق وما يمكن أن يقال عنها؛ لكن تظل هذه بعضاً من أصعب نقاط التفسير في عمله. إذ اعتبر فيتغنشتاين نفسه أنه قد وضع حدوداً لما يمكن أن تقوله الفلسفة، وأغلق الرسالة دون تعليق إضافي بقوله، «بما أننا لا نستطيع التحدث، يجب أن نبقى صامتين». ربما قاد هذا الصمت الوضعيين إلى أن نظرية التحقق من المعنى ستكون فيها الجمل التحليلية

صحيحة بحكم معاني مصطلحاتها، في حين أن جميع الجمل التركيبية يجب أن تعترف بنوع من معايير التحقق التجريبية، وأن أية جملة لا يمكن التحقق منها بواحدة، أو بأخرى من هذه الوسيلة تعتبر بلا معنى. وفي عالم الواقع، يستبعد الوضعيون هذا الادعاءات ليس لأنها ذات أهمية صوفية، أو باطنية، ولكن أيضاً لأنها تفتح مجالات واسعة من علم الكلام في الأخلاق والميتافيزيقا، كما مارسها العديد من الفلاسفة وأهل العرفان. لذلك، واجهت نظرية المعنى التحققي صعوبة كبيرة على الفور تقريباً، وغالباً بسبب الاعتراضات بين الوضعيين. على سبيل المثال، فإن أية جملة تُشير إلى النظرية نفسها لم تكن تحليلية ولا تخضع للتحقق التجريبي، فهي إما أن تدحض نفسها بنفسها، أو لا معنى لها.

ففي كتابه «تحقيقات فلسفية»،[٢٥] الذي نُشر عام ١٩٥٣ بعد وفاته، قطع فيتغنشتاين عن بعض التطلعات النظرية للفلسفة التحليلية في النصف الأول من القرن. إذ سعى فلاسفة اللغة التحليليون جاهدين إلى إيجاد أنظمة منطقية أنيقة، ومن خلال التحقيقات، اقترح أن اللغة عبارة عن مجموعة متنوعة وزئبقية من «الألعاب اللغوية»، وأنشطة اجتماعية موجهة نحو الهدف، الذي كانت الكلمات، التي استخدمت من أجله مجرد أدوات كثيرة لإنجاز ذات الأشياء، بدلاً من المكونات الثابتة والأبدية في بنية منطقية. فقد كان التمثيل والدلالة والتصوير بعض الأهداف، التي قد نحققها في لعب لعبة لغوية، لكنها بالكاد كانت الأهداف الوحيدة. وأدى هذا التحول في فلسفة فيتغنشتاين إلى اهتمام جديد بالأبعاد «البراغماتية» لاستخدام اللغة. لذلك، فإن الحديث عن الأهمية البراغماتية للتعبير بهذا المعنى هو النظر في الكيفية، التي يمكن أن يتجلى بها الإدراك في الأفعال، أو في توجيه الأفعال، وبالتالي، تحويل انتباهنا

(٢٥) شر الكتاب بعد وفاته باللغة الألمانية في عام ١٩٥٣، وباللغة الإنجليزية في عام ١٩٥٩، وصدر بالعربية عن المنظمة العربية للترجمة، في ١ أبريل ٢٠٠٧. وناقش فيتغنشتاين العديد من المشكلات والألغاز في مجالات علم الدلالات، والمنطق، وفلسفة الرياضيات، وفلسفة علم النفس، وفلسفة الفعل، وفلسفة العقل، ويطرح وجهة النظر القائلة بأن التشويش المفاهيمي المحيط باللغة، الذي يأتي من الاستخدام هو أصل معظم المشاكل الفلسفية.

إلى الاستخدام بدلاً من المفاهيم المجردة للشكل المنطقي الشائعة في الأشكال السابقة من الفلسفة التحليلية.

هكذا، إذا كانت اللغة خاصة، فإن الطريقة الوحيدة لتأسيس المعاني ستكون من خلال شكل من أشكال التعبير الشخصي. على سبيل المثال، التركيز على تجارب المرء والقول بشكل خاص، «سأطلق على هذا الإحساس اسم «ألم». ولكن لتحديد معنى الإشارة، يجب أن يثير الأمر شيئاً ما لدى المتحدث تدفعه لاستخدام هذه الإشارة بشكل صحيح في المستقبل، وإلا فلن يكون للتعبير المفترض أية قيمة. بافتراض أننا بدأنا بمثل هذه الحلقة الخاصة، فما الذي يمكن أن يحدث في الاستخدامات اللاحقة للمصطلح؟ لا يمكننا أن نقول ببساطة إنه يشعر بالشيء نفسه بالنسبة لنا، كما فعلنا من قبل، أو يضربنا نحن بنفس الطريقة، لأن هذه الأنواع من الانطباعات شائعة حتى عندما نرتكب أخطاء، وبالتالي لا يمكن أن تشكل دليل صحة. قد يقول المرء إن على الشخص أن يتذكر فقط كيف استخدم نفس الطريقة في الماضي، لكن هذا لا يزال يتركنا نتساءل. ماذا يتذكر المرء في هذه الحالة؟ إلى أن نقول كيف يمكن لحلقة خاصة أن تؤسس نمطاً للاستخدام الصحيح، إذ إن الذاكرة تكون بجانب هذه النقطة. للتخفيف من هذه الصعوبة، وجه فيتغنشتاين انتباهه إلى مجال الظواهر العامة، واقترح أن أولئك الذين يقومون بنفس التحركات، وفقاً للقواعد، يتشاركون في «شكل من أشكال الحياة»، التي اعتبرها معظمهم ثقافة المرء المنتمي، أو مجموع الممارسات الاجتماعية، والتي يشارك فيها الفرد مع الجماعة.

مسك الختام

سيجد القارئ، في هذا الكتاب، منظوراً ثورياً قد يُغير، تقريباً، أشياء كثيرة، اعتقدنا أننا نعرفها عن اللغة، ويرى كيف تكشف لعبة «الحزورات»، إذ يتم حظر الاتصال اللغوي، بشكل متناقض عن رؤى عميقة حول كيفية عمل اللغة. ويتضح كيف يكون الدماغ قادراً على ارتجال «الحركات» اللغوية بمعدل سريع مذهل، وكيف نخلق المعنى «في الوقت الحالي»، وكيف تنبثق الأنماط الغنية والمعقدة في اللغة من تراكم طبقات الألعاب السابقة بدلاً من ذلك. من مخطط

وراثي فطري، أو من غريزة اللغة، وكيف أن اللغات في تغير مستمر، وكيف يمكن للأشخاص الذين ليس لديهم لغة مشتركة أن يخلقوا لغة من نقطة الصفر بسرعة مفاجئة، ولماذا من المحتمل أن تكون اللغة قد أعيد اختراعها بشكل مستقل مرات لا تحصى، ويمكن أن تتطور الألعاب اللغوية في اتجاهات عديدة، مما يؤدي إلى التنوع المذهل للغات في جميع أنحاء العالم، ولا يعد إنشاء اللغة مهماً في حد ذاته فحسب، بل إنه يغير طبيعة التطور أيضاً، إنه ما يجعل الثقافة الإنسانية ممكنة بقوانينها وأديانها وفنونها وعلومها واقتصادها وسياستها.

من هذا المنظور، فإن تعلم اللغة يشبه تعلم أن تكون جزءاً من سلسلة من ألعاب «الحزورات»، التي لا تنتهي على مستوى المجتمع، إذ تعتمد كل لعبة جديدة على تلك، التي مرت من قبل. ولا يبدأ كل جيل جديد من متعلمي اللغة من الصفر، ولكنه ينضم إلى تقليد من الألعاب اللغوية، التي كانت قيد التقدم من قبل أن يتذكرها أي شخص. ومن أجل الانضمام إلى اللعبة، يحتاج الطفل، أو الشخص البالغ، الذي يتعلم لغة ثانية، إلى الدخول في لعبة لغوية جديدة، والبدء في اللعب بشروط مختلفة. مما يعني أن هذه هي الطريقة المُثلى، التي يتقنون بها تدريجياً تحديات تواصلية محددة، واحدة تلو الأخرى. إذ إن تعلم اللغة هو معرفة أن تصبح لاعباً ماهراً في «الحزورات». لذلك، فإن لعب الألعاب اللغوية بنجاح، يحتاج إلى أن يكون المنخرطين فيها ماهرين في التعامل بشكل عفوي وتلقائي مع التفاعلات البشرية اليومية، وبهذا لن يكونوا بحاجة إلى تعلم نظام تجريدي للأنماط النحوية، لأنهم ليسوا بحاجة لِتَذَكُّر قواعد لغتهم تماماً، كما يلعبون الكرة دون معرفة قوانين الفيزياء، أو يغنون دون معرفة نظرية الموسيقى، وبهذا المعنى الحقيقي والمهم للغاية، فنحن نتحدث ونفعل ذلك بمهارة وفعالية، من دون معرفة لغتنا على الإطلاق.

إن كل هذا هو ما يحاول كريستيانسن وتشاتر تِبْيَنَاهُ، وكما أوردنا في البدء، فهذا كتاب رائع حقاً، ويجب أن يقرأه كل شخص مُحِبٌ للغة، أو عاشق للكلمة، أو مولَعٌ بأساطير البدايات. وبالتالي، أي مهتم باللسانيات، إذ قام المؤلفان بعمل جاد باستعارة لعبة «الحزورات»، واستخدامها لشرح الاختلافات وأوجه التشابه،

فيما كانوا يصفونه بنظام يعرفه الكثير مِنَّا جيداً، ويمكن أن يرتبط به بسهولة شديدة. فكل من يحب تعلم اللغات، سيكون متشوقاً لمعرفة ما يمكن أن يجده في كتاب «لعبة اللغة»، لأنه بشكل عام، سيمنحه قراءة ممتعة ومسلية، ويقدم له عدداً من النظريات والأمثلة المثيرة للاهتمام. وأعتقد أن عرض هذه النظريات و«الحزورات» كان مناسباً بشكل خاص، وكانت هناك بعض المعلومات المفيدة؛ بين الصفحات، حول كيفية عمل الجوانب المختلفة للمفردات والقواعد، بلغات متنوعة حول العالم. مع ملاحظة، لم تفت على آخرين ممن طالعوا الكتاب، أن قسماً، أو قسمين، منه قد اتسما بشيء من الجفاف، ورتابة هنا وهناك، ولكن بالنسبة للجزء الأكبر من هذا السِفْر القيم، يمكنني القول باطمئنان إن قراءته والاستمتاع به من قبل اللغويين والأشخاص العاديين على حد سواء، ستكون مُجدِية، وذات نفع كبير، نظراً لأن المفاهيم المقدمة فيه شُرِحَت جيداً، وعُرِضَت بشكل عام بمصطلحات سهلة، فإذا كنت معنياً بتاريخ اللغة وكيف تعلمناها، ونتعلمها، فستجد؛ بلا شك، كتاب «لعبة اللغة» مُفيداً وجديراً بالاهتمام.

لهذا، ولغيره، وقع كتاب: «لعبة اللغة: كيف خلق الارتجال اللغة وغيّر العالم»، لمؤلفيه مورتن كريستيانسن ونيك تشاتر، في نفسي موقعاً حسناً، لما قدماه من قراءة رائعة، تغطي الطرق المختلفة، التي تتطور بها اللغة، والعوامل، التي لعبت دوراً لإظهار هذا التطور. إذ قاما بتوضيح المكان، الذي يجب أن يكون فيه المفهوم جيداً، وكيف يُصاغ ويُلفَظ بهدف إظهار كيفية عمل كل نقطة، لا سيما عندما تنظر إلى كيف يمكن لقرار عاطفي بسيط أن يحدث فرقاً كبيراً بين ما تراه وما تشعر به أنك تراه. وإذا تفحصنا هذا الكتاب بنظرة متأمِّلَة، فإن تلخيص جميع النقاط يُسَهِّل الوصول إليها دون فقد السياق، والذي كان بالنسبة لكتاب عن اللغة هو كل ما كان يجب أن يكون عليه. إنه يغطي طبيعة كيفية إضاءة اللغة للمعنى، وكيف يمكن تشويهه بعدم إحسانها. فالإشارة إلى أن الإبداع المرتجل للغة البشرية هو، الذي يجعل التواصل الحقيقي بين البشر من الصعب تقليده بواسطة الذكاء الاصطناعي. وهذا بدوره له آثار عميقة على ما إذا كانت أجهزة الكمبيوتر ستتمكن حقاً من التفوق علينا في المستقبل القريب، أم لا.

في المتخيَّل والمتخيَّل الديني

حنان البوعمري*

ملخَّص الدراسة

تتناول هذه الدراسة مفهوم المتخيَّل، الذي ظهرت دراسات عربية متعددة حوله في الآونة الأخيرة. ما المقصود بالمتخيَّل؟ هل يضيف بُعداً سلبياً إلى الأفكار التي يعتنقها الناس؟ أيمكن الاستغناء عنه؟ بعد جولة على نشوء هذا المفهوم في الغرب مع مفكرين مثل الأمريكي تشارلز تايلور والإيرلندي بنديكت أندرسون واليوناني-الفرنسي كورنيليوس كاستورياديس، سنجد أن المتخيل جزءاً لا يتجزأ من كل مفهوم تتداخل فيه الوقائع مع المعتقدات والأحكام والقيم والمواقف. ومن هذه المفاهيم: المجتمع، الأُمة، القومية، الدين، الحداثة، النهضة، التنوير. وتستعرض الدراسة عدداً من الكتب العربية حول المتخيَّل، والتي تدور عموماً حول التدين الشعبي.

شاعت في الثقافة العربية، خلال السنوات الأخيرة، عبارة «المتخيَّل». وبالرغم من أن المفهوم الذي يطرحه هذا المصطلح ليس جديداً، بل مجاور لما كان أحد أسمائه «النظرة إلى العالم»، إلا أنه حفز عدداً من الباحثين العرب على نشر الدراسات والكتب، وعلى وجه الخصوص في الفكر السياسي والفكر الديني، التي

---

* باحثة مغربية من الدار البيضاء. تحمل الإجازة في الفلسفة من جامعة الحسن الثاني (بن مسيك)، والماستر في فلسفة السياسة والقانون (المحمّدية)، حيث تعمل حالياً على أطروحة الدكتوراه. البحث المنشور هنا مبني على فصل من رسالتها لدرجة الماجستير، وهي بعنوان «المتخيَّل الديني في تمثلات الخطاب السياسي العربي». إلى جانب اهتماماتها الفكرية ومشاركتها في بعض المؤتمرات، تعمل في حقل الإرشاد التربوي.

تناولت المواقف العربية الراهنة من مسائل مثل نظرة العرب إلى الغرب أو الغرب إلى العرب، ومفهوم الأمة والدولة والمجتمع والوطن، والخطاب العربي الديني والسياسي المعاصر، وجوانب من المعتقدات والممارسات الدينية الشعبية في بيئات عربية مختلفة.

في هذه الدراسة سنتناول مفهوم المتخيَّل ونشوءه في الثقافة الغربية ثم في الثقافة العربية، مع نماذج مستفيضة من المتخيَّل الديني في الثقافة العربية التقليدية.

المتخيَّل في النظرة إلى الذات والعالم

القوى النفسية الأُولى التي تظهر لدى المولود البشري هي مجموعة غرائز وأحاسيس غامضة. ولعله لا يدرك، في بداية تجربته، أن هناك عالماً يقوم خارجه. لكن مع تفتُّح هذا الإدراك أسبوعاً بعد أسبوع، يبدأ المولود باستكشاف العالم حوله، بأشخاصه وأشيائه المحدودة، وهو في طَور الاتكال والانفعال. في هذا الطور يُكشَف له العالم ممّن حوله، أي من ذَويه ومربّيه. وتختلف التجربة قليلاً من الطفل الأول في البيت إلى الطفل الثاني، إذ يضيف مَن كان وحيداً جوانب من تجربته إلى مَن جاء تالياً.

هكذا تنشأ التجربة في حياة الإنسان[١]. والتجربة هي كل تفاعُل بين الفرد والعالم. إنها عملية لا تتوقف عند حد، بل تدوم مدى الحياة. فهي لا تحصل مرة واحدة ثم تثبت على حال نهائية، لكنها عملية مستمرة (process) أكثر منها حدثاً سكونياً (event). في هذه العملية التفاعلية المستمرة، تتكوّن لدى الفرد صورة عن العالم، وعن ذاته ضمن العالم ومع الآخرين. هذه الصورة هي ما أشار إليه الفلاسفة بعبارة «النظرة إلى العالم» (Weltanschauung/Worldview). ومنذ بداية تكوينها في حياة الفرد حتى نهاية حياته، لهذه الصورة مصدران: مصدر جماعي وآخر فردي، فالفرد يكوّن آراءه ومواقفه متأثراً بالآخرين، لكنه يأخذها أو يفهمها بطريقته الخاصة، ويضيف إليها عناصر لا من فهمه فحسب بل من أحكامه الخاصة أيضاً.

لكل فرد نظرة إلى العالم[٢]. كل فرد تحت كل سماء، مهما كان جنسه وسنّه ونوع علومه وسعتها ومستواها، حتى وإنْ كان أمّياً، لديه نظرة إلى العالم

تتداخل فيها الأفعال مع ردود الأفعال. قد يكون، في نظرته، متأثراً بالأهل والمربّين والأصدقاء والمنظومة الدينية والنظام السياسي وقادة الأحزاب والزعماء المحليين؛ وربما كان خاضعاً لهم أو رافضاً لمواقفهم أو مسلّطاً آراءه النقدية على آراء الآخرين. وقد يدخل في تكوين نظرته إلى العالم تعميمات مخطئة وصور نمطيّة تنطبق عليها الملاحظات السابقة لنظرة استمدها من الآخرين أو عدلها أو نقدها. هذه النظرة مكوَّنة من ثلاثة عناصر أساسية: المعارف والمواقف والقيم. المعارف هي المعلومات التي يكتسبها الفرد عن الوجود، من نوع الحقائق العلمية الخاضعة للمراقبة والقياس، والفرد يتعلمها من اختباره المستمر للعالم حوله. وتلعب التربية هنا دوراً كبيراً جداً، إذ تَنقل إلى المتعلّم معارف في مختلف مجالات الحياة، وذلك في وقت مختصَر جداً. ولو كان للمتعلم أن يجمع هذه المعلومات الغزيرة في الرياضيات والكيمياء والفيزياء وعلوم الحياة والتاريخ والجغرافيا والآداب بالتجزئة، لما كفاه عمر بأكمله كي يتعلم ما تُعلِّمه إياه المدرسة في سنين قليلة نسبياً. ولا تقف المدرسة عند تعليم المعارف، بل تضيف إليها تعليم المواقف والقيم عبر مواد مثل الآداب والأخلاق والتربية المدنية والأديان والحضارات.

هكذا يكتسب المتعلم ملَكة اتّخاذ مواقف وإصدار أحكام من نوع: جيّد، رديء، صالح، شرّير، محبَّب، كريه، مُوافِق، غير مُوافِق، جميل، قبيح... وهنا يأخذ الاختلاف بين الأفراد طريقه إلى الظهور. ففي أحيان كثيرة تكون المعطيات واحدة، لكن يقف الأفراد منها مواقف مختلفة. وهذا ما نقع عليه دائماً في استطلاعات الرأي والدراسات الاحصائية. فما الذي يجعل الأفراد يتوزّعون إلى فئات في أحكامهم على معطيات معينة؟ لماذا ينتمون، مثلاً، إلى أحزاب سياسية مختلفة؟ لماذا يتوزّعون في مناصَرَتهم للاعبين الرياضيين في الفرَق المتنوعة، ويفاضلون ضمن الفريق الواحد بين لاعب وآخر؟ الجواب عن هذه الأسئلة هو «المتخيَّل». الأفراد يبنون مواقفهم ومفاضلاتهم على أحكام قيمية تجعلهم يتوزّعون إلى فئات بدل أن يَكونوا فريقاً واحداً. لو كانت أُسس الأحكام علمية أو موضوعية، لما كان هذا الاختلاف، بل لوقف الكل موقفاً واحداً. والواقع أن

لكل فئة، ولكل فرد ضمن فئة معينة، نظرة إلى العالم لا تكوّنها المعارف فقط، بل تكوّنها، إلى حد أبعد، المواقف والأحكام والقيم. وفي علم النفس المختص بالشخصية مبدأ يذهب إلى أن كل شخص مثل كل شخص آخر، ومثل بعض الأشخاص، ومثل لا أحد سواه[٣].

ما سميناه نظرة إلى العالم يستمد كيانه الأول من التجربة. لكن بما أن هذه النظرة أقرب إلى العملية المستمرة منها إلى الحال السكونية، فهي تتحكم بالتجربة وتتعدل في ضوء التجربة. والمرء لا يختبر أشياء قائمة في ذاتها، بل يختبر معاني الأشياء وقيَمها. وهي معانٍ وقيَم ذات مصادر اجتماعية وفردية. تجربة الانسان، إذاً، تجربة معنى وقيمة. قد تكون المعاني والقيم التي يغدقها الفرد على تجاربه مادّيَّة، وقد تكون روحيَّة. حتى إنّ هناك أفراداً كثيرين وقفوا من الحياة وتجاربها موقفاً عبثياً[٤]. ويمكن القول في هؤلاء إنهم – إنْ جاز التعبير – وجدوا المعنى في اللامعنى. وقد كتب الفيلسوف البريطاني ألفرد نورث وايتهيد (١٨٦١-١٩٤٧م)، الذي ولج الفلسفة من باب العلوم والرياضيات وانتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليشغل منصب أُستاذ الفلسفة في جامعة هارفَرد: «إذا شئنا أن نعرف كيف تكون التجربة العارية عن التفسير، فلنسأل حجراً أن يدوِّن سيرته»[٥].

عبارة «المتخيَّل»، لغوياً، اسم مفعول مشتق من فعل «تَخَيَّلَ»، أي تَصَوَّرَ. والخيال عكس الواقع أو الحقيقة. وهناك أيضاً المعنى الفلسفي، وهو مجاوِر للمعنى الأدبي في بعض ما يرمي إليه. فأبطال الفن الروائي والمسرحي هم، على وجه العموم، أبطال خياليّون، بمعنى أنهم من صنع مخيلة الكاتب. ولئن كان الناس، في حياتهم اليومية الواقعية، لا يتكلمون مثل أبطال الرواية والمسرح، إلا أن الشبَه بين هؤلاء الأبطال والناس الذين نصادفهم في حياتنا يبقى كبيراً جداً. والكاتب المسرحي أو الروائي يستمد صفات أبطاله من واقع الحياة. صحيحٌ أنهم ليسوا «واقعيين» (vrai)، لكنهم يشبهون الواقع (vraisemblable). إلا أن في

الأدب، وعلى الخصوص في بعض أنماط الكتابة الشعرية، ما هو خيالي من غير أيّ نسبة واضحة إلى الواقع. ومن الأمثلة الساطعة على هذا النمط ما يسمّى الكتابة «السوريالية». وتشير العبارة (surréalisme) إلى ما هو «فوق الواقع» أو «دون الواقع» أو «وراء الواقع» أو «ما يتجاوز الواقع».

أما مفهوم المتخيَّل الذي يعنينا في هذه الدراسة فهو أقرب إلى المعنى الروائي منه إلى المعنى الشعري السريالي، أو هو جامعٌ للمعنيَين. وفي كتاب بعنوان «المتخيَّلات الاجتماعية الحديثة» (٢٠٠٤)، يصف المؤلف الأمريكي تشارلز تايلور مفهوم «الحداثة» بأنه أهم مسألة حديثة[٦]. لكنه يتساءل: هل هناك حداثة واحدة أم «حداثات»؟ فالحداثة مفهومٌ غربي بدأ يظهر ويتبلور بعد عصر النهضة. ويتابع سؤاله عن الحضارات الأخرى التي حَدَّثَت نفسها، كالحضارة اليابانية: هل يصحّ النظر إليها من زاوية الحداثة الغربية؟ ويجد الجواب في مصطلَح «المتخيَّل». فمفهوم الحداثة لا ينفصل عن مفهوم المتخيَّل. ولا يجوز أن ننتظر من المتخيَّل الجمعي العربي، مثلاً، أن يتطابق كلّياً مع المتخيَّل الجمعي الغربي أو الياباني أو الصيني.

ويذهب تايلور إلى أن المتخيَّل الاجتماعي يتحدد في ضوء فهم الناس لمحيطهم الاجتماعي عن طريق المعتقدات والقصص والأساطير والرموز. ويؤكد نظرته هذه في كتاب آخر بعنوان «عصر علماني» (٢٠٠٧)، يتحرى فيه العلمانية كما تمارسها المجتمعات الغربية اليوم[٧]. ويقول إن ما نسميه «المجتمع» ليس كياناً موضوعياً يقترب منه الكل بطريقة واحدة. وعنده أن المجتمع هو «كيف نتصور المجتمع»، لا «كيف هو المجتمع في ذاته». وهذه الملاحظة تنطبق على مفاهيم مثل «الوطن» و«الأُمة» و«القومية». ويضيف أن المجتمع المعاصر يختلف عن المجتمعات السابقة ليس في مسائل مثل المؤسسات الحديثة وممارسة الديمقراطية واقتصاد السوق والتقدم العلمي والتكنولوجي والمبادئ الخُلقية والسياسية فحسب، بل في طريقة تصوُّرنا العالم، أي في المتخيَّل الاجتماعي.

ومن الذين كتبوا عن مفهوم المتخيَّل المفكر السياسي الإيرلندي بنديكت أندرسون (١٩٣٦-٢٠١٥) في كتابه «الجماعات المتخيَّلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها» (١٩٨٣)[٨]. وعنده أن القومية فكرة حديثة، بالرغم من اعتقاد كثيرين حول العالم أن الأُمم التي ينتمون إليها مُوغلة في القِدَم وأبدية، مع شعورهم أنهم على استعداد للموت من أجلها. وأَوضَحَ أن هذه الفكرة الغامضة، أي القومية، قَوِيَت بفعل الرأسمالية ووسائل الإعلام التي أقدَمَت على تمويلها. إلا أن الأُمم، كما قال: «ليست وهمية لكونها متخيَّلة؛ لكنها قائمة على تصورات كثيرة متشابكة ومتباينة من فئة إلى أُخرى داخل الأُمة نفسها». ونجد في التصورات تفسيراً لماذا يُقتَل الناس ويَقتلون في سبيل بلدانهم. وتساهم وسائل الإعلام، حسب أندرسون، مساهمة كبيرة في نسج هذه الصوَر وتوجيه خطابها إلى الجمهور، الذي تختار كل فئة منه ما يناسبها من صُوَر. أما دَور الرأسمالية في توسيع مساحة المتخيَّل فهو في تمويلها دُور النشر ووسائل الإعلام. وتشتد التصورات مع انتقال الاجتماع البشري من القرية إلى تجمُّعات أكبر، حيث يلعب المتخيَّل دوراً أكبر لأن الناس لا يعرفون بعضهم بعضاً. وقد بدأ الوعي القومي في الولايات المتحدة وجنوب القارة الأمريكية بعد التحرر من الاستعمار، ومن هناك امتدّ نحو أُوروبا ثم شملَ مستعمراتها في أفريقيا وآسيا.

ويُعزَى إلى المفكر اليوناني-الفرنسي كورنيليوس كاستورياديس (١٩٢٢-١٩٩٧)، الذي انتقل من أثينا إلى باريس عام ١٩٤٥ حيث بدأ العمل، عام ١٩٦٧، مع بول ريكور على أُطروحة دكتوراه بعنوان «التأسيسات التخيلية للتاريخية الاجتماعية»، إرساء مفهوم المتخيَّل الجمعي[٩]. وفي كتابه حول مؤسسة المجتمع المتخيَّلَة، أو «تأسيس المجتمع تخيُّلياً» (١٩٧٥)، حدد المتخيَّل بأنه التصورات التي تُضاف إلى الشيء فتجعلنا نراه على غير ما هو في ذاته[١٠]. ورأى أن التغيير الاجتماعي يَحدث بناءً على تصورات تنسجها التخيلية الاجتماعية والخيال الراديكالي الفردي. والمجتمع نفسه عالَم من الصور المتخيَّلة ذات الدلالة. وهذه التركيبة أو التوليفة من الدلالات المتخيَّلة تمنح كل مجتمع ماهيته وتجعله مختلفاً

عن سواه من المجتمعات لاختلاف الدلالات في ما بينها. ويوضح كاستورياديس أن التصورات والدلالات التي تكوِّن مجتمعاً ما ليست توليفة مستقرة على حال ثابتة، لكنها خاضعة للتبدل وفق عوامل وظروف.

هكذا رأَينا أن المتخيَّل يشير إلى كيانٍ ما، ليس كما هو في «الواقع»، بل كما ننظر إليه. والكيانات الخاضعة أكثر من سواها للتصورات هي الأفكار المجرَّدة أو المفاهيم، كالصداقة والعداوة، الحب والبغض، الولاء وعدم الولاء. هنا يلعب التحيُّز دَوراً كبيراً، إذ ما يحبه أو مَن يحبه المرء ليس الآخر كما هو في ذاته، بل الآخر كما يتراءى له، أي الآخر المتخيَّل. لذلك تناولَت النظريات والدراسات عن المتخيَّل كيانات من نوع: القومية، المجتمع، الوطن، الأُمة، الحضارة، الانسانية، الحداثة، النهضة، التقدم، التنوير. والدين - وهو موضوع بحثنا - من أبرز الكيانات التي أوسعَتها نظريات المتخيَّل مراقبةً وجاءت بتعميمات حولها.

كثيرون كتبوا عن المتخيَّل الديني باعتبار الدين حقلاً واسعاً جداً لإعمال الخيال، بدءاً من مفهوم النبوة والنصوص المقدسة، مروراً بالتفسيرات الكثيرة التي كُتبَت حول هذه النصوص، ووصولاً إلى تصورات الأديان حول الحياة الثانية والجنّة والجحيم والملائكة والشياطين والجنّ وسِيَر الأنبياء والقديسين أو الأولياء، وتفسير الظواهر الطبيعية مثل الخسوف والكسوف، و«الدين الشعبي» الذي يتجلى على وجه الخصوص في الأعياد والاحتفالات وتذكُّر الموتى بعد أوقات محددة من وفاتهم، خصوصاً في اليوم الأربعين الذي نجده في عدد من الأديان، ونجاسة المرأة الحائض خلال دورتها الشهرية ومنعها من ممارسة بعض الشعائر في اليهودية والمسيحية والإسلام وسواها من الأديان. ومن الطبيعي ألا تكون كل الكتابات حول المتخيَّل الديني ودّيةً في نظرتها إلى الدين.

أحد هذه الكتب يحمل عنوان «المتخيَّل الديني وعمل الدماغ» (٢٠٠٨) للباحث الفرنسي فرنسوا لو بواتو (François Le Boiteux). العنوان الفرعي لهذا الكتاب هو: «مكان الأساطير الدينية ودلالتها». ويذهب المؤلف إلى أن الدين

مجموعة من المنظومات المعقَّدَة، بين سرديّات ورموز وقصص ومواعظ، ابتكرها الانسان لتفسير العالم حوله ومواجهة قلقه الوجودي، ثم راح يحاول تبريرها بالفكر والمنطق[١١]. وتصوُّر الألوهة قديم جداً ومستمر؛ إذ نجده في حضارة ما بين النهرين في القرن العاشر قبل الميلاد، مروراً بالحضارة الإغريقية في القرن الخامس قبل الميلاد، وما تلاها من حضارات وصولاً إلى أديان القرن الحادي والعشرين. ويحدد المؤلف وظيفة الدين في حاجة الإنسان إلى فهم المسائل الوجودية الكبرى مثل أصل الحياة ومعناها والبقاء بعد الموت، بهدَف التكيُّف مع عالمه. من هنا ابتكر قوى متعالية، وجبارة، وغير منظورة تهيمن على العالم المادّي المنظور وتسيّره. في هذا التناظُر الأزلي بين الروحانية والعقلانية، يؤدي الإيمان دوراً رئيسياً. والإيمان هو اعتقاد حقيقة ما نؤمن به من غير أن نستطيع برهانه. إلا أن الإيمان الديني، كما يقول المؤلف، خاضع للفحص العقلي. والعلم يعيننا على أن نتحرّى طبيعة العقل البشري. ويشير تَشابُه الرموز في كل الأديان، ومنها فكرة الإنسان/الإله والإله/الإنسان وفكرة موت الإله وقيامته، إلى وحدة الوظائف الدماغية العصبية بين الناس. وتُذَكِّرُنا فكرة هذا الكتاب المحوَرية بمفكّرَين على الأقل من عصر التنوير الفرنسي، هما جوليان أُوفراي دو لا ميتري (١٧٠٩-١٧٥١) وبيير جورج كابانيس (١٧٥٧-١٨٠٨)، وجدا، بحكم عملهما في الطبّ، أن كل أفعال الإنسان وأفكاره تجد تفسيرها في كيمياء الدماغ والأعصاب[١٢].

هذا التشابُه في المتخيَّل الديني لاحظه الباحث الروماني سيلفيو لوباسكو (Silviu Lupascu) في كتاب كان أصلاً أُطروحة دكتوراه في الدراسات الدينية تعود إلى العام ٢٠٠٥. وقد أقام مقارنة بين الأديان الإبراهيمية، أي اليهودية والمسيحية والإسلام، فوجد أن عقائدها وطقوسها وأفكارها تتلاقى في تصوراتها، حيث تذوب الأنا الفردية في الأنا الإلهية. وتتداخل في دراسة المتخيَّل الديني عند الساميّين مناهج علمية مختلفة، أهمها تاريخ الأديان واللاهوت وفلسفة الدين والأنثروبولوجيا وتاريخ الحضارة وتاريخ الأفكار[١٣].

وفي نظرة ودّية حيال المتخيَّل، بما فيه المتخيَّل الديني، يقول عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي موريس غودلييه (Godelier) في كتابه «المتخيَّل والخيالي والرمزي» (٢٠١٥) إن كل خيالي هو متخيَّل، لكن ليس كل متخيَّل خيالياً[١٤]. والخيال ضروري لِجَعل المستحيل ممكناً، حتى في نطاق العلوم. فالقفزات والابتكارات العلمية الكبرى نشأت من فرضيّات جريئة تَمَّ تأكيدها. وفي نطاق الأُسطورة والدين، يبتكر المؤمنون تصوُّرات وعوالم يختبرونها كما لو كانت حقيقية، بل أكثر واقعيةً، بالنسبة إليهم، مما يسمى حقيقياً. ويتحرى المؤلف العلاقة الوثيقة بين الحقيقي والرمزي أو المجازي. وفي حين ذهب عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي كلود ليفي ستراوس (١٩٠٨-٢٠٠٩) إلى تصنيف الحقيقي والخيالي والرمزي في ثلاث مراتب مستقلة، ففي رأي غودلييه أنه ليس للحقيقي كيان مستقل عن المتخيَّل والرمزي. فالمقدَّس في الدين، مثل الطقوس وبعض الأشياء والأمكنة، تشهد على حقيقة الأُلوهة لدى المؤمنين، الذين يعبّرون عن الأُلوهة بواسطة الرموز. وما المتخيَّل الديني سوى منظومة رمزية للتعبير عن الأُلوهة. وعن هذا المتخيَّل نشأت جماعات وكتابات وفنون من عمارة ورسم وإنشاد. وما نسميه هويّة جماعة ما، قومية أو دينية أو غير ذلك، مكوَّن، إلى حد بعيد جداً من منظومات متخيَّلة.

الثقافة العربية

دخل مصطلح «المتخيَّل الديني»، و«المتخيَّل» عموماً، إلى الثقافة العربية المعاصرة عن طريق الثقافة الغربية والترجمة. ومن الكتب الأُولى في هذا المجال واحد بعنوان «المتخيَّل والتواصل» (١٩٩٣)، سلّطَ مؤلفه، المفكر المغربي محمّد نور الدين أفاية، الضوء على مصطلحات مشتقة من جذر «خَيَلَ»، ومنها «التخييل»، وهو كلام مبايِن للحقيقة، قائم على التضليل. ومنها «التخيُّل»، وهو قائمٌ على التأويل. ومنه «المتخيَّل»، وهو الصوَر التي يأتي بها الخيال أو التخيل التأويلي[١٥].

وفي كتاب بعنوان «ليلة القدر في المتخيَّل الاسلامي» (٢٠٠٧)، لاحظَ المؤلف التونسي بسام الجمل دوراً سلبياً للمتخيَّل. ووجد أن المرويّات حول ليلة القدر

ركّزَت على العناصر الغريبة، العجيبة، الخارقة، على عادة كتب التفسير المشبعة بالمبالغات في الوصف المتخيَّل للملائكة وسِدرة المُنتهى (شجرة العرش الإلهي) والروح وسواها[١٦]. وقد تناقَلَ الرواة هذا المتخيَّل بعيداً عن الحس النقدي وإعمال العقل. وتوقف المؤلف عند وصف ليلة القدر وربط علاماتها بهذه الحواس: فمن حاسة البصر رؤية الشمس بيضاء من دون شعاع، ومن حاسة اللمس مصافحة جبريل للمؤمنين، ومن حاسة السمع أصوات الملائكة، ومن حاسة الذوق شرب ماء البحر الذي يصبح عذباً. زمان هذه الليلة السابع والعشرون من رمضان، وفيها يتقبل الله الأدعية ويغفر الذنوب ويمنح التطهُّر. ولاحَظَ الباحث الجمل، في الفصل الثاني من كتابه، أن المرويّات حول ليلة القدر تغيرت زمانياً، إذ رُوِيَ الخبر الواحد بصيَغ مختلفة، مع اختصارات هنا وإضافات هناك، مما يعني أن تمثُّلات الناس تَعكس «آفاقهم المعرفية في فترة تاريخية معينة». كما لاحظَ أن أكثر الروايات غرابةً ظهرت دفعة واحدة بدءاً من القرن الهجري السادس مع فخر الدين الرازي. وهذا جعله يستنتج أن «المتخيَّل الديني يَعظم شأنه في فترات الانحطاط والوهن الحضاري». هكذا، منذ القرن السادس، ومع تراجُع التفكير النقدي العقلاني أمام ثقافة التقليد والاجترار، تلبّسَت الذهنية الاسلامية بالمتخيَّل حتى صار «الديني» مرادفاً للمتخيَّل.

وفي رأي الجمل أن الثغرة التي يَنفذ منها المؤمنون إلى التخيُّل هي عموميةُ النصِّ الديني ورمزيتُه وغموضُه. وربما أَمكنَنا إضافة ما لاحظه ديفيد هيوم في بحثه الشهير حول الخوارق[١٧]، وما سماه «شواهِد مبنية على التاريخ والتجربة البشرية». ومن هذه الشواهد نزوع الناس بطبيعتهم نحو الأخبار الخارقة القائمة على المبالغة، وانتشار هذه النزعة على وجه الخصوص بين ما يسمّيه «الأُمم الجاهلة والهمجية». وإذا وُجدَت هذه النزعة بين الأُمم المتحضّرة، فلا بد من أنها تحدّرَت إليها من أسلاف بدائيين. وفي مناقشته هذه ضد الخوارق، قَدَّمَ هيوم حجة سمّاها «منطقية»، أي مستقلة عن التجربة، ضد إمكانية حصول

الخوارق أو العجائب أو المعجزات بوصفها خَرقاً للقانون الطبيعي، وهي أن أيّ الدراسة لهذه الظاهرة يجب أن تكون قائمة على المراقبة، الأمر الذي يضعها على الفور في عداد الأحداث الخاضعة للقانون الطبيعي.

وفي كتاب بعنوان «الفردوس والجحيم في المتخيَّل الإسلامي» (٢٠١٤)، انطلقت الباحثة التونسية لطيفة كرعاوي من تَمَثُّل المتخيَّل الإسلامي للعالم الآخر بناءً على عقيدة الثواب والعقاب. وتحرَّت أثر الثقافات الأُخرى، الدينية والشعبية، على هذه التمثُّلات[١٨]. ونَسَبَت صُوَر الفردوس والجحيم إلى «الدين الشعبي»، حيث يَعكس المتخيَّل خصوصية المجتمع الذي ينتمي إليه. ووجدَت أنه يَصعب فهم طبيعة التصورات الإسلامية المتعلقة بالعالم الأُخرَوي ما لم نقارنها بتصورات سابقة لها.

ويؤكد الباحث الجزائري محمّد رمضاني على دَور الدين الشعبي في التصورات الدينية (٢٠١٨)، عبر تحرّيه أثر المتخيَّل الديني في تشكيل الحديث النبوي[١٩]. وهذا «الدين الشعبي» ظاهرة جمعية (جماعية/اجتماعية) ترتبط بالبيئة الحاضنة وتراثها. وهو شاهد على أنه ما من «دين خالِص» أو صارم، وعلى تعايُش «الشعبي» و«التقليدي» أو الرسمي في الدين الواحد. ومن الأمثلة على المنحى الشعبي في الإسلام ما رُوِيَ عن الأولياء، ومنهم «الوليّات الصالحات» جنوب المغرب، والنسّاك والدراويش. ومن الأمثلة أيضاً ما هو متعلق بذكرى عاشوراء لدى الشيعة الاثنَي عَشَرية. ويزدهر هذا المتخيَّل في تشكيل الحديث النبوي على وجه الخصوص.

بناءً على هذه القراءات وما تتبعه من تمثُّل وربط وتأمل، يمكن القول بأنه لا مفرّ من المتخيَّل في نطاق الدين، بدءاً من الإيمان بالأُلوهة، أي بصورة للعالم يَدخل الله في مكوّناتها. ثم يأتي خطاب الله للبشر عن طريق جماعة من الناس ذوي علاقة خاصة بالسماء أو بالأُلوهة، هم الأنبياء أو المُرسَلون الذين يضع الله خطابه للناس على ألسنتهم. هكذا يصبح لدى المؤمنين بدين معيَّن

مجموعة كتابات يعتبرونها كتابات مقدَّسة لأنها وحيُ الله. وبما أن محتوى هذه الكتب ليس مباشراً معظم الأحيان، بل تكتنفه رمزية معقَّدة بحيث يصير، في مَواضع كثيرة، حمّال أوجُه، فهناك حاجة إلى تفسير النصوص المقدسة لتصبح في متناول أتباع الدين المعنيّ. إلا أن التفسيرات لم تكن، أحياناً كثيرة، منسجمة بين المفسرين المختلفين. وهذا أحد العوامل المهمة التي تفسّر نشوء المذاهب داخل الدين الواحد. وما من دين إلا وهو موزَّع على عدد من المذاهب. ثم تأتي القراءات الفردية للنصوص المقدسة وتفاسيرها لتُدخل المتخيَّل الفردي كعنصر ملازم لفهم الدين. فكل ممارِس للطقوس الدينية يُدخِل طرائق فهمه الفردية إلى هذه الممارَسات الجماعية. كما يَفهم النصوص المقدسة وتفاسيرها فهماً يخالطه الكثير من العناصر الخاصة به. وقد تكون له مواقف خاصة من ممارسة جماعته للطقوس وفهمها للإيمان، من غير أن يصرّح بالضرورة عن هذه المواقف، خصوصاً في حال عدم انسجامها تماماً مع الخط الذي تعتبره الجماعة خطاً «قويماً». هذا يعني أن مَصادر المتخيَّل الديني تتوزع على ما هو جمعي وما هو فردي. ويغلب أحد المصدرَين على الآخر في تجربة هذا أو ذاك من أتباع دين معيَّن.

لئن كان عنصرا الدين الأساسيان العقائد والشعائر (الطقوس)، فكل صياغة عقائدية وكل ممارسة طقسية قائمة على مجموعة تصورات أو متخيَّلات. وقد يكون هذا المتخيَّل في مذهب معين ضمن الدين الواحد «مقتصِداً»، فيما نراه في مذهب آخر مغالياً. فإذا أخذنا المذاهب المسيحية مثلاً، لوجدنا مساحة المتخيَّل في المسيحية التقليدية، أي الكاثوليكية والأُرثوذكسية، وهي «المسيحية الشرقية» المنتشرة في اليونان وروسيا وبعض بلدان أُوروبا الشرقية والشرق الأوسط)، أكبر كثيراً منها في البروتستانتية[٢٠]. والواقع أن حركة الإصلاح الديني في الغرب، التي انبثقت منها المذاهب والشيَع البروتستانتية، دعت إلى التخلي عن الكثير من الشكليات الطقسية، خصوصاً رسم الأيقونات وتعليقها على جدران الكنائس، أو الرسم على الجدران مباشرةً[٢١]. وفي خط مشابه منطقياً، قامت الحركة

الوهابية في الحجاز، خلال القرن الثامن عشر، على فكرة العودة إلى ما اعتبرته بساطة الإسلام الأُولى، داعيةً إلى تطهير الإسلام مما طرأَ عليه[٢٢] وفهم القرآن فهماً حرفياً بعيداً، على وجه الخصوص، عمّا أَدخلته حركات مثل الصوفية. ومن الأمثلة في هذا النطاق تكريم الأولياء والحج إلى أضرحتهم ومقاماتهم. وعند استيلاء الوهابيين على مكة عام ١٨٠٦، عمدوا إلى تحطيم أضرحة الأولياء. وفي انتفاضة لاحقة (١٩٢٤) نزعوا الشاهدات عن أضرحة الرسول والصحابة. وأَدخلوا تحظير «الطرب والموسيقى والمجوهرات والأثاث الفخم في المنازل». لكن زيارة مقامات الأولياء ما تزال منتشرة على نطاق واسع في العالم الإسلامي. وهي قائمة على نوع من الإيمان يتميز بالحرارة والحماسة، وبالطبع على نزوع غالبية الناس نحو المغالاة في تصوراتهم الدينية، دليلاً على محاولة تقليص الهوة بين المحدود واللامحدود عن طريق الرموز.

إذا حاولنا وضع لائحة بنماذج عن هذه التصورات الدينية التي يدخل عنصر التضخيم في تكوينها، فهي لائحة طويلة جداً في كل الأديان، وإن اختلفت حدّتها من مذهب إلى آخر. من الأمثلة على المتخيَّل في الإسلام قصة المعراج النبوي، أي رحلة النبي محمّد إلى السماء السابعة ووقوفه عند العرش الإلهي. وليس لهذه القصة من مستنَد قرآني سوى مستهَلّ سورة الإسراء: ﴿**سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَى بِعَبْدِه لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى**﴾، الذي بارَكنا حوله لِنُريه من آياتنا. إنه هو السميع البصير». وسرعان ما تولّى المخيال الديني تحويل هذه الآية إلى رواية، بدأت مع المحدّثين والمفسّرين، وانتقلت إلى أصحاب المخيلة الأدبية مع أشخاص مثل المعرّي وابن العربي وأحمد شوقي، ووجدت طريقها حتى إلى الرسم. هذا نعرفه من كتاب فارسي بعنوان «معراج نامَه»، حققه الباحِث المصري ثروت عكاشة من مخطوط يعود إلى القرن الميلادي الخامس عشر وتؤويه دار الكتب القومية في باريس. وهو يحوي ستّين منمنَمة «تصوِّر الرسول بكامل هيئته المبارَكة، سافِر الوجه وبدون تَورية ... ولعل ما يلفت الأنظار في هذه المنمنمات صورة البُراق (هذا الكائن المهجَّن من جسم فرس

ورأس آدمي) الذي امتطاه الرسول في إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والذي أصبح أحد العناصر الرئيسية في قصة المعراج»[٢٣].

من الأمثلة الأُخرى على المتخيَّل الديني الروح. وفي الإسلام روايات كثيرة عن الروح، معظمُها مبنيّ على أحاديث نبوية، وبعضُها على تفسير آيات قرآنية. وهي تدور على حال الروح بعد مفارقتها الجسد. ولعل «كتاب الروح» للفقيه الحنبلي ابن قَيِّم الجَوزيّة (١٢٩٢-١٣٥٠) جامعٌ للكثير مما سبقه من روايات حول هذا الموضوع[٢٤]. وهو ينطوي على إحدى وعشرين مسألة أساسية مع ما يتفرع منها. وبعض هذه المسائل هي عما إذا كانت الروح تموت بموت الجسد، وعما إذا كانت تلبس صورة الجسد بعد مفارقتها له، وعما إذا كان عذاب القبر يسري على الروح والجسد أم على الروح وحدها، وعما إذا كان سؤال الملاكين مُنكَر ونكير حول صحة العقيدة مختصاً بالمسلمين أم سارياً على كل الموتى، وعما إذا كانت أرواح الموتى تنتفع بأدعية الأحياء، وعما إذا كانت النفس جزءاً من أجزاء البدن أم واحدة والروح، وعن وصف عذاب القبر والحكمة من عدم وصف القرآن لهذا العذاب. ويبدو هذا الكتاب، على غرار سواه من الكتب التي تدور على المتخيَّل الديني، من نوع كتب التعليم الديني التبسيطية القائمة على منطق «لكل سوالٍ جَواب». أما المسألة الأُولى التي استهل بها كتابه فهي عما إذا كان الموتى يعرفون بزيارة الأحياء لقبورهم وسلامهم عليهم.

ومن مرويّات كتاب ابن قيّم الجوزية التي يُسنِدها بأحاديث نبوية أن الميت يَسمع قرع نعال مشيّعيه وهم منصرفون؛ وأنّ الموتى يَعلمون بزوّارهم يوم الجمعة ويوماً قبله ويوماً بعده؛ وأنهم يَظهرون في أحلام بعض عارفيهم ويَنقلون إليهم ما يختبرونه في القبر؛ وأنهم يَعرفون مَن يسلّم عليهم ومَن يدعو لهم؛ وأنهم يَعلمون ما يكون في أهلهم بعدهم. وعما إذا كانت الأرواح تتلاقى وتتزاوَر، يقول مؤلف هذا الكتاب إنّ الأرواح المعذَّبة يشغلها عذابها عن التزاوُر والتلاقي، وإنّ هذا مقصور على الأرواح المنعَّمة التي إذ تتلاقى، تتذاكر حالها في الدنيا وحال أهل الدنيا. ويروي أحاديث تشهد على أن هذا اللقاء هو لقاء أرواح، لأن الأجسام تَبلى

مع الموت. ولقاء الأرواح ليس منحصراً بالأرواح المفارِقة، بل قد تلتقي هذه مع أرواح أحياء. وكأنما كل ما سبق من تصورات عن الروح لا يقيم وزناً لهذه الآية في سورة الإسراء: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا**﴾ (سورة الإسراء [١٧]: ٨٥). وقد اعتمد ابن قيّم التفسيرات التي تذهب إلى أن الروح في الآية هي «روح الغَيب»، مشيرةً إلى الله أو الملائكة (جبريل بالتحديد) أو المسيح ابن مريم. إنها، في النهاية، روح الله لا يعلنها للناس لعدم قدرة عقولهم على الاستيعاب. «وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب. وقد تكلم عنها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم»[٢٥]. لكننا نقرأ في تفسيرات أُخرى أن الروح في الآية هي مبدأ الحياة في الجسم البشري، وأنها من الغَيب الذي لا يعلمه كل العلم سوى الله. من هنا نرى أن ما ورد في الكتاب الذي اعتمدناه هو إلى حد بعيد من نتاج المخيّلة الفردية الجامحة والمخيلة الجمعية المتنقّلة مرويّاتها، كما الشائعات، من لسان إلى لسان، مع حذف هنا وإضافة هناك.

ومن التصورات المتعلقة بالموت زيارة الأضرحة وإقامة تذكارات في أيام محددة تالية للوفاة، وأهمها اليوم الأربعون[٢٦]. وهناك عناصر شَبَه قوية بين الأديان الإبراهيمية في هذا المجال، بل بينها وبين العادات المتحدّرة من أديان الحضارات القديمة التي سبقت الديانة الأقدم بين هذه الثلاث أو عاصرَتها، وهي اليهودية. ومن هذه المعتقدات أن روح الميت تبقى ماكثة في بيتها الأرضي، كما في القبر، أربعين يوماً بعد الوفاة، إلى أن تغادر البيت كلياً بعد تذكار الأربعين. لذلك لا تجوز الاستهانة بإقامة هذا التذكار لانه مرحلة عبور للروح، إذ يتيح للروح أن تستكين في مثواها.

ويلعب المتخيَّل الديني دَوراً كبيراً في سيَر الأولياء (القديسين) و«الكرامات» (الخوارق) المنسوبة إليهم، وهي تَدخل ضمن التحديد الفلسفي لهذه الأحداث على أنها خَرقٌ للقانون الطبيعي. وإذ لن نناقش هذه المسألة هنا ورفْض عدد من الفلاسفة للخوارق، وفي طليعتهم ديفيد هيوم، إلا أننا نكتفي ببعض الروايات الصوفية. «وعندهم أن الأولياء يشكلون مرتبية غير منظورة يقوم عليها نظام

العالم، ويحتل رأسَ هذه المرتبية القطب، وهو (...) يرئس المجامع ويأتي إليه الصوفيون من جميع الأمكنة والأزمنة في لمحة بصر. ويليه الأخيار، فالأبدال أو النواب، فالأبرار، فالأوتاد، فالنقباء أو الرقباء. ويطوف الأوتادُ العالمَ كل ليلة، وإذا غفلوا عن مكان حلّت فيه مصيبة. لكنهم يخبرون القطب، فيوجّه أنظاره إلى ذلك المكان لكي تحلّ عليه النعمة. ونشأت مع الوقت ظاهرة عبادة العامة للأولياء. فأصبح الولي في نظرهم أهم من الشرع، واعتقدوا أنه معصوم عن الخطأ[٢٧]. وشَبَّهَ الشاعر الصوفي الفارسي جلال الدين الرومي يد الولي بيَد الله[٢٨].

تحوّلت صورة الأولياء في مخيلة العامة إلى صورة مركَّبة لهم لا كما هم بل كما تصوّروهم وتناقلوا أخبارهم التي تراكمت عليها الخوارق من فم إلى أخر. ومن الروايات عن الصوفيين واحدة عن «قضيب البان» الذي وهبه الله كرامةَ اتِّخاذ الشكل الذي يريد. وعلى أثر مشادة بينه وبين قاضي الموصل الذي تعقّبه لإلقاء القبض عليه، راح يتبدل أمامه من شكل إلى آخر حتى استقرّ على شكل قاضي شرع. وتذهب الرواية إلى أن قاضي الموصل لم يكتفِ بالعفو عن «قضيب البان»، لكنه صار من أتباعه[٢٩].

في كتاب حول هذا الموضوع بعنوان «كرامات الأولياء» لمؤلفه هبة الله بن الحسن اللالكائي، المتوفَّى عام ١٠٢٧ للميلاد، نقع على سرديّات كثيرة منسوبة إلى أولياء ووليّات، منها: إحضار الطعام والشراب والمال، وإنزال المطر، وشفاء المرضى، والمشي على الماء، وجمْع حافّتَي النهر للعبور، وفتح أبصار العميان، وانبعاث رائحة المسك من تراب القبر، ونموّ الشعر على رأس فتى وُلد أقرع، والتخاطُر بين نفوس المؤمنين. والكتاب مجموعٌ مما «رُوِيَ عن النبي والصحابة والتابعين والخالفين لهم في كرامات أولياء الله تعالى وإظهار الآيات فيهم ليزداد المؤمنون إيماناً والمرتابون بها خساراً»[٣٠]. ومن الروايات أن زائرَين للرسول خرجا من عنده في حلك الليل، فأضاءت عصا أحدهما؛ ولما افترقا أضاءت عصا الآخر. هكذا استطاعا تبيُّن طريقهما وسط الظلام[٣١]. وهناك عدد من

الروايات مثل هذه، مع تبدُّل أسماء الزائرين. وأحياناً نقرأ أن النور ظهر بين أيديهم. ونقرأ عن «ملَك من أهل السماء الرابعة» أنقذ رجلاً من القتل[٣٢]؛ وعن امرأة رفض مضيفُها اليهودي أن يسقيها، «فلما كان آخر الليل دُلّيَ عليها دلوٌ من السماء فشربَت»[٣٣]. وهناك روايات كثيرة عن حضور الطعام والشراب بطريقة خارقة. وعن رابعة العدوية أنها كانت تطبخ واحتاجت بَصَلاً، فحضرَ طائر من السماء رمى لها بَصلة من منقاره[٣٤].

والكتاب عبارة عن سرديات مملّة منسوبة إلى الأولياء. وتتكرر الرواية نفسها، لكن مع تبدُّل اسم الوليّ. وتأتي كل رواية مع إسنادها إلى شهود كثيرين لإضفاء مصداقية عليها. ويحتلّ هذا الإسناد الجزء الأكبر من الكتاب، حتى إذا حذفنا اللوائح الطويلة من أسماء الشهود بات الكتاب ضئيلاً وتحوَّل من «كتاب في الكرامات» إلى «رسالة في الكرامات».

نضيف إلى سرديّات المتخيَّل الديني رواية من الإسلام الشيعي متعلقة بالإمام المهدي. والمهدي ثاني عشر الأئمة الشيعة من آل البيت، وُلد عام ٨٧٠ للميلاد في سامرّاء للإمام الحسن العسكري، وفيها اختفى عام ٩٤١ وهو يصلّي في جامعها. ويسمّي الشيعة الإثنا عَشَريّة هذا الاختفاء «الغيبة الكبرى» للإمام، داعين لعودته بعبارة «عَجَّلَ اللّه فَرَجَه» (عج). ونشأَت مع الوقت روايات كثيرة عن المهدي أو «المهدي المنتظَر»، ونُسِبَت أحاديث كثيرة حوله، رواها الأئمة «عن جدّهم خاتم النبيّين»[٣٥]، كما جاء في كتاب المرجع الشيعي المقيم في مدينة قم الايرانية الشيخ علي الكوراني العاملي (نسبةً إلى جبل عامل في الجنوب اللبناني). وكان المؤلف، بعد صدور الطبعة الأولى من كتابه، صرف خمس سنوات لتأليف «معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام»[٣٦]. ويقول إن اهتمام الشعوب الإسلامية بعقيدة المهدي المنتظر شهد ازدياداً بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران[٣٧]، وإن «عصر الإسلام الموعود»[٣٨] يأتي مع عودة المهدي من غيبته. ويعود الإمام الغائب لإحداث «عملية تغيير شاملة للحياة الإنسانية على وجه الأرض»، من أجل «إنهاء الظلم وبعث الإسلام النبوي الأصيل وإقامة حركته الربّانية العادلة وتعميم نوره على العالم»[٣٩].

ويفصّل الكتاب كيف يكون وضع العالم في عصر الظهور، وعلى الخصوص في منطقة الظهور «التي تشمل اليمن والحجاز وإيران والعراق وبلاد الشام وفلسطين ومصر والمغرب»[٤٠]. وتبدأ حركة الظهور، حسب الروايات، «في مكّة المكرَّمة بعد تمهيدات عالمية وإقليمية»[٤١]، أبرزها إقليمياً قيام دولتين مواليتين للمهدي: في إيران واليمن. وتنتقل علامات الظهور إلى الحجاز بعد اغتيال ملك اسمُه عبد الله وفراغ سدّة الحكم حتى ظهور المهدي المعلَن عنه بعلامات، أعظمها «النداء باسمه في الثالث والعشرين من شهر رمضان»[٤٢]. ويتابع الكتاب «تفاصيل» تقدُّم المهدي من الحجاز إلى العراق، حيث يجعل الكوفة عاصمةً لدولته، ثم إلى القدس. وهناك يفاجئ الغرب بهزيمة اليهود. ويتفاجأ الغرب، بعد إعلانه الحرب على المهدي، «بنزول المسيح عليه السلام من السماء، ويكون نزوله آية للعالم يفرح بها المسلمون والشعوب المسيحية»[٤٣]. ويدخل كثيرون، حسب الرواية، في الإسلام، «ويعلن المسيح موقفه إلى جانب المهدي، ويصلّي خلفه في القدس»[٤٤]. وبعد فتح الغرب ودخوله الإسلام، تحصل وفاة المسيح، فيصلّي عليه الإمام المهدي والمسلمون بعد تكفينه بثوب من نسيج أمه، التي يُدفَن إلى جانبها في القدس.

وينتقل هذا المخيال الديني الخصب إلى توحيد العالم في دولة واحدة تحت راية الإمام المهدي، الذي يتولّى «تحقيق الأهداف الإلهية في شعوب الأرض في المجالات المختلفة»[٤٥]، المادية والمعنوية والثقافية والدينية. ولا تكتفي الرواية بتحقيق الخير والعدل على الأرض، بل تتجاوزها نحو «انفتاح سكان الأرض على سكان الكواكب الأخرى» تحت حكم المهدي، و«انفتاح عالم الغيب على عالم الشهادة. فيأتي أُناسٌ من الجَنّة إلى الأرض ويكونون آية للناس. ويرجع عدد من الأنبياء والأئمّة عليهم السلام إلى الأرض في زمن المهدي عليه السلام وبعده، ويَحكمون إلى ما شاء الله من الزمان»[٤٦]. ويشير الكوراني إلى عدد من الأحاديث الشريفة عن «كواكب كثيرة عامرة بمجتمعات من مخلوقات الله تعالى، من نوع الانسان والملائكة والجنّ»[٤٧]. ويختم كتابه بأن العقيدة الإسلامية في المهدي المنتظَر لا تقتصر على الشيعة، بل يؤيّدها عدد من علماء السنّة.

ويلاحظ د. المختار بنعبدلّاوي أن قراءة الشيخ الكوراني للتاريخ هي قراءة استباقية، يتحدد معها الحاضر في ضوء المستقبل استناداً لا إلى مناهج العلوم الانسانية بل إلى العقيدة كما تتجلى في الأحاديث النبوية وأحاديث الأئمة المعصومين[٤٨]. كما يلحظ وجود هذه النزعة المتعلقة بنهاية الأزمنة في الفكر السنّي أيضاً، باتخاذه عبد السلام ياسين مثلاً. وكما يجد الكوراني في قيام ثورة إيران الإسلامية تمهيداً لهذه النهاية السعيدة، «حيث يكرَّس المستقبل للانتقام من الماضي»[٤٩]، هكذا يجد ياسين في الصحوة الاسلامية حركة إلهيّة، تُفهَم لا بمنطق التاريخ أو العلوم الطبيعية، بل بمنطق «الخَرق وتدخل العناية الإلهية باستمرار»[٥٠].

وإلى ما ذكرناه عن المعراج والروح والخوارق وعودة المهدي المنتَظَر، تضاف روايات كثيرة ومتشعبة تتناول أموراً مثل: سِيَر القديسين أو الأولياء، الأعياد والمناسبات، الجنّة والجحيم مع الدرَكات هنا والدرَجات هناك، الجنّ، القَرينة، مَلَكا القبر مُنكَر ونَكير، طقوس الختان، تفسير خسوف القمر، الصوَر النمطية لدين معيَّن وأتباعه في تصوُّرات أتباع دين آخر. وإذ لن نفصّل الكلام في هذه الأمور، نكتفي بمرور موجز على الأعياد الدينية، كالفطر والأضحى عند المسلمين والميلاد والفصح عند المسيحيين، التي ترافقها احتفالات معينة، مع أنواع من اللباس والطعام والشراب لكل عيد. وفي العالم العربي تتشابه الممارسات في المسيحية والإسلام، وتعكس تقاليد يعود بعضُها إلى الوثنية. وتطلق الطوائف المسيحية الشرقية على الليلة التي تسبق ذكرى عماد عيسى ابن مريم (يسوع) على يد يحيى (يوحنّا) اسم «ليلة القدر»، التي تركع فيها الأشجار تسبيحاً ويتمجد كل ما في الكون ويستجيب الله كل دعاء[٥١]. وهذا يتقاطع مع المعتقدات الإسلامية الشعبية، التي أتَينا على نماذج منها، حول ليلة القدر. حتى ضمن الدين الواحد قد تتنوع الممارسات حسب البيئة. ومن الأمثلة في هذا المجال ممارسات عاشوراء في المغرب[٥٢]، التي تختلف اختلافاً قد يُعَدّ جذرياً عما هي في الإسلام الشيعي وحتى في الإسلام السنّي. وما يفسّر هذا الاختلاف معنى

عاشوراء في كل تراث، وهو معنى يطغى عليه المخيال الشعبي إلى حد بعيد. ويشكّل المخيال الديني الشعبي والتصوّرات الكثيرة التي أنتجها، وهي ما نسميه المتخيَّل، موضوعاً خصباً لدراسات أنثروبولوجية تندرج تحت التاريخ والعادات والتقاليد، وأيضاً لدراسات نفسية واجتماعية تندرج تحت العلوم السلوكية – الاحصائية. لكن تبقى المقاربة الفلسفية لموضوع المتخيَّل، سواءٌ أكان دينياً أم سياسياً أم غير ذلك، هي المقاربة الأساسية لأن الفلسفة معنية بتحديد المفاهيم، وهذا التحديد ركيزة كل العلوم الاجتماعية والإنسانية، لا بل كل المَعارف.

هوامش

١. صالح حسن الداهري، أساسيات علم النفس التربوي ونظريات التعلُّم، عمّان (الأُردن): دار الحامد للنشر والتوزيع، ٢٠١١.

٢. هناك كتب ودراسات كثيرة حول نظرة الانسان إلى العالم وتكوُّنها.

Denise R. Ames, Five Worldviews: The Way to See the World, Albuquerque (New Mexico): Center for Global Awareness, 2017.

3. Dan McAdams and Jennifer Pals,"Fundamental Principles for an Integrative Science of Personality", American Psychologist, April 2006, Volume 61, No. 3, pp. 204-217. After C. Kluckhon, Personality in Nature, Society, and Culture.

٤. تَبرز إشكالية العبثية أو اللامعنى في كتابات ألبير كامو (١٩١٣-١٩٦٠) الروائية والمسرحية، ومنها: «الغريب»، «الطاعون»، «سوء تَفاهُم»، «المسوسون»، «كاليغولا»، كما في كتابه «أُسطورة سيزيف».

٥. أديب صعب، المقدّمة في فلسفة الدين، بيروت: دار النهار، ١٩٩٤، ص ١٥١. نقلاً عن:

Alfred North Whitehead, Process and Reality, New York: Harper and Row, 1929, p. 22.

6. Charles Taylor, "Social Imaginaries", in A Secular Age, Cambridge (Massachusetts): Harvard University Press, 2007, pp. 159-211.

٧. المرجع نفسه، ص ١٦٣. كذلك ذهب تيلور، في كتاب سابق، إلى أن المجتمع هو تَصَوُّرنا للمجتمع:

Charles Taylor, Philosophical Arguments, Cambridge (Massachusetts): Harvard University Press, 1995, p. x.

8. Benedict Anderson, Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism, London: Verso, 1983. Preface to revised edition (1991), pp. xi-xiii.

٩. «كورنيليوس كاستورياديس»، ويكيبيديا.

١٠. كورنيليوس كاستورياديس، تأسيس المجتمع تخيُّلياً، ترجمة ماهر الشريف، دمشق: دار المدى، ٢٠٠٣.

Cornelius Castoriadis, L'institution imaginaire de la société, Paris : Seuil, 1975.

11. François Le Boiteux, L'imaginaire religieux et le fonctionnement cérébral: place et signification des mythes religieux, Paris: Harmattan, 2008.

12. Société d'Etudes Philosophiques, Marseille, Les études philosophiques, Paris: PUF, 1982, pp. 7-9 et 63-64.

انظر: «ثنائية العقل والجسد»، ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة.

١٣. انظر مقدمة الكتاب الآتي:

Silviu Lupascu, L'imaginaire religieux au carrefour des espaces sacrés, Paris: Honoré Champion, 2007.

14. Maurice Godelier, L'imaginé, l'imaginaire, et le symbolique, Paris: CNRS, 2015.

١٥. محمّد نور الدين أفاية، المتخيَّل والتواصُل، بيروت: دار المنتخَب العربي، ١٩٩٣.

١٦. بسّام الجمل، ليلة القدر في المتخيَّل الاسلامي، دمشق: مؤسسة القدموس الثقافية، ٢٠٠٧.

١٧. ديفيد هيوم حول الخوارق ("Of Miracles"):

David Hume, An Enquiry Concerning Human Understanding, Section X.

راجِع: أديب صعب، المقدمة في فلسفة الدين، ص ١٧٦-١٨٢.

١٨. لطيفة كرعاوي، الفردوس والجحيم في المتخيَّل الاسلامي، بيروت والدار البيضاء: مؤسسة مؤمنون بلا حدود والمركز الثقافي العربي، ٢٠١٤.

١٩. محمّد رمضاني، الاتجاهات العقلية المعاصرة في دراسة الحديث النبوي، الرياض: دار رسالة البيان، ٢٠١٨.

٢٠. القس إبراهيم عبد السيّد، الفروق العقيدية بين المذاهب المسيحية، القاهرة: بطريركية الأقباط الأرثوذُكس (لا تاريخ).

٢١. عن نشوء البروتستانتية، أي حركة الإصلاح الديني في المسيحية، يراجَع الكتاب الآتي: أديب صعب، الأديان الحية، نشوؤها وتطوّرها، ط٣، بيروت: دار النهار، ٢٠٠٥، ص ١٦٣-١٦٧.

٢٢. المرجع نفسه، ص ١٩٤.

٢٣. ثروت عكاشة، معراج نامه، تحقيق وتقديم، القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧. انظر أيضاً: ثروت عكاشة، يحيى الخشّاب، حسين بيكار، «المعراج بالصورة واللون»، مجلة «الأزمنة»، المجلَّد الثالث، العدد ١٣، نوفمبر/ديسمبر ١٩٨٨، ص ١٠٢-١١٥.

٢٤. شمس الدين ابن قيّم الجوزيّة، كتاب الروح، المجلّد الأول، تحقيق محمّد الاصلاحي، جدّة: دار الفوائد، ٢٠١١.

٢٥. المرجع نفسه، ص ٤٢٢-٤٤٥. «وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب. وقد تكلم عنها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم» (ص ٤٤٠).

٢٦. غازي أبو شقرا، أربعون الحياة والموت والأُسطورة، بيروت: دار النهار، ١٩٨٢.

٢٧. انظر: أديب صعب، المقدمة في فلسفة الدين، ص ١٩٠.

٢٨. المرجع نفسه، ص ١٩١.

٢٩. المرجع نفسه، ص ١٤٨.

٣٠. هبة الله الحسن بن منصور الطبري اللالكائي، كرامات أولياء الله عز وجل، حققه وعلّق عليه أبو يعقوب نشأت بن كمال المصري، القاهرة: المكتبة الاسلامية، ٢٠١٠: «ما رُوِيَ عن النبي والصحابة والتابعين والخالفين لهم في كرامات أولياء الله تعالى وإظهار الآيات فيهم ليزداد المؤمنون إيماناً والمرتابون بها خساراً» (ص ٢١).

٣١. المرجع نفسه، ص ٦٢. قارِن ص ٩٩.

٣٢. المرجع نفسه، ص ١٥٥.

٣٣. المرجع نفسه، ص ١٦٣.

٣٤. المرجع نفسه، ص ٢٢٨.

٣٥. الشيخ علي الكوراني العاملي، عصر الظهور، ط ١١ (منقحة ومزيدة)، بيروت، ٢٠٠٤، ص ١٠.

٣٦. م. ن، ص ٨.

٣٧. م. ن، ص ٤.

٣٨. م. ن، ص ١٠.

٣٩. م. ن، ص ٢٥٤.

٤٠. م. ن، ص ١٠.

٤١. م. ن، ص ١١.

٤٢. م. ن، ص ١٢.

٤٣. م. ن، ص ١٥.

٤٤. م. ن، ص ١٦.

٤٥. م. ن.

٤٦. م. ن، ص ١٧.

٤٧. م. ن، ص ٢٦٨.

٤٨. المختار بنعبدلّاوي، الاسلام المعاصر: قراءة في خطابات التأصيل، دمشق: دار معد ودار النمير، ١٩٩٨، ص ١٠٦-١٠٨.

٤٩. م. ن، ص ١١٤.

٥٠. م. ن، ص ١١٧.

٥١. «عيد الغطاس المسيحي» https://www.rozana.fm/ar

٥٢. إلهام الطالبي، «إحياء عاشوراء في المغرب: تشيُّع بلا شيعة»: https://www.hafryat.com/ar/blog

المنهج والمنهجيّة عند ريتشارد سويدبيرغ

عبد الإله فرح*

يتميز الموقف الكلاسيكي للسوسيولوجيا بأنه دائماً ما يعتبر أن هناك تطابقاً مباشراً بين الموقف النظري وأنواع المناهج. لكن هذا الموقف يتعرض للهجوم بشكل متزايد باعتباره عفا عليه الزمن، ولا جدال فيه. وذلك لأنه يتم تقديم علم الاجتماع على أنه مهنة، وليس حرفة، وهذا يعني أنه يتم التعامل مع المناهج والنظرية بطريقة خاصة جداً؛ حيث يميل الاثنان إلى الانفصال. لكن عندما يتم التعامل مع علم الاجتماع كحرفة، تميل النظرية والمناهج إلى الاندماج معاً. وفي الغالب يتم استخدام مصطلحات، مثل المنهجية (Methodology) والمنهج (Method) كثيراً في علم الاجتماع المعاصر، لكن دون العمل على التمييز بينهما. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاستخدام الخاص لمصطلح المنهج يختلف عن المنهجية. فما المقصود بالمنهج والمنهجية من منظور سويدبيرغ؟

أ- المنهج

المنهج هو مجموعة من الأدوات والإجراءات والطرق المحددة التي يستخدمها العلماء لجمع البيانات وتحليلها (على سبيل المثال، التجارب والاستطلاعات والاختبارات الإحصائية). على سبيل المثال، قد يستخدم عالم الفيزياء، أدوات مثل المجهر الإلكتروني، أو التلسكوب الراديو للحصول على بياناته. في المقابل، قد يستخدم عالم الاجتماع، كأسلوب، استطلاع رأي، أو استطلاع عينة من

---

* باحث في علم الاجتماع (المغرب).

خلال الاستبيان عبر البريد أو إجراء مقابلة شخصية للحصول على بياناته. أو قد يجري مقابلة هاتفية، أو مناقشة جماعية، أو منهج دراسة الحالة لجمع البيانات. ومع ذلك، فكلاهما يستخدمان نفس التقنية من نوع ما، والتي تولد البيانات للبحث.

في نظر سويدبيرغ، فإن أكثر الفهم شيوعاً واستعمالاً لمفهوم المنهج في علم الاجتماع اليوم هو ببساطة كوسيلة تقنية لتحقيق غاية. حيث يُنظر إلى المنهج على أنه أداة، نوع من التقنية فقط، أو كما يقول روبرت ألفورد Robert Alford: «إن تقنيات جمع والتحقق وتقييم مصداقية وموثوقية أنواع معينة من الأدلة تشكل المعنى الضيق لـ «المنهج» ويشتمل على المهارات التي يتم تدريسها عادةً في مناهج الدورات التدريبية» (Swedberg, 2021, P:2).

ويرى سويدبيرغ، أنه على الرغم من وجود عدد كبير من الكتب والمقالات حول المناهج، إلا أنه من النادر وجود أعمال تناقش المقصود بالمنهج في المقام الأول. وقد يكون معناه واضحاً عند البعض، فهو يعبر عن مجموعة من العمليات الفكرية التي يسعى بها اختصاص إلى بلوغ الحقائق التي يتابعها ويثبتها ويتحقق منها (غراويتز، ١٩٩٣، ص:٩). من وجهة النظر هذه، فإن المناهج تعرض قدراً كبيراً مما يسميه ماكس فيبر بالعقلانية الأداتية. فالفكرة العامة هي أنك إذا اتبعت تعليمات منهج ما بعناية، فستتمكن من التقدم بطريقة منظمة ومنطقية نحو هدفك. أو لنقتبس من موريس كوهين Morris Cohen: «يشير مصطلح المنهج إلى أي إجراء يطبق نظاماً عقلانياً، أو نمطاً منهجياً على كائنات متنوعة» (Swedberg، 2021، P:2).

وهناك ميل من طرف الباحثين إلى توسيع مفهوم المنهج وخلطه بينه وبين النظرية. ويفسر هذا الميل في نظر مادلين غراويتز Madeleine Grawitz بأن المناهج التحليلية النفسية، ومناهج أخرى كذلك تهتم أيضا بتصور نظري إجمالي لعلم النفس أو المجتمع. وترى غراويتز بأنه يجب تجنب الخلط بين هذين المظهرين. فكل نظرية تتطلب مشكلات متعلقة بالمحتوى النوعي الذي تنظمه

وتمتلك طابعاً جوهرياً. فكما تقول: «إن النظرية تحدد على الأغلب ما يرتبط «بماذا»، في حين أن مشكلات المنهج، المرتبطة، بالتأكيد، بالمحتوى، ولكن بطريقة أخرى، تعطي جواباً عن الجواب «كيف؟» (غراويتز، ١٩٩٣، ص: ١٠).

وبالنسبة إلى ريمون بودون Raymond Boudon، فإن مفهوم المناهج عند استخدامه في علم الاجتماع، يفيد تقنيات الملاحظة، أو تحليل المعطيات، لكنه مفهوم يحمل معنى ضيقاً للغاية. ولهذا، فإن بودون يعتبر أن المناهج تعد بالإضافة إلى ما تعنيه من تقنيات وصفية -وبشكل خاص- مجموعة مبادئ توجه العلماء الاختصاصيين في سعيهم لوضع نظريات جديدة والشروع في تحليل ونقد النظريات الموجودة. وبالتالي، فإن معرفة المناهج هذه تتطلب دراسة معمقة لنظريات علم الاجتماع الأكثر أهمية، تلك التي أوصلتنا، كما يقول، إلى إدراك ظواهر أساسية غير مسلم بها قبليا (بودون وفيول، ٢٠١٠، ص: ٥)

يهدف سويدبيرغ إلى تقديم فكرة عن المنهج الذي يمكن أن يكون مساعداً في علم الاجتماع. ذلك أن علم الاجتماع يتم تعريفه من خلال موضوع دراسته، تماماً مثل أي علم؛ وأن هذا يجب أن يؤخذ في الاعتبار أيضاً عند اختيار المنهج واستخدامه. لهذا السبب، ترتبط المناهج ارتباطاً وثيقاً وتتداخل إلى حد ما مع النظرية. فالنظرية ترتبط بدورها ارتباطاً وثيقاً وتتداخل إلى حد ما مع المناهج المستخدمة، إذ إنها ضرورية لتحديد الظواهر التي تتم دراستها في علم الاجتماع وتحليلها. وهذا يعني، أن النظر إلى المناهج منفصلة عن النظرية، والنظرية منفصلة عن المناهج، سيؤدي إلى تشوهات في التحليل. وبالتالي، فإن النظرية ليست مستقلة عن المناهج، والمناهج ليست مجرد أدوات «غير نظرية» (Swedberg, 2021, P :3). ففي علم الاجتماع، فإن ما تتم دراسته -موضوع البحث- يكون له ارتباط مباشرة على كيفية دراسته.

يفهم من ذلك، أن فهم النظرية دون النظر إلى المناهج المستخدمة، أو المناهج دون النظر إلى النظرية قد يكون له عواقب خطيرة على سير البحث في عدد من النواحي. وعلى سبيل المثال، فإن علماء الاجتماع الذين يستخدمون

طرقاً منفصلة عن النظرية يتعرضون لخطر التركيز على مواضيع اجتماعية وليست سوسيولوجية. أما علماء الاجتماع الذين يعملون مع نظريات معزولة عن المناهج، يخاطرون بفقدان الاتصال بالواقع الاجتماعي. حيث يرى سويدبيرغ، أن أحد الأسباب التي تجعل هذا النوع من المواقف قد يزداد سوءاً على مر السنين هو تلك النظرية، التي تطورت دون اتصال مباشر بالواقع، والتي تميل إلى أن تصبح غير ذات صلة بشكل متزايد مع الواقع (Swedberg, 2021, P :4). وهو ما يعني أن النتيجة النهائية لهذا النوع من البحوث الاجتماعية سيكون لديها نوع من النظرية المجزأة وغير المتماسكة. لأن الدراسات والأبحاث التي يتم إنتاجها بهذه الطريقة لا تكون متصلة ومرتبطة فيما بينها على المستوى النظري والمنهجي.

ب المنهجية

المنهجية هي طريقة لدراسة الخطوات المختلفة التي يتبناها الباحث بشكل عام في دراسة مشاكله البحثية بشكل منهجي، إلى جانب المنطق والافتراضات والمبررات الكامنة وراءها. وعادة ما يُنظر إليها على أنها تتداخل إلى حد كبير مع فلسفة العلم من خلال تركيزها على عملية البحث بأكملها، أي على النظرية وكذلك على المناهج (Swedberg, 2021, P :7).

وعلى سبيل المثال، عندما نختار منهج البحث، يجب أن نبرر سبب تفضيلنا لهذه الطريقة عن غيرها. فالمنهجية تسعى للإجابة على هذا السؤال. وعليه، عندما نتحدث عن المنهجية، فإننا لا نتحدث فقط عن مناهج البحث ولكن أيضاً نأخذ في الاعتبار المنطق والمبررات وراء المنهج الذي نستخدمه في سياق تعهدنا في البحث. وغالباً ما يتم مناقشته في المنهجية هو الافتراضات المسبقة لمختلف العلوم والأسس التي تقوم عليها. حيث يتم عادة تضمين المناهج وكذلك النظرية هنا، على مستوى معين من التجريد. وبحسب ريمون بودون Raymond Boudon: «تحدد هذه الفكرة [أي المنهجية] النشاط النقدي الذي يوجهه العلماء تجاه الإجراءات والنظريات والمفاهيم، أو النتائج التي ينتجها البحث العلمي، ولا ينبغي الخلط

بينها وبين «التقنيات»؛ أي نشاط التعامل بالتقنيات والابتكارات والوصفات التي يستخدمها البحث العلمي» (Swedberg, 2021, P :7).

يمكن القول، إن المنهجية هي طريقة منهجية لحل مشكلة ما، إنها وسيلة لدراسة كيفية بناء البحوث، في الأساس، تسمى أيضاً بالإجراءات التي يقوم بها الباحثون بعملهم لوصف الظواهر وتفسيرها والتنبؤ بها، أي ما يسمى بمنهجية البحث -ويتم تعريفها أيضاً على أنها دراسة المناهج التي يتم من خلالها اكتساب المعرفة- فهي تهدف إلى إعطاء خطة لعمل البحث على المستوى النظري والمنهجي، وبالتالي، «من المهم لعلماء الاجتماع أن يكون لديهم معرفة عامة بأسس وافتراضات النظرية والمناهج التي يستخدمونها في أبحاثهم» (Swedberg, 2021, P :8).

وفي هذا السياق، يرى سويدبيرغ، أنه لا يجب العمل على الفصل بين المنهجية والنظرية، لأنه لا يمكن فصل البحث عن النظرية، وكما يقول ريمون بودون: «المنهجية... قابلة للتطبيق على جميع أنواع البحوث [السوسيولوجية] سواء كانت تتعلق بالدراسات الكمية، أو الدراسات النوعية، أو العمل مع التوجه النظري، أو الدراسات الاجتماعية» (Swedberg, 2021, P :8). وهي نفس وجهة نظر روبيرت ميرتون، خصوصا عندما يقول: «يجب أن يكون علماء الاجتماع، في صحبة كل من يكتبون عملاً علمياً، وحكيمين من الناحية المنهجية؛ يجب أن يكونوا على دراية بأساليب التحقيق، وطبيعة الاستدلال، ومتطلبات النظام النظري» (Swedberg، 2021، P :8).

ويعتبر سويدبيرغ، أن السبب الذي يجعل من المنهجية ينظر إليها على أنها تتعامل مباشرة مع المناهج وليس مع النظرية، إنما هو راجع إلى التفكك التاريخي للعلاقة بين النظرية والمنهج، والذي لعب فيه بول لازارسفيلد Paul Lazarsfeld وموريس روزنبيرغ Morris Rosenberg دوراً مهماً في هذه العملية، من خلال كتابهما المشترك (The Language of Social Research) الذي صدر في سنة ١٩٥٥، حيث كان لمنهجيته في البحث الاجتماعي التجريبي تأثير عميق على

معظم العلوم الاجتماعية. كما أنه قدم المنهجية باعتبارها معنية بشكل كبير «بالإجراءات» الفنية؛ وهذه الإجراءات ليست لها علاقة بالنظرية إطلاقا. وأحد الأسباب المهمة لذلك، كما يشرح لازارسفيلد في مكان آخر، هو أنه لا يوجد حتى الآن أي شيء يستحق اسم النظرية في علم الاجتماع. وهو ما أثر بشكل كبير على مفهوم المنهجية، لأنه أصبح يقصد به، عند الطلاب والباحثين بطرق البحث، وأساليب جمع المعطيات، وطرق تحليل المتغيرات، في المقابل، فقد أدى بالنظرية في علم الاجتماع إلى التحليق في الغيوم الفلسفية، والتي تبقى في الغالب بعيدة جدا عن الدراسات والأبحاث الميدانية.

ويشير سويدبيرغ أن مفهوم المنهجية مختلف جداً من حيث التداول بين الأوروبيين والأمريكيين. فقد قدم تالكوت بارسونز Talcott Parsons ملاحظة حول ذلك بقوله: «لقد لوحظ في كثير من الأحيان أنه في العلوم الاجتماعية الأمريكية، يشير مصطلح «منهجية» بشكل عام إلى تقنيات البحث، بينما في الاستخدام الألماني يشير بالأحرى إلى ما نسميه أحياناً فلسفة العلم، أي المكانة الأساسية للأطر المرجعية والمخطط المفاهيمي» (Swedberg, 2021, P :9).

ولهذا، فإن المنهجية عموماً تشير إلى مجموعة من الإستراتيجية الشاملة والأسس النظرية والمنطقية لمشروع الدراسة. وهي تتضمن دراسة المناهج المستخدمة في البحث والنظريات أو المبادئ التي تقوم عليها، من أجل تطوير مقاربة تتوافق مع أهداف الدراسة.

وعليه، يدافع سويدبيرغ عن المنهجية غير المفصولة عن الأطر النظرية؛ إذ لا يجب الانسياق إلى القول بإن المنهجي هو الشخص المتخصص في المناهج والذي لا يراعي النظرية الاجتماعية؛ فالتقليل من معنى المنهجية بهذه الطريقة له عواقب حول كيفية إجراء البحث السوسيولوجي. هذه هي الحجة، التي يدافع عنها مجموعة من علماء الاجتماع، مثل بيير بورديو، الذي يرى أن الممارسة

العلمية مهما كانت، فهي تتطلب جهداً مزدوجاً من خلال إتقان المعرفة النظرية والأساليب المنهجية، أي بطريقة تجعل هذه المعرفة تنتقل من الخطاب الفوقي إلى الممارسة الميدانية، في شكل «حرفة».

ويلاحظ أن بيير بورديو هو واحد من علماء الاجتماع المعاصرين، الذين جادلوا بقوة في أن النظرية والمناهج تنتمي معاً، وأنهما جزء مما يسميه «بالعملية الموحدة للبحث السوسيولوجي». فهو يفعل ذلك إلى حد ما من خلال نظرته إلى علم الاجتماع كحرفة، مستشهداً ليس فقط بعمل دوركهايم ولكن أيضاً بالكتابات المنهجية لماكس فيبر، حيث يصر بورديو على أن عالم الاجتماع يجب أن يخلق هدفه البحثي الخاص، وليس فقط دراسة ما يستحضره بنفسه كملاحظ» (Swedberg, 2021, P: 13). وكمثال على كيفية فشل المناهج في التواصل مع النظرية الاجتماعية، يستشهد بورديو بأخذ عينات عشوائية غالباً ما تكون غير قادرة على التقاط ظاهرة اجتماعية بالكامل لأنها تميل إلى عزل الأفراد عن محيطهم الاجتماعي. حيث يحدث شيء مشابه عندما تكون المناهج موثوقة ولكن النظرية خاطئة. فإذا كان تحليلك يعتمد على نظرية الإعلام الجماهيري، على سبيل المثال، فلن تساعدك حتى أفضل المناهج على فهم كيفية نشر المعلومات في المجتمع (Swedberg, 2021, P: 14).

وبالتالي، يقترح سويدبيرغ على علماء الاجتماع، إعادة النظر في بعض الطرق التي يفكرون بها حالياً في النظرية والمناهج؛ إذ عليهم إجراء تغييرات في الطريقة التي يتم بها تدريس النظرية والمناهج، وفي مضامين الكتب والمقالات من الناحية النظرية والمناهج. لكن في نظره، فإن القيام بكل هذا يمثل مهمة جماعية بامتياز، لأنها تتطلب جهود العديد من علماء الاجتماع من باحثين ومنهجيين ومنظرين.

المراجع المعتمدة

- بودون، ريمون/فيول رينو. (٢٠١٠)؛ الطرائق في علم الاجتماع، ترجمة مروان بطش، ط١، بيروت، لبنان: مجد.
- غراويتز، مادلين. (١٩٩٣)؛ مناهج العلوم الاجتماعية، ترجمة سام عمار، دمشق سورية: المركز العربي للتعريب والترجمة والنشر.
- Swedberg، Richard. (2021) ; "What is a Method? On Different Meanings of the Term Method in Sociology"، Distinktion: A Journal of Social Theory (forthcoming)، PP :1-21.

دراســـــات ومقـــــالات

- **الوطـن الأيقونـة : لبنـان أنموذجـاً**
  بين التراث والحداثة والإشعاع الفكري الحضاري
  ماجدة داغر

- **مستقبل الدور الأوروبي تجاه القضايا العربية الراهنة**
  د. غازي فيصل حسين

- **الديمقراطية التوافقية الدستورية**
  طريق التسوية الدائمة في الوطن العربي
  عبد الحميد سيف الحدّي

الوطـن الأيقونـة: لبنـان أنموذجـاً

بين التراث والحداثة والإشعاع الفكري الحضاري

ماجدة داغر*

افتتاحية وكلمة شكر

في زمن التحدّيات الصّعب، وفي عصر تغيّر الأولويات وتبدّل المفاهيم واحتضار القِيَم، لا بدّ من تقديم الشكر والعرفان لكل من يسعى إلى البحث عن نقطة ضوءٍ في عصر خفوته لصالح الأضواء المصطنعة. في البداية تحية امتنان وتقدير لصاحب السّموّ الملكيّ الأمير الحسن بن طلال على إيمانه بقدرة الكلمة في استعادة الإرث القِيَمي الثقافي الحضاري الذي يتميّز به تراثُنا وتتفرد به منطقتُنا، ولالتفاتته المقدّرة إلى لبنان في أسوأ أزماته، وهذا دأب المملكة الأردنية الهاشمية التي وقفت إلى جانب لبنان عبر التاريخ، وذلك في الدعوة الكريمة إلى كلمة من خلال منبرٍ عريق، يساهم منذ عقود، في احتضان قضايا الإنسان الكبرى وطرحِها ومناقشتِها ودعمِها في سبيل إبقاء نافذة الأمل مفتوحةً للنور. كما أودّ أن أبارك لسموّه بنيله جائزة «صنّاع السّلام» من أكاديمية هاني فحص للحوار والسلام» وذلك تقديراً لدوره في تنمية ثقافة الحوار والتعددية وصناعة السلام.

---

* كاتبة وشاعرة وإعلامية في إذاعة «الشرق» (لبنان).

مقدمة

أمّا بعدُ..

فهذه الإطلالة المشكورة من المنتدى على وطنٍ جريح يحلم منذ دهور بالتئام جراحه، فإذا بها تزداد اتساعاً وعمقاً، إلى أن وصلت اليوم لتلامسَ عظامه المباركة، وتهدّد كيانَه الفريد في المنطقة، بخطرٍ وجوديّ مصيريّ، لا يطال شعبَه ودورَه فقط، إنّما يُرخي بتأثيراته على المنطقة برُمّتها نظراً لموقعه الاستراتيجي، إنسانياً وجغرافياً وسياسياً وثقافياً.

لبنان! الوطنُ الأيقونة. الوطن الحلم. الوطن السّرمدي. وطن الريادة.

لبنان الطّاعن في جماله وقدسيّته والآتي من عظمة التاريخ وفرادة المعنى. هو مَن لأجله تضرّع النبي موسى إلى الله ليسمحَ له برؤيته ولو من بعيد: «دعني أعبر وأرى الأرض الجيّدة الّتي في عبر الأردن، هذا الجبل الجيّد ولبنان» (التوراة، سِفر التثنية ٣: ٢٥).

لبنان الذي شبّه الحكيم سليمان عروسَه به منشداً، «هلمّي معي من لبنان يا عروس، معي من لبنان!».

لبنان الذي ذُكر أكثر من ٧٠ مرةً في الكتاب المقدّس، وأرزُه أكثرَ من خمسٍ وسبعين مرةً .هذا هو لبنان «قلب الله» الآتي من اسم كلمة لبنان: لُب: وهي تعني قلب و«نون» هو اسم الله في العصور القديمة.

هذا لبنان الذي فتَن الشعراء والفلاسفة والفنانين، نُظمت في بهائه أجملُ القصائد، وتغنّت به الحناجرُ وأعظم الأصوات.

لبنان قطعة السماء الشريدة التي حطّتْ بها الغيوم هنا، أهداها بعضُ حكّامه إلى إبليس ليقيم عليها طقوسَ جهنّم، وكانت بيروت وليمتَه الأشهى.

بيروت التي ألهمتْ الشاعر اليوناني العظيم ننوس فكتبَ «ملحمة بيروت الميمونة» في القرن السادس إثر الزلزال المدمّر الذي ضربها وقتل ثلاثين ألفاً من أهلها، خاطبها قائلاً:

«يا بيروت/ أنتِ أرومةُ الحياة/ مُرضعةُ المدن/ مَفخرةُ الأمراء/ أولى المدنِ المنظورة/ الأختُ التوأمُ للزمن/ المعاصرةُ للكون/ كرسيُّ هرمُس/ أرضُ العدالةِ ومدينةُ الشرائع/ معبدُ كلِّ حب، ونجمةُ بلاد لبنان».

دور لبنان في التاريخ الحديث

هذا بعضٌ من لبنان في التاريخ السّحيق، وعنه حُكي الكثير، ماضياً وحاضراً، ولا تجفُّ الأقلام ولا المآقي في حب لبنان. هذه إضاءةٌ على فرادة وطن الأرز ودوره الرائد في الشرق الذي جذب ذات عصرٍ ذهبي شعوباً وبلداناً وأمماً تتوق إلى الحرية والترقّي والازدهار.

سنحاول أن نفتح أبواب الزمن الجميل للبنان. هذه الأبواب التي دخلت عبرها ثقافاتُ التنوير والحرية والانفتاح والأدب والنشر والصحافة والنهضة، والسياحات التاريخية والطبيعية والطبية والتعليمية والترفيهية والفنية والثقافية. عبر هذه الأبواب كانت وثبةُ بلدٍ صغير إلى العالمية والعولمة والحداثة، نافس بها البلدان العظمى بجغرافيتها وتطوّرها وإمكاناتها.

هذه الأبواب التي لم تتوقف محاولات إغلاقها منذ عقود، على يد من تخيفهم الحرية، ويخشَون التعددية الثقافية، ويرعبهم التنوّع الحضاري، فيحاربون مَن بهم شغف الحياة والحب والجمال. مَن حاولوا كسرَ هذا الأنموذج، ربما نجحت بعضُ محاولاتهم عبر الحروب والعنف والتهجير والهجرة والتيئيس، لكنهم موقنون في صميمهم أنّ مرفأ بيروت الذي لم يتوقّف عن أداء دوره التاريخي من موقعه الاستراتيجي في المنطقة والعالم، لم يتوقّف منذ أيام الفينيقيين مرةً واحدة سوى بتفجيره المأسوي في الرابع من آب ٢٠٢٠، وهو الصورة المصغّرة عن لبنان الصّامد أمام أعتى العواصف.

لبنان في التاريخ

الكلام عن لبنان ليس بالأمر السهل، ليس فقط من منطلق وطنيّ لأنه بلدي الذي أعشق، وإنما لغنى هذه الأرض وتعدد مواردها الطبيعية والإنسانية، ولثراء هذا التاريخ الآتي من أكثر من سبعة آلاف سنةٍ، والشواهد على ذلك لا

تُحصى، وربما مدينة جبيل أو بيبلوس هي خير مثال على ذلك كونها من أولى المدن المأهولة في التاريخ، وكونها المدينة الأولى التي أعطت نموذج التنظيم المدني والمديني للعالم من سبعة آلاف سنة، إلى جانب دورها في نشر الحرف والأبجدية الأولى عبر قدموس الفينيقي.

لبنان لم يتوقّف يوماً عن ابتكار النماذج الحضارية التي أبهرت العالم، بدءاً بما قبل التاريخ مع أجداده الفينيقيين، وصولاً إلى التاريخ الحديث في القرن التاسع عشر وبعد استقلاله عام ١٩٤٣. كل مرحلة طبعت لبنان ببصمة مختلفة جعلته قبلةً للمستشرقين والأدباء والعلماء والمفكّرين. إلى أن تربّع في منتصف القرن العشرين على قائمة البلدان النموذجية في الثقافة والفنون والسياحة والقطاعات المصرفية والتربوية والطبية وغيرها. فلازمت لبنان صفات الجمال والحضارة مثل «سويسرا الشرق»، و«باريس الشرق» «ولؤلؤة المتوسط» و«عروس المتوسط» و«منارة العرب» وصفات أخرى كثيرة.

لم يكن هذا الموقع المتقدم الذي وصل إليه لبنان وليدَ صدفة أو هدية من أحد، بل كان نتيجة تميّز شعب وحلمه بتحقيق المستحيل، مستعيناً بمقدّرات وطنٍ استثنائي وهبه الله عطايا لا تقدّر بثمن.

أول كيان مستقل

واجه لبنان، منذ القدم، تعدد الحضارات التي عبرت فيه، أو احتلّت أراضيه، وذلك لموقعه الوسطي بين الشمال الأوروبي والجنوب العربي والشرق الآسيوي والغرب الأفريقي، ويعد هذا الموقع المتوسط من أبرز الأسباب لتنوع الثقافات في لبنان، وفي الوقت ذاته من الأسباب المؤدية للحروب والنزاعات على مر العصور.

وهذا الموقع الاستثنائي لم يُثنِ لبنان من أن يكون من روّاد الدول المحيطة في الاستقلالية. فتنزعة التحرّر عند اللبناني دفعته ليساهم في أن يكون لبنان أولَ كيان شبهَ مستقلّ يحظى باستقلال ذاتيّ في ظلّ هيمنة السلطنة العثمانية، بضمانة الدول السبع الكبرى آنذاك. وهذا امتياز لأي شعب يسعى إلى قيام بلد ينسجه على قياس أحلامه في الحرية والسيادة والازدهار والغنى الثقافي والاجتماعي.

دور لبنان في النهضة

عندما نتحدث عن النهضة العمرانية الأدبية الفنية والثقافية بشكل عام، يكون للبنان الدورُ الأبرزُ فيها، خصوصاً أنها امتدّت إلى مجالاتٍ كثيرة وألهمتْ أقطاراً مجاورة انطلاقاً من لبنان.

وبعيداً عن السّردِ التاريخيّ، الذي بات معروفاً، عن النهضةِ الثقافية في لبنان، لا بد من الإشارة إلى أبرز المحطات التاريخية في هذا السياق بدءاً بزمنِ المتصرفية والنهضة الأدبية التي كان أبرزَ أسبابِها الاتصالُ بالغرب، والذي أعاد إلى المنطقة دورَها التقليديّ كَجسرٍ طبيعيّ تلتقي فيه الشعوبُ، وتتفاعلُ الحضارات. وقد دفعه هذا الاتصال دفعاً حثيثاً في طريق التقدم.

كذلك كان دورُ الإرساليات الأجنبية في تطوّرِ الحياة الفكرية. فأسسوا عشرات المدارس، وأصبحت بيروت أغنى مدن المشرق العربيّ بالمدارس. وأنشأ المرسلون الأميركيون «الكليّة السورية الإنجيلية» في سنة ١٨٦٦ التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأميركية في بيروت، وأسس اليسوعيون جامعة القديس يوسف سنة ١٨٧٤وإلى جانب هذه المدارس كان للمرسلين الأميركيين واليسوعيين مطبعتان في بيروت. فكان لهذه الحركة العلمية والثقافية فضلٌ كبير جداً في نشر العلم وتقدم الحياة الفكرية في لبنان. كما كان للبعثات العلمية التي أرسلها المرسلون إلى الخارج دورٌ كبير في نشر العلم والثقافة.

كانت هذه النهضة ممكنة في لبنان آنذاك، لما تميّز به، مقارنة بالدول العربية، من بنية تحتية ثقافية، ولانفتاحه على أوروبا، وأيضاً لما تمتّع به في القرن العشرين من أجواء حرية جعلته رائداً وجاذباً ثقافياً كمنفى وواحة لمثقّفي العرب. وحتى الحروب والأزمات، لم تلغِ دور لبنان. وبسبب هذه الخصائص، لا يزال يقاوم ليبقى في عصر النهضة في القرن الحادي والعشرين.

دور لبنان في حفظ اللغة العربية

وقبل الحديث عن أي نهضة، لا بدّ من الإشارة إلى الدّور الذي أدّاه لبنان في الحفاظ على الإرث الثقافي الأهم الذي يُسهم في إبقاء الموروثات الأخرى المتفرّعة منه على قيد الحياة، ألا وهو اللغة العربية.

في الرُّبع الأخير من القرن التاسع عشر، وفي بداية موجة التتريك، وجد اللبنانيون هويتهم الضائعة في اللغة العربية، واتخذوها ملاذاً لهم في وجه السلطة وطابعها التركي. فعمدوا إلى حفظها وتعلّمها والتفوّق فيها، لأنها المعبر لحفظ وجودهم. فكان أول أستاذ للغة العربية في لبنان الكيان التاريخي هو الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١) وعليه تتلمذ كتّاب ذلك العصر من العرب، بالإضافة إلى أسماء كثيرة كان لها الفضل الأكبر في حفظ اللغة العربية نذكر منهم: أحمد فارس الشدياق وآل البستاني، والمعلم بطرس الذي ترجم التوراة إلى العربية وأسس المدرسة الوطنية، وهو من رواد الصحافة فأسس منفرداً أربع صحف. وعُرف من البساتنة أيضاً سليمان الذي اشتهر بتعريبه إلياذة هوميروس، وعبدالله صاحب معجم البستان والذي نقل رباعيات الخيام إلى العربية.

أحببت أن أضيء على بعض الذين حافظوا على اللغة العربية وأثروها لتصل إلينا بكامل بهائها، وثمة أسماء كثيرة أخرى لا يتّسع هذا النص لتعدادها.

ريادة لبنان في الصحافة والحريات

اضطلعت الصحافة اللبنانية بالدفاع عن لبنان الكيان والوطن وقضاياه واستقلاله وحريته، مثلما حملت راية الدفاع عن العرب في قوميتهم وحركاتهم الاستقلالية ونضالهم ضد المحتل والمستعمر. فقد تميّز اللبنانيون عن غيرهم من الشعوب العربية، بأنهم كانوا أول من اشتغلوا بالصحافة على نطاق شعبي واسع، في لبنان أم في المهجر. ويُروى أن نابوليون بونابرت استعان باثنين من اللبنانيين كمترجمين. وبذلك يكونا أسهما بصورة غير مباشرة في تحرير أول صحيفة عربية في العالم.

فكان للبنان دور تاريخي كرائد أول للصحافة العربية المستقلة إذ تُعتبر بيروت المدينة العربية الأولى التي احتضنت جريدة مستقلة عام ١٨٥٨ عندما أسسّ خليل الخوري أول صحيفة لبنانية هي «حديقة الأخبار»، ليتوالى بعدها إصدار الصحف في لبنان والخارج، ويصبح لبنان عاصمة الصحافة العربية والمدافع الأول عن حرية التعبير.

وللبنان الصحافة في مصر ريادة لا بدّ من الإشارة إليها، تحديداً مع جريدة «الأهرام» التي أسسها اللبنانيان سليم وبشارة تقلا في الإسكندرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. بالإضافة إلى مجلة «المقتطف» التي أصدرها يعقوب صرّوف وفارس نمر في بيروت عام ١٨٧٦، ثم نقلاها إلى مصر وصدرت في القاهرة منذ العام ١٨٨٨ وحتى عام ١٩٥٢. كذلك مجلة «الهلال» لصاحبها جرجي زيدان. ثم «المصوّر» وما تلاها من مطبوعات أصدرها إميل وشكري زيدان. ولا ننسى أشهر مجلة مصرية «روز اليوسف» التي أصدرتها اللبنانية فاطمة اليوسف وجمعت فيها أبرز الكتّاب والصحافيين آنذاك مثل: العقّاد ومصطفى أمين وصلاح حافظ وغيرهم.

أول مطبعة في الشرق

لم يكن لبنان سبّاقاً في الميادين التي ذكرناها، لولا أنه كان سبّاقاً أيضاً في طباعة الحرف. فالمطبعة الأولى في الشرق العربي تأسست في جبل لبنان، وامتدت الطباعة بعد ذلك إلى سائر أنحاء الشرق كسوريا ومصر وفلسطين والعراق وما بين النهرين وغيرها. فأقدم مطبعة برزت للوجود في الشرق هي مطبعة دير قزحيا بلبنان، وقد نشرت عام ١٦١٠ كتاب (المزامير) باللغة السريانية. أما المطبعة الأولى للحرف العربي، فكانت أيضاً في لبنان، مطبعة مار يوحنا في دير الخنشارة حيث طبع فيها أول كتاب باللغة العربية في العام ١٧٣٤ بعنوان (ميزان الزمان) للأب يوحنا أوسابيوس اليسوعي.

تأثير الأدب اللبناني والفنون في النهضة

استكمالاً لما أسلفنا حول الحضور اللبناني في التاريخ الحديث، وتفادياً للسّرد التاريخي الجاف، على الرغم من الحاجة إلى استذكاره للإضاءة على

أبرز الأدوار التي اضطلع بها لبنان، وإنصافاً لما قدّمه هذا البلد الصغير إلى المنطقة من أسبقية في شتّى الميادين، لا بدّ من العبور على دورٍ متميز شهده لبنان من عصر النهضة حتى القرن الواحد والعشرين، في ميادين الأدب والفكر والغناء والموسيقى والفولكلور والمسرح والسينما والشعر، مع بروز بيروت وصعودها كمختبر ومركز ثقافيين.

ففي مسار أدبي تجديدي بدأ مع أدباء لبنان في المهجر كجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني ومي زيادة وغيرهم كثر، ومنذ تأسيس الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية والنادي الفينيقي، مروراً برعيل عبقري من الأدباء والشعراء كإيليا أبي ماضي والأخطل الصغير وإلياس أبو شبكة، وصولاً إلى الثورة الشعرية الحديثة في أواخر الخمسينيات مع مجلة شعر وكبار الشعراء المجددين كأنسي الحاج ويوسف الخال وأدونيس وشوقي أبي شقرا وفؤاد رفقة وجبرا إبراهيم جبرا وغيرهم ممن أسهموا في التجديد في الشعر العربي وانفتاحه على الأدب الغربي، وبالتالي التأسيس لأدب لبناني حديث ورائد.

لم يتوقف الإبداع اللبناني طيلة الزمن الجميل، كما نسميه، فتربّع على عرش الفن الموسيقي الغنائي مع الظاهرة العبقرية الرحبانية وأسطورة الغناء اللبناني والعالمي فيروز. هذه الهوية الموسيقية اللبنانية التي ابتدعها (الأخوين رحباني)، شكّلت انعطافة محورية في الفن العربي وما زالت حتى اليوم. من دون إغفال الدور الرائد لموسيقيين لبنانيين كبار كحليم الرومي وفيليمون وهبه وزكي ناصيف وغيرهم.

هذا غيض من فيض مما أعطته للعالم هذه البقعة الجغرافية الصغيرة المسمّاة لبنان، ولولا الأطماع التي تلاحقها من الداخل والخارج، لبقيت حتى اليوم تنشر إشعاعاً حضارياً على العالم أجمع. ولستُ هنا في بصدد البكاء على أطلال هذا البلد الجميل المختلف، ولا أسعى إلى أن نتشبّه بأبي عبدالله الصغير آخر ملوك الأندلس الذي بكى كالنساء على ملكٍ لم يحفظه كالرجال. فلا بيروت هي غرناطة ولا لبنان هو الأندلس، وهذا الفردوس لن يصبح مفقوداً، لأنه أقوى من كل الأزمات والمآسي.

مستقبل الدور الأوروبي تجاه القضايا العربية الراهنة

د. غازي فيصل حسين*

المقدمة

لقد كان تأسيس **التعاون السياسي الأوروبي** في أكتوبر من عام ١٩٧٠م بين وزراء خارجية الدول الأوروبية الأعضاء في الجماعة الأوروبية لتبادل المعلومات وتنسيق سياساتهم الخارجية، مقدمة لتحرك دول الاتحاد الأوروبي لوضع البذور الأولى للعمل المشترك في المجالين السياسي والأمني، عبر حيازة سياسة خارجية وأمنية مشتركة، بدت واضحة من متابعة مسيرة العمل الأوروبي المشترك. ومع تحول الجماعة الأوروبية إلى اتحاد أوروبي بعد اتفاقية ماستريخت عام١٩٩١م.

وشكلت هذه التطورات حافزاً للبحث في الكيفية التي يتبعها الاتحاد الأوروبي ومؤسساته المعنية في صياغة سياسة خارجية وأمنية مشتركة، وبصورة خاصة: **مستقبل الدور الأوربي تجاه القضايا العربية الراهنة، في إطار ضمان سياسة مبنية على التعاون والشراكة مع جنوب البحر المتوسط والشرق الأوسط والخليج العربي، وربطها بعلاقات تعاون اقتصادية وسياسية وأمنية.**

مما يتطلب عرض وتحليل عدد من القضايا والتحديات التي تتعرض لها الدول العربية كاتساع **ظاهرة البطالة وانتشار الفقر والجوع وارتفاع معدلات التضخم، مما يتصل بمشكلات الهجرة والبطالة والعنف ومواجهة الإرهاب، التي تشكل اليوم تهديداً مباشراً للأمن والاستقرار الأوروبي، إضافة لتحديات التلوث البيئي الذي يهدد مستقبل الامن والاستقرار في العالم**، وبجانب ما تقدم تواجه الدول الأوروبية مخاطر الأنماط المختلفة لظاهرة الجريمة المنظمة وانعكاساتها التي تهدد الأمن والاستقرار الأوروبي والعربي والدولي.

---

* سفير سابق، ورئيس المركز العراقي للدراسات الاستراتيجية (العراق).

أولاً: معاهدة ماستريخت والسياسة الخارجية الأوروبية المشتركة

جاءت **معاهدة ماستريخت** لتدمج آلية القرار السياسي الخارجي في صلب مؤسسات الجماعة الأوروبية، وكذلك لتحدد أطراً قانونياً أكثر دقة من خلال التمييز بين المواقف والإجراءات المشتركة من جهة، والتصريحات المشتركة من جهة ثانية، كما جاءت **معاهدة أمستردام** عام ١٩٩٧م، مكملة لهذا المشروع فأكملت عملية الدمج هذه من خلال إدخال اتحاد أوروبا الغربية (منظمة عسكرية) داخل الاتحاد الأوروبي.

١. الهيكل التنظيمي والبنية المؤسسية

لا يمكن للاتحاد الأوروبي أن يحقق أهدافه المنصوص عليها في المعاهدات السابقة، إلا عن طريق مؤسسات وأجهزة محددة، ويمكن عموماً حصر هذه المؤسسات والأجهزة في التالي:

- **البرلمان الأوروبي**
- **مجلس الاتحاد الأوروبي**
- **المفوضية الأوروبية**
- **محكمة العدل الأوروبية**
- **مجلس المدققين**
- **بنك الاستثمار الأوروبي**
- **المجلس الاقتصادي والاجتماعي**

٢. السياسة الخارجية والأمنية للاتحاد الأوروبي

تحركت دول الاتحاد الأوروبي لوضع البذور الأولى للعمل المشترك، عبر حيازة سياسة خارجية وأمنية مشتركة بدا واضحاً مع التحول لإعلان الاتحاد الأوروبي بعد اتفاقية ماسترخت عام١٩٩١م، تم إنشاء ثلاث دعامات أساسية للاتحاد الأوروبي وتشمل:

الدعامة الأولى: الجماعة الاقتصادية الأوروبية؛

الدعامة الثانية: السياسة الخارجية والأمنية المشتركة؛

الدعامة الثالثة: الشؤون الداخلية والعدالة.

وقد تضمن الباب الخامس من **اتفاقية ماسترخت** الأحكام الخاصة **بالسياسية الخارجية والأمنية المشتركة**، وجاءت صياغة أهداف السياسة الخارجية والأمنية وفق الآتي: **حماية القيم المشتركة، المصالح الأساسية، استقلال الاتحاد، تعزيز أمن الاتحاد والدول الأعضاء، وفيما يتعلق بكل أشكال الأمن، تنمية الديمقراطية ودولة القانون وتعزيزها وإصدار اتفاقية احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية.**

ثانياً: سياسة الاتحاد الأوربي للشراكة والتعاون مع العالم العربي

يرى معظم المحللين الاستراتيجيين، أنّ منطقة البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط تعد **منطقة عدم استقرار اجتماعي واقتصادي**، بالإضافة لوجود **تيارات جماعية من الهجرة غير الشرعية فضلاً عن ازدياد حدة الصراعات الدينية والثقافية**، التي أدت بدورها لتعدد المؤسسات السياسية والاقتصادية في تلك المنطقة، وبالتالي تغيرت مفاهيم الأمن واختلفت الأخلاقيات والقوانين الدولية المتعارف عليها.

١. النظام الأوروبي للأمن والتعاون

يحتل الأمن والتعاون أهمية خاصة في العلاقات الأوروبية الدولية، لقد أثمرت وثيقة هلسنكي عام ١٩٧٥م لتحقيق ثلاثة أهداف: **ضمان الأمن؛ التعاون الاقتصادي؛ تنظيم وتطوير نظم الاتصالات.** وتحاول أوروبا عبر تطبيق هذه المبادئ والقواعد للعمل المُشترك أن تظهر كقوة اقتصادية وتكنولوجية، مؤثرة في التوازن الدولي، وأن تضع سياسة تعكس رؤيتها الخاصة للمُشكلات الدولية.

بعد هلسنكي، جاء **مؤتمر باريس للأمن والتعاون**، الذي انعقد عام ١٩٩٠م ليُشكل الصورة الجديدة لأوروبا، بعد نهاية الحرب الباردة، وبداية عصر جديد يرتكز على اللامركزية ويتجه نحو التكاملية. مما فرض على الدول الأوروبية ضرورة وضع **قواعد عمل جديدة لبناء نظام للأمن، ومن خلال تطوير هيكلية وقدرات المؤسسات الأوروبية المُتخصصة، لكي تكون فاعلة في صيانة السلم الدولي. وبناء آليات لمعالجة النزاعات ومنع نشوب الحرب وصيانة السلام، عبر التعاون ونبذ الصراع.**

يبدو أنَّ التحولات العميقة التي طرأت على صعيد العلاقات الدولية، في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية، بعد نهاية الحرب الباردة، قد انعكست إيجابياً للتمهيد لظهور أوروبا الموحدة لكي تلعب دوراً فاعلاً في العلاقات الدولية، بفعل تنامي قدراتها الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية والعسكرية مما يعطيها أهمية جيوسياسية استثنائية، تدفعها لتوسيع مجالها الجيواستراتيجي ليشمل: **حوض المتوسط، والشرق الأوسط وشمال إفريقيا والخليج العربي، حيث الثروات والمعادن والبترول والاسواق.** وطرح الاتحاد الأوربي مجموعة مبادئ لضمان الاستقرار في هذه المناطق وفق الآتي:

١. احترام حقوق الإنسان والأقليات

٢. الديمقراطية والمساواة بين الدول

٣. الحرية الاقتصادية والضمان الاجتماعي

٤. احترام سيادة وحياد الدول

٥. التعاون مع دول جنوب المتوسط والخليج العربي

وترى الدول الأوروبية، بأن **فرص تحقيق السلام والاستقرار في منطقة الشرق الأوسط مازالت محدودة**، لعدم التوصل لوضع حلول جدية، حقيقية وعادلة، للعوامل المُثيرة للتوتر. لذا ستبقى هذه المنطقة، مجالاً يهدد الأمن

الأوروبي، اقتصادياً وسياسياً. ولمعالجة إشكالية الأمن الأوروبي، أكد **دوغلاس هيرد** Douglas Hurd وزير خارجية بريطانيا الأسبق: **على أهمية بناء هياكل تضمن الدفاع عن الأمن الأوروبي، على ان تكون جزءاً مكملاً لمنظمة حلف شمال الأطلسي للدفاع عن المصالح الأوروبية.**

ثم جاء مقترح **رولان دوما** Roland Dumas، وزير خارجية فرنسا الأسبق، بالدعوة **لتشكيل الفيلق الفرنسي-الألماني**، ووضعه تحت إمرة الاتحاد الأوروبي، ليستطيع الدفاع عن الأمن الأوروبي. **فان كلين**، الأمين العام لاتحاد أوروبا الغربية، اقترح **تشكيل قوات أوروبية متعددة القوميات**، إلى جانب قوات أمريكية – أوروبية بإمكانها الانفتاح، **للرد على التهديدات المُحتملة**، ويطلق عليها **قوات رد الفعل السريع**، تكون بحجم فيلق من الدول الأوروبية مع إسناد جوي أمريكي، **لخلق نظام للدفاع الجماعي عن الأمن الأوربي.**

٢. استراتيجية الأمن الأوروبي عبر الشرق الأوسط والخليج العربي

وضعت الاستراتيجية الأمنية الأوروبية، اعتماداً على بناء منظومات جديدة، لضمان السيطرة على الثروة النفطية والأسواق ولمواجهة احتمالات، أو نتائج عدم الاستقرار والتوتر السياسي، **بفعل انعدام التوازن والاختلال في علاقات القوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية، بين دول الشمال الصناعية الرأسمالية، ودول الجنوب النامية.**

لقد دفع وجود إسرائيل وما سببته من حروب في المنطقة، إلى قيام الأنظمة العربية للإنفاق على التسلح أو على برامج تصنيع السلاح، مما أثر في خفض معدلات التنمية البشرية والاقتصادية والسياسية، ودفع المنطقة العربية نحو بيئة من العلاقات المتوترة. ولعبت الدول الأوروبية، دوراً متنامياً في تشجيع سباق التسلح، خدمة لمصالحها الاستراتيجية والاقتصادية، الإقليمية والدولية، تحت ذرائع مختلفة، منها: تعديل الخلل في الميزان التجاري، الناتج عن ارتفاع أسعار البترول، ولامتصاص الفوائض من الأموال العربية (**البترو دولار**).

لقد شخص الرئيس **فاليري جيسكار ديستان** Valéry Giscard d'Estaing، أهمية منطقة البحر المتوسط والخليج العربي، بقوله: **إن هذه المنطقة، تعتبر بالنسبة لفرنسا وأوروبا مركز الثقل، ونقطة التقاء المحاور بين الشمال والجنوب في إطار العلاقات الدولية.** وهذا ما يدعونا للاعتقاد، بأن القوة التي ستسيطر على مسرح عمليات البحر المتوسط، وعلى عمليات المحيط الهندي، ستفرض سيطرتها بالتأكيد على الخليج العربي خصوصاً والشرق الأوسط عموماً.

لذا تحاول الدول الأوروبية، **توسيع فرص تحقيق السلام والأمن، من خلال الحوار للاتفاق على مبادئ، لبناء نظام للسلم والأمن والتعاون في منطقة البحر المتوسط والشرق الأوسط**، في إطار المبادئ والأفكار المتبناة في مؤتمر التعاون والأمن في أوروبا، وعلى الصعد الثلاثة: **الاقتصادية، الأمنية، الإنسانية.**

وجاء انعقاد **مؤتمر مدريد للسلام** عام ١٩٩١م، لوقف العنف في الشرق الأوسط، ولبناء إطار جديد للأمن في المنطقة، حيث أكدت الدول الأوروبية على أهمية: **الالتزام بمبدأ الأرض مقابل السلام، ورفض مبدأ ضم الأراضي بالحرب، وتحقيق سلام عادل ودائم وشامل، وضمان حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وحماية الاستقلال السياسي لدول المنطقة، وضمان حرية الملاحة في المياه الإقليمية والدولية، أي توفير بيئة إقليمية تتوازن فيها المصالح لتحقيق الأمن والاستقرار.**

إضافة للأزمات التي تهدد الأمن في المتوسط والشرق الأوسط، تشكل مشكلات التخلف الاقتصادي والاجتماعي، ظاهرة خطيرة، تدفع نحو اتساع ظاهرة الفقر، وانعدام العدالة والمساواة بين الدول النفطية وغير النفطية، مما يؤدي لتكوين بيئة اجتماعية تبرر انتشار العنف السياسي، هكذا تترابط أزمات المنطقة نتيجة لعدم التوصل لإيجاد حلول للمُشكلات الجوهرية.

ولمواجهة التحديات الدولية الراهنة، يعتقد **إيف بونيية** Yves Bonnet: **أن أوروبا والبلدان العربية يكونان مجالاً حيوياً للشراكة والتعاون، لذا على أوروبا تنظيم علاقات جديدة من خلال التعاون المُشترك، انطلاقاً من الحقائق الجغرافية التي تجمعنا، عبر توسيع علاقات التبادل الاقتصادي والثقافي والروحي، فالمطلوب بناء عالمنا المشترك، عبر الاستفادة من دروس التاريخ العالمي.**

كما يشير الرئيس الأسبق لجهاز الاستخبارات الفرنسية (D.s.t) إيف بونيية، إلى أهمية تحول أوروبا إلى شريك اقتصادي للدول العربية، أي ألا يكون التبادل بين أوروبا والبلدان العربية، تبادلاً بين بائعي بترول ومنتجي مواد مُصنعة، لأن هذا النمط من العلاقات التجارية لا يحقق توازناً اقتصادياً. **فالتوازن يتحقق عبر ضمان توازن في التبادل الاقتصادي، أي أن يتماثل التوازن بين قدراتنا الإنتاجية وميزاننا التجاري، مما يوفر فرص عمل مُشتركة ويطور الإنتاج.**

نستنتج أن التأريخ والجغرافية يكونان عوامل دفع لبناء شراكة أوروبية متوسطية، لأن ما يجمع أوروبا بالبلدان العربية، وفق تصور **جان بيير شوفنمان** Jean-Pierre-Chevenement، **هو العلاقات الإنسانية المُشتركة، والتعاون الثقافي وتطوير العلاقات في مجال التكنولوجية، لبناء مجال حيوي مُشترك بين شعوبنا، للحوار والتعاون والتقدم، على قاعدة من المساواة.**

نستخلص، وجود أهمية استراتيجية للتعاون والشراكة بين الاتحاد الأوروبي ودول جنوب المتوسط في المجالات والمستويات المختلفة، حيث يمثل الاتحاد الأوروبي أهم شريك اقتصادي وتجاري لبلدان الشرق الأوسط والخليج العربي وجنوب المتوسط، لقد شكل مؤتمر برشلونة عام ١٩٩٥م، والعديد من المؤتمرات العربية الأوروبية التي سبقته، تحولات جوهرية في مسار علاقات الشراكة والتعاون بين ضفتي المتوسط لضمان الأمن والاستقرار والتنمية ومواجهة التحديات المشتركة.

ثالثاً: الشراكة الأوروبية المتوسطية

ساد جو من التفاؤل بعد مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١م، وفى خضم هذه التحولات،

نجحت الدول الأوروبية في تهيئة الأجواء والإعداد، لعقد مؤتمر دولي في برشلونة، للفترة من ٢٧ – ٢٨ نوفمبر ١٩٩٥م. وبعد المحادثات تبنى المجتمعون: «**إعلان برشلونة**» أو «**الشراكة الأورومتوسطية**» الذي تضمن ثلاثة جوانب أساسية للتعاون:

١. **التعاون في المجالين السياسي والأمني**: تحويل منطقة البحر المتوسط الى منطقة امن وسلام، عبر مجموعة آليات: عقد مؤتمر سنوي على مستوى وزراء خارجية الشراكة الأورو- متوسطية، يهدف الى تقويم ما تم إنجازه وتذليل العقبات أمام ما لم ينجز من بنود المشروع، كذلك التعاون في مجال تبادل المعلومات في الجانب الأمني وإنشاء قاعدة بيانات مشتركة وتكوين خلايا أزمات أثناء الضرورة، لمواجهة العنف والجريمة المنظمة، وأخذ التنسيق الأمني أشكالاً متباينة لمواجهة ظاهرة الإرهاب.

٢. **التعاون في المجالين الاقتصادي والمالي**: جعل المنطقة تشترك في الرفاهية والازدهار، والعمل على تحسين الأوضاع الاقتصادية لمنطقة المتوسط، عبر إنشاء منطقة للتجارة الحرة بحلول عام ٢٠١٠م، وبناء آليات عمل متمثلة في تشكيل لجان مالية لدعم مشروعات التنمية، ودعم سبل الاستثمار، عن طريق منح المساعدات والقروض الميسرة. لقد استفادت عملياً من المشروع أغلب دول الشراكة بنسب متفاوتة.

لقد راهن إعلان برشلونة على تحقيق معدلات معقولة، من النمو الاقتصادي لدول جنوب المتوسط، وتضيق الفوارق التنموية بين الضفتين، عبر إعادة جدولة ديون بعض الدول، ومساعدتها على تنفيذ برامج إصلاحية في قطاعات العمل والإنتاج، وتنفيذ مشاريع استثمارية، وتشجيع الأنشطة الاقتصادية للقطاع الخاص.

٣. التعاون في المجال الاجتماعي: ويتضمن تشجيع الحوار بين الثقافات والأديان المختلفة ودعم المؤسسات الأهلية وتبادل المنح الدراسية. وتتضمن الشراكة الثقافية حزمة من المشاريع، المطلوب تنفيذها في دول جنوب المتوسط، تتعلق بإصلاح: التعليم، القضاء، الزراعة وتنمية الموارد البشرية.

نستخلص أن الشراكة الأورومتوسطية، تستهدف تحقيق التبادل السياسي المستمر لبناء السلام والاستقرار الدائم في المنطقة، وتقديم مساعدات مالية مباشرة لإقامة منطقة تجارة حرة بحلول عام ٢٠١٠م من أجل تحقيق الرفاهية للطرفين. كما تهدف هذه العملية إلى إقامة مشروعات تبادل ترمي إلى التقارب بين شعوب هذه الدول وتحسين التفاهم بين ثقافاتها.

أولاً: قضية السلام في الشرق الأوسط

تحتل قضية الأمن والسلام في الشرق الأوسط أهمية استثنائية لمعالجة مختلف قضايا الأمن والتعاون الإقليمي، فقبل إنجاز سلام عادل وشامل، لا يمكن للدول العربية التعاون مع إسرائيل في إطار منظومة الشراكة الأورومتوسطية، بفعل انعدام الثقة بين الطرفين، وعدم التزام إسرائيل بقرارات الشرعية الدولية، ورفضها الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في دولة مستقلة ذات سيادة، وتمسكها باحتلال الأرض العربية في الجولان وجنوب لبنان.

لذا تتحمل مجموعة الدول الأوربية، مسؤولية أخلاقية ومادية، للمشاركة في ضمان سلام عادل وشامل في الشرق الأوسط، لكي تستطيع الدول العربية تفعيل دورها في الشراكة المتوسطية، أمنياً وسياسياً، وتوسيع نطاق التعاون الاقتصادي، وبخلافه فلا يمكن الحديث عن إجراءات للتعاون في مجال بناء منظومة للأمن المتوسطي، قبل تحقيق السلام الشامل، **لأن الذي يفصلنا عن أوربا**، كما يقول الدكتور جمال حمدان، **ليس البحر وإنما إسرائيل.**

ثانياً: مواجهة الإرهاب

يتطلب القضاء على الإرهاب، تعاوناً دولياً متعدد الأطراف، وتستطيع الدول العربية في إطار إعلان برشلونة، التوصل لصيغة عمل مشتركة مع المجموعة الأوربية، لمكافحة الإرهاب ومصادر تمويله، وفق صياغة مدونة قواعد سلوك أور ومتوسطية لمكافحة الإرهاب، وكشف ارتباطاته بشبكات الجريمة المنظمة، العابرة للقوميات.

ثالثاً: مُشكلات الهجرة

ترتبط ظاهرة الهجرة غير الشرعية، بمجموعة عوامل اجتماعية واقتصادية، مما يتطلب العمل والتعاون المشترك، لمواجهة جذورها في دول جنوب المتوسط، وتقديم المساعدات الاقتصادية ودعم الجهود لتحقيق التنمية الشاملة، وتنظيم الرقابة على الآليات المتعلقة بطرد المهاجرين ومنع الإجراءات التعسفية والإنسانية التي تُتخذ بحقهم من قبل السلطات الأوربية. ويفترض أن تتبنى الدول الأوربية إجراءات لحماية حقوق المهاجرين الإنسانية واحترام الحقوق الثقافية وتطبيق برامج إنسانية لدمجهم في المجتمعات الأوربية، بعيداً عن التمييز العرقي أو الديني والثقافي.

إن دول الشمال ستبقى معنية بتهديدات أمنية اجتماعية واقتصادية، طالما وجد الفقر والفساد في دول الجنوب، ولضمان الأمن الأوربي في منطقة حوض المتوسط، **لابد من تحقيق التنمية في بلدان الجنوب، ولا تنمية بدون تعاون مالي واقتصادي واجتماعي.**

وبالمقابل فإن **دول الجنوب** التي تنتظر منذ عقد من الزمن نتائج ملموسة تعيش حالة نكوص غير معلن، لأن روح **إعلان برشلونة**، استهدف **تحقيق الإصلاحات الاقتصادية في هذه الدول وإلغاء الحواجز الجمركية وتحويل حوض المتوسط إلى منطقة للتبادل الحر في عام ٢٠١٠**، وهو مالم يتحقق إلا

بصورة محمودة، مما دفع بلدان جنوب المتوسط للبحث عن بدائل إقليمية أو لدى الولايات المتحدة الأميركية، وهذا ما تحقق بالنسبة للمغرب والأردن ومصر.

ويبدو أن **اتفاقية برشلونة، قد أفرغت من محتواها الاقتصادي**، وتحولت إلى مطالب سياسية **تعتمدها دول الاتحاد الأوروبي لحماية مصالحها الاستراتيجية وأمنها القومي، لكن هذه السياسة، لا يمكنها الاستمرار، لأن الولايات المتحدة الأميركية ستبحث عن دور استراتيجي، بعد الخروج من حروبها في الشرق الوسط.**

ملاحظات حول علاقات التعاون التجارية والمالية الأورو متوسطية

لقد تعرض الاقتصاد العربي لعدد من الاضطرابات، **فبعد أن كان متمتعاً بالاكتفاء الذاتي في المجال الزراعي والغذائي، أصبح مستورداً لأكثر من٧٥ ٪ من احتياجاته الغذائية**، وتمتعت العديد من الدول النفطية بفائض مالي كبير، لكن **المديونية العربية تفوق اليوم ٤٠٠ مليار دولار**، كما تؤكد الأرقام أن **الناتج المحلي الإجمالي للمجموعة الأوربية يساوي ٢٠ مرة الناتج المحلي الإجمالي للمجموعة العربية**، وأنّ معدل **دخل الفرد الأوربي يفوق ١٥ مرة معدل دخل الفرد العربي.**

وباستثناء القروض وبعض المساعدات الأوربية للدول العربية، فلا يوجد للاستثمارات الأوربية المباشرة دور يذكر، **فنصيب الدول العربية لا يتجاوز ١,٢ ٪ من إجمالي الاستثمارات المباشرة العالمية**، بما فيها الأوربية، أي **ما يعادل ٣ مليارات دولار مقابل ٦٥ مليار لأمريكا الجنوبية و٦٥ مليار لدول جنوب شرق آسيا** خلال عام ١٩٦٥م، بينما تصل **الاستثمارات العربية المباشرة في أوربا لأكثر من ٧٥٠ مليار دولار.**

لذا يفترض بذل الجهود، للانتقال بالتعاون المالي والمصرفي، من ظاهرة الاستثمارات من جانب واحد، إلى **دعم حركة انتقال رؤوس الأموال، والقدرة على تسوية المدفوعات المترتبة على العلاقات التجارية**، لضمان المشاركة

الأوربية الفعالة في تنمية البلدان العربية، عبر **الانفتاح الاقتصادي والعمل على تحديث المؤسسات المالية لجذب الاستثمارات الأجنبية.**

لقد ساهمت التطورات الدولية، **بتشجيع العديد من الدول العربية لإجراء إصلاحات على التشريعات الخاصة بالأجهزة المالية والمصرفية، مما دفع لتزايد نشاط البنوك الأوربية التي وصل عددها لأكثر من ٢٤٠ فرعاً في البلدان العربية. كما تركز انتشار المصارف العربية في لندن وباريس ولوكسمبورغ، والذي ساهم في تنشيط العلاقات الاقتصادية.**

لمواجهة الوضع الراهن للعلاقات الاقتصادية الدولية، **يفترض أن تحقق الدول العربية مستوى متطور من النمو الاقتصادي والقدرة على تنمية التكنولوجية، لتعظيم العوائد،** أي أن تتوحد المجموعة العربية اقتصادياً للدخول إلى اقتصاد العولمة، كما فعلت أوربا. **فالعولمة، يمكن إن تضمن تحرير القوى الاقتصادية، تنمية الموارد الطبيعية والبشرية، كما تؤدي المشاركة في التجارة الدولية إلى تدفق الاستثمارات.**

إن لتدفق الاستثمارات الأوربية للبلدان العربية، أهمية خاصة، لأنها تنقل التكنولوجية والخبرات الصناعية، كما تساهم في تنوع بنية الإنتاج، وتوسع من القدرات التصديرية. عند الحديث عن دائرة الاستثمار، **نقصد أن الاستثمار يغذي الإنتاج ويوسع التجارة.** لذا، **يفترض إعادة النظر في العلاقات العربية الأوربية، خصوصاً في مجال السياسة الاقتصادية والتجارية، كما في مجال الاستثمار الذي يغذي الإنتاج، والاستثمار الذي يغذي التجارة.** وهذا يتطلب إيجاد أطر قانونية، تمهد للدخول في معاهدات اقتصادية وتجارية متعددة الجوانب.

تبني نظام يسمح بحرية الحركة للأموال، وحرية التحويل من داخل البلدان العربية إلى الخارج وبالعكس، وتطوير النظم القانونية الضامنة لحقوق الملكية الخاصة للأجانب، وإلغاء القوانين التي تقيد ملكية الأجانب

بما لا يزيد عن ٤٩٪ من المشاريع، وهذا لن يتحقق إلا بالاعتراف المتبادل بالتشريعات الخاصة بالشركات.

وضع نظام للحوافز وليس للعقوبات، مما سيوفر الحرية لكل بلد لاستقطاب الاستثمارات للقطاعات الاقتصادية وفق الأولويات الوطنية، دون اللجوء لفرض عقوبات مالية أو إجرائية على الاستثمارات التي تخرج عن الأفضلية. مما سيسمح للشراكة الأورومتوسيطية، وبدعم من الدول الأوربية، من التحول إلى **تحالف من أجل التنمية**، الاقتصادية والتكنولوجية.

تحويل مفهوم مناطق التجارة الحرة، من مناطق لتبادل السلع، إلى مناطق لاستقطاب الاستثمارات التي تسمح بنقل التكنولوجية، وتطوير القدرات العلمية العربية لإنتاجها.

نستخلص، أن توسيع العلاقات التجارية، وتمويل مشروعات البنية الأساسية، بين الضفتين، يؤدي الى توثيق أواصر التعاون المصرفي بين المجموعتين العربية والأوربية، ويكتسب أهمية خاصة، في ظل تحرير التجارة العالمية، على صعيد السلع والخدمات، وتدويل أسواق المال، وانتشار مفهوم اقتصاديات السوق على نطاق واسع، **واتساع ظاهرة الاندماج في الاقتصاد العالمي**، مما يوجب على المجموعتين الأوربية والعربية وضع قواعد وأسس لإدارة الشراكة، التي تأخذ في حساباتها **التكلفة والعائد والمزايا المتبادلة** للمشاريع الاقتصادية المُشتركة.

رابعاً: مسؤولية الدول الاوربية الأخلاقية تجاه المأساة الفلسطينية

تتحمل الدول الاوربية المسؤولية الأخلاقية لكل ما تعرض له الشعب الفلسطيني من استلاب أرضه وتهجيره وتعرضه للعنف والقمع المُستمر منذ إعلان قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م وعلى مدى عقود من الزمن. وجاء إعلان **بينيامين نتنياهو: «إن المستوطنات ستصبح جزءاً من إسرائيل»، ليعبر** عن رغبته الدينية ولأسباب عقائدية تتعلق بقناعة تقوم على: **أن الضفة الفلسطينية**

هي قلب التراث اليهودي، واستجابة لتطلعات المتدينين المتشددين. ويعيش نحو ٤٣٠ ألف يهودي فيما يزيد على ١٣٠ مستوطنة التي بُنيت منذ احتلال إسرائيل للضفة الغربية في حرب حزيران عام ١٩٦٧م، وتعتبر المستوطنات غير شرعية بموجب القانون الدولي.

لقد أيقظت خطة بينيامين نتنياهو لضم أراضي الضفة الغربية الضمير العالمي والذي تبدى من خلال المواقف الرسمية والاحتجاجات الشعبية والرسمية في العديد من دول العالم بشكل عام والدول الاوربية بشكل خاص. حجم الاحتجاج العالمي وصلابة الموقفين الأردني والفلسطيني قد يؤدي بنتنياهو لتغيير خطة الضم، والتي كان من المتوقع أن تبدأ في الأول من شهر تموز ٢٠٢٠م، إما باتجاه التأجيل أو الضم على مراحل او كليهما وذلك لتفادي ردود الأفعال المحتملة على كافة المستويات المحلية والدولية.

المطلوب من الدول الأوربية والمجتمع الدولي العمل لكبح جماح السياسات الإسرائيلية المتطرفة وإنصاف الشعب الفلسطيني على أرضه عبر الاعتراف بالدولة الفلسطينية على أراضي الرابع من حزيران والذهاب للأمم المتحدة لإنفاذ هذا الاعتراف. لقد كانت بريطانيا مسؤولة عن بداية المشكلة منذ صدور وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني عام ١٩١٧م بإنشاء «**وطن قومي لليهود» في فلسطين**، علماً أنه في عام ١٩١٧م كانت نسبة اليهود ١٠ ٪ والبقية عرب. كما تتحمل الولايات المتحدة الامريكية، الدعم المستمر لإسرائيل عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وعلى جميع المستويات، لذا يقع على عاتق الدول الأوروبية والمجتمع الدولي المسؤولية الاخلاقية لتصويب هذا الخلل التاريخي.

لقد حذر العاهل الأردني **جلالة الملك عبد الله** في ١٤ تموز ٢٠٢٠م (رويترز): «**من أن أي تحرك إسرائيلي أحادي الجانب لضم أراض في الضفة الغربية المحتلة سيثير حالة من عدم الاستقرار**». ونقل بيان للقصر عن

جلالة الملك قوله لأعضاء لجنتي الشؤون الخارجية والدفاع في مجلس العموم البريطاني: «**إن ضم إسرائيل لأراض في الضفة الغربية، سيبدد الآمال في التوصل إلى تسوية نهائية للصراع العربي الإسرائيلي المستمر منذ عقود**». وأضاف **جلالة الملك** قائلاً: «**إن إقامة دولة فلسطينية مستقلة على الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب ١٩٦٧ وعاصمتها القدس الشرقية هو السبيل الوحيد للتوصل إلى سلام شامل ودائم في الشرق الأوسط**».

ويقود الأردن حملة دبلوماسية مع معظم الدول الأوروبية الأخرى، التي تعارض الخطط الإسرائيلية الرامية لضم أجزاء من الضفة الغربية المحتلة، في إطار خطة تروج لها إدارة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب. وحذر **جلالة الملك عبد الله**، وهو حليف قوي للولايات المتحدة الأمريكية: «**في الشهور القليلة الماضية من أن السياسات الإسرائيلية، وكذلك خطة ترامب للسلام، ستقودان إلى صراع، فضلاً عن توجيه ضربة للعلاقات الإسرائيلية الأردنية**».

لقد جوبهت خطط إسرائيل لضم الأراضي المحتلة، باعتراضات واحتجاجات من مئات النواب الأوروبيين، حيث وقع ١٠٨٠ برلمانياً أوروبياً من ٢٥ دولة على رسالة تعارض بشدة خطط إسرائيل لضم أجزاء من الضفة الغربية المحتلة. وتثير الرسالة «**مخاوف جدية**» بشأن المقترحات وتدعو إلى اتخاذ ردود مناسبة لتجنب: «**احتمالات زعزعة الاستقرار**» في المنطقة. ومن بين الموقعين على الرسالة أكثر من ٢٤٠ نائباً بريطانياً. ويقول مراسل بي بي سي في القدس توم بيتمان: **إنّ الرسالة مؤشر على وجود ضغوط دولية متزايدة بشأن مقترحات خطة ترامب للمنطقة.**

ومن بين الموقعين البريطانيين عليها، زعيم حزب المحافظين السابق اللورد هوارد والمفوض السابق للاتحاد الأوروبي اللورد باتن والبارونة بولين نيفيل جونز وهي وزيرة مكافحة الإرهاب السابقة التي كانت ترأس سابقاً لجنة المخابرات

المشتركة في المملكة المتحدة. كما تمّ التوقيع عليها من قبل ٣٥ عضواً من حزب العمال، بما في ذلك وزيرة خارجية الظل ليزا ناندي. وأعد الرسالة الرئيس السابق للبرلمان الإسرائيلي، أفراهام بورغ، إلى جانب ثلاث شخصيات عامة أخرى في إسرائيل ولطالما دعم هؤلاء حلّ الدولتين.

وتقول الرسالة إن خطة الرئيس ترامب: **تعزز «سيطرة إسرائيل الدائمة بشكل فعال على منطقة فلسطينية مجزأة، تاركة الفلسطينيين من دون سيادة وتعطي الضوء الأخضر لإسرائيل لضم أجزاء كبيرة من الضفة الغربية من جانب واحد»**. وتحذّر الرسالة من أنّ السماح للضمّ بأن يمر «**من دون الطعن به**» من شأنه أن يشجع الدول الأخرى التي لديها مطالبات إقليمية على «**تجاهل المبادئ الأساسية للقانون الدولي**». ولم يصل المسؤولون في الرسالة إلى حد المطالبة صراحة بفرض عقوبات على إسرائيل في حالة قيامها بهذه الخطوة.

كما حذر رئيس الوزراء البريطاني **بوريس جونسون**، إسرائيل من خطة الضم ووصفها بأنها: «**انتهاك للقانون الدولي**» (BBC 1 **تموز ٢٠٢٠م**). وعبر عن خشيته من ألا تحقق مقترحات نتنياهو «**هدفها المتمثل في تأمين حدود إسرائيل**»، وحث إسرائيل على عدم المضي في ضم أجزاء من الضفة الغربية المحتلة، وقال: **إن ذلك سيكون غير قانوني و«مخالف» لمصالح البلاد.**

وفي صحيفة الغارديان، في ٢٣ حزيران ٢٠٢٠م، وجه أي شلايم، **دعوة لبريطانيا للاعتراف بفلسطين، لتصحيح أخطاء وعد بلفور**. ويرى أي شلايم: **أن سرقة أراضي الفلسطينيين موروث عن الاحتلال البريطاني، وعليه فإن بريطانيا مطالبة بالوقوف ضد سياسة الضم التي تنتهجها إسرائيل**. ويذكر أي شلايم **أن بوريس جونسون** وصف **وعد بلفور** في كتابه: «**سيرة وينستون تشرتشل**»، **٢٠١٤م، بأنه: «غريب»، «ومجانب للصواب تماماً»، «وقبيح»**.

ويقول الكاتب أي شلايم: **إذا مضت الحكومة الإسرائيلية في مشروعها بضم ٣٠ في المئة من الضفة الغربية فإن الفلسطينيين لن يبقى لهم من**

فلسطين التاريخية إلا نسبة ١٥ في المئة. ويضيف أن بريطانيا انضمت إلى مجموعة من الدول الأوروبية التي تعترض على سياسة ضم أراضي الفلسطينيين التي أعلنت عنها إسرائيل، ولكن لم تعلن أي دولة أوروبية باستثناء السويد اعترافها بدولة فلسطين.

وسبق أن اقترح زعيم حزب العمال البريطاني السابق جيريمي كوربن على الحكومة الاعتراف بدولة فلسطين تزامناً مع ذكرى إعلان وعد بلفور، لكن بوريس جونسون، الذي كان وزيراً للخارجية لم يستجب لهذا الطلب. ويرى آي شلايم: أن اعتراف بريطانيا بدولة فلسطين سيكون بمثابة تكفير عن الأخطاء التي تضمنها وعد بلفور.

وتعبيراً عن اعتراضات الرأي العام البريطاني، ناقشت الصحافة «اقتراحاً بحظر استيراد بضائع الضفة الغربية»، وأشارت هاريت شيروود في صحيفة الاوبزرفر في ٢٨ حزيران ٢٠٢٠م: إن ليزا ناندي وزيرة الخارجية في حكومة الظل طالبت حكومة رئيس الوزراء بوريس جونسون بحظر دخول البضائع القادمة من الضفة الغربية كنوع من العقوبات ضد الحكومة الإسرائيلية في حال مضى رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو في خططه لضم الضفة. ونقلت هاريت عن ليزا قولها: «هذه الخطوة بحاجة لإظهار شجاعة من جانب الحكومة، لكن الوزراء غير راغبين في ذلك حتى الآن، رغم أن هذا الخرق الواضح للقانون الدولي يجب أن يكون له عواقب».

وتوضح هاريت أن نتنياهو كان قد تعهد ببسط سيادة إسرائيل على نحو ثلث أراضي الضفة الغربية المحتلة بدءاً من الأول من تموز رغم الرفض الدولي المتزايد والتحذيرات المتتالية من أن هذه الخطوة ستقتل أي فرص لإقامة دولة فلسطينية في المستقبل، مضيفة أن جونسون أخبر أعضاء مجلس العموم بأن لندن أبلغت الحكومة الإسرائيلية رسمياً «اعتراضها القوي» على

ضم أراض في الضفة الغربية وأكدت استمرار دعمها لحل الدولتين كمبدأ لحل الصراع. وتنقل **هاريت شيروود** عن **ليزا ناندي** تأكيدها: **أن لندن لا ينبغي أن تتراجع أمام الضغوط الاقتصادية وتتخلى عن مسؤولياتها الأخلاقية،** قائلة: «**لو تخلينا عن دورنا الأخلاقي والقرارات التي يجب اتخاذها، فإن العالم بأكمله سيدفع الثمن طوال فترة طويلة قادمة**». وتعبيراً عن السياسات المتشددة، كتب سفير إسرائيل في واشنطن **رون ديرمر**: **إنّ إسرائيل «تعتزم مد سيادتها إلى مناطق ستبقى جزءاً من إسرائيل في أي اتفاق سلام واقعي».**

الديمقراطية التوافقية الدستورية
طريق التسوية الدائمة في الوطن العربي

عبد الحميد سيف الحدّي*

لا شك أن موقف القوى القومية العربية في نضالها ضد التواجد العثماني في الوطن العربي في الحرب العالمية الأولى وتعاونها مع الحلفاء على أمل أن تحقق ما تطمح إليه من استقلال ونهوض حضاري بأقطارها، قد خيبته اتفاقية ١٦ مايو ١٩١٦ (اتفاقية سايس بيكو) والتي استطاعت القوى الاستعمارية وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا اللتان تقاسمتا تركة الخلافة العثمانية في أقطار أمتنا العربية.

فنجد أن بريطانيا قد تمكنت من الوجود بل والاستعمار لمنطقة الخليج العربي والعراق ومصر والسودان والأردن وجنوب اليمن وفلسطين، بينما فرنسا تمكنت بمصطلح الانتداب أن تسيطر على المغرب العربي من موريتانيا والمغرب وتونس والجزائر ولبنان وسوريا، وإيطاليا على ليبيا والصومال. وإذا بالوطن العربي بأكمله انتقل من مرحلة الخلافة العثمانية والتي كانت أقل ضرراً وأقرب قيمياً إلى قيم المجتمع العربي، وهنا نجد بأن هذا التقاسم تقاسم الوطن العربي قد أدى إلى حالة من حالات الاستعمار لأقطار أمتنا العربية. هذه نقطة تاريخية لا بد من الإشارة إليها.

إن السياسة البريطانية والفرنسية قد أوجدت شعوباً متعددة رسخت القطرية ورسخت قيم التعددية السلبية والمتنازعة، وركزت على التنوع العرقي والثقافي والديني مما أوجد حالة من حالات التناقض المجتمعي والتناقض

* عضو المجلس الاستشاري في اليمن، وعضو منتدى الفكر العربي.

القيمي بين كل أبناء أقطار الأمة العربية كحال العراق ولبنان اليوم، مما أوجد عدم الاستقرار السياسي والمجتمعي، وحافظ على حالة الركود الاقتصادي والتعليمي والسياسي ونهب الثروة، بما في ذلك مرحلة الحرب العالمية الثانية التي كان من نصيب الوطن العربي الكثير من الكوارث وإلحاق الضرر بحياة المجتمع العربي، كخلق الطائفية والتناحر بين أبناء المجتمع الواحد، ونسجت أنظمة طائفية وعنصرية ونخرت الجسد العربي بشكل عام.

ويمكن استثناءً من حالة التعدد السلبي تمكن الأمير عبدالله بن الحسين أو الملك عبد الله الأول من أن يؤسس إمارة شرقي الأردن في ١١ أبريل عام ١٩٢١ بعد مؤتمر القاهرة الذي انتزع فيه الملك عبد الله الأول من وزير المستعمرات البريطانية ونستون تشرشل الموافقة على إقامة إمارة شرقي الأردن، وكذلك في ٢٥ مايو ١٩٤٦ إعلان قيام المملكة الأردنية الهاشمية كدولة تعدّ موحدة كحالة إيجابية وحيدة في ذلك المشهد.

ولاشك أن القوى الاستعمارية حينما خرجت عسكرياً من الوطن العربي نتيجة ظهور حركة التحرر العربي وحركة عدم الانحياز تركت آثارها الاستعمارية في الوطن العربي، مما أوجد حالة من حالات التناقض القيمي والوطني ورسخت قيم الانتماء الفئوي وأضرت بالولاء الوطني للدولة.

الأمر الذي يستوجب من أبناء الأمة مفكريها ومبدعيها وقادتها أن يستنهضوا إمكانيات أمتهم العربية في بناء مجتمعات جديدة قائمة على الأسس التاريخية والاستراتيجية وإمكانيات الأمة المادية من ثروات متعددة إذا أُحسن استخدامها، لتكون هذه الأمة في مصاف الأمم المتقدمة وذلك من خلال التعددية السياسية التنظيمية والحزبية الخالية من الطائفية والفئوية والعرقية والمذهبية كنظام سياسي.

فالوطن العربي بموقعه الجغرافي في قلب الكرة الأرضية وموارده الاقتصادية المتعددة وما وهبه الله تعالى من كونه مهبطاً للرسالات السماوية الثلاث يمكنه أن يبني دوله القُطرية على طريق الأمل الكبير في وحدة الأمة بنظام جديد، وهو نظام الديمقراطية التوافقية الدستورية البرلمانية كخيار ونظام ثالث في مسيرة الديمقراطية العالمية.

ولنحقق بذلك الاستقرار والوئام بين مختلف مكونات المجتمع على طريق ترسيخ القيم الثقافية بمفهومها الجديد والاعتقادية الإيمانية والسياسية، وترسيخ حقوق الإنسان وحرية الرأي والرأي الآخر والتعايش والمساواة والعدل والعدل الاجتماعي، وتأصيل مفهوم النظام الجديد لبناء الوطن، بما في ذلك التعددية السياسية كخيار وطني عام ليس طائفياً ولا عرقياً ولا مناطقياً ولا إقصاء لأي مكون في المجتمع، وضمن هذا المفهوم القيمي الجديد يتم بناء الدولة الوطنية التي تسودها المواطنة المتساوية في الحقوق والواجبات بغض النظر عن الانتماء القومي أو المذهبي وفقاً للقواعد الدستورية والقانونية والقضاء المستقل.

وهنا لا بد من طرح سؤال، هل تستمر أقطارنا العربية في التناحر والتنازع الداخلي الطائفي والعرقي والانتماء الجهوي؟ أم تتجه كل القوى الوطنية في كل الأقطار نحو الدولة المدنية الجديدة بمؤسساتها الرسمية والمدنية والمجتمعية؟

ولكي نجيب على هذا السؤال لابدأن ندرك أن نسبة التخلف في الوطن العربي تمثّل عائقاً في تقدمه، وفي نفس الوقت لايمكن أن ننقل التجربة الأوروبية ونريد النظام البرلماني المطلق بحيث أن يأتي حزب الأغلبية الحاصل على أغلبية مقاعد البرلمان ويشكل الحكومة دون أن تشاركه بقية الأحزاب والتنظيمات والمستقلون والشخصيات الوطنية الأخرى كالأكاديميين وعلماء الإدارة والاقتصاد والعلوم المختلفة، بل علينا أن نجمع بين كل هذه الأشكال بحيث يكون رئيس الحكومة من الحزب الحاصل على الأغلبية فهو من يشكل الحكومة، لكن لا يمكن أن يكون له كل أو أغلبية الحقائب الوزارية. وإنما ثلث الحقائب الوزارية، وثلث لبقية الأحزاب والقوى السياسية الأخرى التي وصلت إلى البرلمان والثلث الأخير للمستقلين من خارج البرلمان والذين يمثلون الكفاءات العلمية والأكاديمية والوطنية القادرة على المشاركة الفاعلة في إدارة الدولة، باعتبار أن الحكومة تمثل السلطة التنفيذية والتي تعمل على تطبيق سياساتها الاقتصادية الاجتماعية والتعليمية والثقافية، وغيرها.

هنا نستطيع أن نقول إنّ هذا قيد على حزب الأغلبية حتى لا يتحول الحزب الحاصل على الأغلبية في ممارسته للسلطة التنفيذية بمفرده إلى سلطة دكتاتورية أو حكم الحزب الواحد، وهناك مثل حي حينما تولت السيدة (مسز تاتشر)

زعامة حزب المحافظين في المملكة المتحدة والتي يبلغ تاريخها الديمقراطي البرلماني ٨٥٣ سنة، قد من الاحتفاظ برئاسة الوزراء لخمس دورات انتخابية أو فصول تشريعية أي لـ ٢٠ سنة، وما كان من الشعب البريطاني أمام هذه الحالة إلا أن يطلق عليها لقب (السيدة الحديدية)، وهذا المسار التوافقي يمثل قيداً على الحزب وليس على إرادة الناخبين كما هو الحال في الولايات المتحدة. حيث إن المجمع الانتخابي يمثل في قراراته قيداً على إرادة الناخب، فهو يختار الرئيس المنتخب من خلال عدد أعضائه وهم (٥٣٨) عضواً بغض النظر عن عدد أصوات الناخبين التي حصل عليها المرشح. فمثلاً انتخابات نوفمبر ٢٠١٦م حصلت المرشحة الرئاسية السيدة (هيلاري كلينتون) على ٦٥ مليون و٨٠٠ ألف صوت بينما المرشح الرئاسي (ترامب) حصل على ٦٢ مليون و٩٠٠ ألف صوت فقط، وهنا نجد أن المجمع الانتخابي انتخب ترامب وليس السيدة هيلاري كلينتون رغم حصولها على أغلبية أصوات الناخبين.

إذاً مفهوم الديمقراطية التوافقية الدستورية هو جعل كل القوى والتنظيمات السياسية والقوى الوطنية المستقلة أن تشارك في السلطة ضمن الأغلبية البرلمانية (السلطة التشريعية) من خلال الممارسات الديمقراطية على المستوى المحلي والبرلماني، وبالتالي نعمق الوحدة الوطنية بين مختلف القوى السياسية والوطنية والاجتماعية ضمن حرية المشاركة المجتمعية، فهي وسيلة من وسائل الائتلاف الوطني التي تكون القاعدة الدستورية والقانونية حكمها. والدور البارز في تثبيت حقوق الإنسان والمساواة والعدل والعدل الاجتماعي ومن ثم تحقيق الاستقرارالسياسي والأمني للمجتمع. ومن ثم تقترب الديمقراطية التوافقية الدستورية إن لم تكن هي نفسها من الدولة المدنية التي تحافظ وتحمي كل أعضاء المجتمع، بغض النظر عن انتماءاتهم الثقافية أو الفكرية أو الدينية.

إن معضلة التخلف في الوطن العربي أعاقت السياسات التعليمية والتربوية التي لم تأخذ حقها من الاهتمام والرعاية الكافية في الخطط والبرامج والسياسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية بشكل كاف، وفي ظل الديمقراطية التوافقية الدستورية لابد من إعطاء التعليم العام والجامعي والعالي والتعليم الفني والتقني والمهني رعاية خاصة مع الاهتمام بوسائل

البحث العلمي والتعليم الحديث. فهو يمثل الأولوية القصوى للتنمية وهو القاعدة الأساسية لبناء الانسان والمجتمع.

إن مفهوم (الديمقراطية التوافقية الدستورية) بحاجة إلى إعادة النظر في النظام الانتخابي من حيث تقسيم الدوائر الانتخابية بهدف تمكين الأحزاب الصغيرة في المجتمع من الوصول إلى البرلمان. ويمكن أن يكون هناك ٥٠ ٪ من الدوائر بالقائمة النسبية لهذا الغرض و٥٠ ٪ بالدوائر الفردية ومن هنا يتحقق هدف المشاركة المجتمعية في العملية الانتخابية على مستوى البرلمان ومجالس الأقاليم أو المحافظات.

إن الديمقراطية التوافقية الدستورية تترسخ من خلال حرية المواطن في الاختيار والمشاركة في المسؤولية السياسية عبر الانتخابات البرلمانية والمحلية كممارسة ديمقراطية مباشرة في انتخاب من يمثله في مجالس الأقاليم أو المحافظات وكذلك البرلمان. ولكي تكتمل هذه الممارسة لابد أن يشعر المواطن بأن البرلمان هو من يمارس الديمقراطية غير المباشرة في انتخاب أعضاء المجلس الجمهوري أو رئاسة الدولة.

ولا شك أن انتخاب المجلس الجمهوري أو رئاسة الدولة من أعضاء في البرلمان يساعد في تفتيت الصلاحيات الدستورية التي قد يسوء استخدامها من قبل رئيس الجمهورية (الفرد)، بل وقد تشكل عامل للتمركز في السلطة وبالتالي تؤدي إلى فقدان الحياة الديمقراطية والتعددية السياسية والتبادل السلمي للسلطة، وكذلك أيضاً سوء استخدام الخطط والبرامج الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من الأمور في حالة ما إذا استمرت السلطة في يد الفرد الواحد. بل قد تعيق التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتكنولوجي والحضاري والاستقرار الأمني للمجتمع الجديد.

إن الديمقراطية التوافقية الدستورية تمكن القيادة الجماعية المتمثلة بالمجلس الجمهوري أو رئاسة الدولة من التناوب على رئاسة المجلس سنوياً، وتولد لديهم المسؤولية الوطنية والتنافس في حُسن أداء المجلس لمسؤولياته، وإذا كان المجلس مكوناً من ٣ أو ٥ أعضاء، فإن الرئاسة تكون دورية بين أعضائه سنوياً ومن ثم فإن مدة المجلس الجمهوري أو رئاسة الدولة تكون بعدد أعضائه،

وعن طريق هذه الديمقراطية غير المباشرة يمكن أن يفسح المجال أمام المرأة لأن تكون أحد أعضاء المجلس، فإذا كان المجلس مثلاً مكوناً من ٣ أعضاء فلماذا لا تكون امرأة واحدة أو امرأتان في حال ما إذا كان المجلس مكوناً من ٥ أعضاء. وهذا سيمكّن المرأة من الانخراط في المساهمة في قيادة المجتمع.

وقد يقول قائل لماذا مجلس جمهوري في العصر الحاضر بدلاً عن رئيس جمهورية، فأكثر دول العالم تتمثل برئيس جمهورية، فنقول له هناك من التجارب الغنية البرلمانية والممارسات الديمقراطية والتعددية السياسية واللغوية والقومية والثقافية تأخذ بهذا النظام نظام القيادة الجماعية. فالاتحاد السويسري ومنذ ١٨٤٨ يأخذ بنظام الديمقراطية غير المباشرة بانتخاب وزرائه، حيث يجتمع كل من مجلس النواب المنتخب من الشعب وعدد أعضائه (٢٠٠) عضو ومجلس الشيوخ وعدد أعضائه (٤٦) عضواً يمثل هذا التكوين (الكنتونات أو المحافظات) والاجتماع المشترك للمجلسين ينتخب ٧ وزراء يرأس الدولة الاتحادية كل سنة وزير منهم. فليس غريباً الأخذ بنظام المجلس الجمهوري بدلاً من رئيس الجمهورية، وبذلك تكون القيادة الجماعية والتداول الرئاسي للدولة مفيداً لأقطار أمتنا العربية.

إن الديمقراطية التوافقية الدستورية تهدف في توجهاتها إلى تعميق مفهوم الفصل بين السلطات الثلاث (التشريعية - والتنفيذية - والقضائية) ولكي تكتمل التجربة الديمقراطية من خلال الرقابة على السلطة التنفيذية (الحكومة) في سياساتها المالية والنقدية والاقتصادية والاجتماعية والسياسات الداخلية والخارجية معاً. ولا بد أن يكون القضاء مستقلاً استقلالاً كاملاً بمختلف درجاته ولا يجوز لأي سلطة في الدولة التدخل في شؤونه أو في مسؤولياته وفقاً للقواعد القانونية والدستورية التي تكفل صيانته واستقلاله وعدم المساس به.

كما أن الديمقراطية التوافقية الدستورية تهدف إلى إصلاح القضاء، فالسلطة القضائية هي الميزان الحق في تثبيت احترام القواعد الدستورية والقانونية وتثبيت الأمن والاستقرار والمحافظة على حقوق المواطنين والفصل في المنازعات بينهم وبين سلطات الدولة المتعددة.

إن القضاء المستقل هو الضمانة الحقيقية لاحترام حقوق الإنسان وحرياته واحترام الرأي والرأي الآخر وحرية مختلف الأنشطة الاجتماعية والثقافية والإعلامية. وتلك هي أهم ما يتطلع إليه المواطن في أي مجتمع. فاستقلالية القضاء ومركزيته على مستوى الوطن كله يُعدّ مكملاً ومطبقاً للقاعدة القانونية التشريعية الواحدة.

إن بناء أجهزة الأمن والقوات المسلحة على أسس وطنية راسخة وقوية هي الضمانة لتطبيق القوانين وسلطة القضاء، فبدون بناء قوات مسلحة وأمن ضمن عقيدة عسكرية وأمنية وطنية لتحقيق الأمن والاستقرار والذود عن أرض الوطن وفقاً لمبدأ الولاء الوطني بعيداً عن الجهوية والتعصب الطائفي والعنصري، باعتبار القوات المسلحة والأمن أداة من أدوات الدولة الوطنية والتي تخضع لمبدأ الضبط والربط العسكري والأمني كهدف أساسي في بناء الدولة.

كما أن الديمقراطية التوافقية الدستورية لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال تثبيت التعددية السياسية وقيام التنظيمات السياسية والتنظيمات الحزبية على أساس وطني شامل، فلا يمكن القبول بأن تكون التنظيمات السياسية على أساس مناطقي أو جهوي أو فئوي أو طائفي لأن الأحزاب والتنظيمات السياسية هي المحرك المجتمعي لتفعيل مختلف سلطات الدولة وأنشطتها في المجتمع والتي تعزز حالة التنافس بينها لخدمة المجتمع وتنمية الفرد ومحيطه، وتجسد الوحدة الوطنية والترابية.

إن الديمقراطية التوافقية الدستورية إثراء وخطوة إيجابية تحافظ على الوحدة الوطنية وتضمن لكل القوى الوطنية والتنظيمات السياسية والمهتمين بالعمل السياسي المشاركة في النشاط العام على المستوى الإنتاجي والمجتمعي وعلى مستوى الانتخابات المحلية وعلى مستوى السلطات العامة.

إن الديمقراطية التوافقية الدستورية بمفهومها هذا يمكن أن تجسد أهداف ومبادئ وآمال وتطلعات مختلف القوى السياسية والمجتمعية في أقطار أمتنا العربية. إننا نؤمن بأن هذا الخيار الديمقراطي التوافقي الدستوري سيؤدي بالنتيجة الحتمية إلى استقرار مجتمعاتنا العربية واستقامة أنظمة الحكم فيها، ومن ثم تحقق التنمية المستدامة والتطور العلمي والتكنولوجي والحضاري على

مختلف الأصعدة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. ويصبح هذا النظام الثالث (الديمقراطية التوافقية الدستورية) ضمن المسار الديمقراطي العالمي من ديمقراطية مباشرة وغير مباشرة وديمقراطية توافقية دستورية، ويمكن أن يستفيد منها كل من يرغب من شعوب العالم النامي خاصة والعالم بشكل عام.

رســـائــل ثقــافيـــة

رسالة الأردن

- وثائق الاستقلال وإعلان المملكة الأردنيّة الهاشميّة

(محمد يونس العبادي)

- الذاكرة الوطنية والرواية الشفوية في الأردن

(نداء الخزعلي)

رسالة مصر

- الطبيب والمفكر وعالم المصريات / حوار مع الأستاذ الدكتور وسيم السيسي

(حاورته: شيرين نبيل)

رسالة كندا

- خطبة الهندية الحمراء إلى نساء فلسطينيات للشاعرة الكندية لي مراكل

(تقديم وترجمة: جاكلين سلام)

وثائق الاستقلال وإعلان المملكة الأردنيّة الهاشميّة

محمد يونس العبادي*

تلقي هذه المقالة الضوء على أبرز المحطات التي قادت الملك المؤسس عبدالله الأول ابن الحسين، إلى إعلان استقلال المملكة الأردنيـة الهاشمية في ٢٥ أيار ١٩٤٦م.

وكذلك إلقاء الضوء، من خلال الوثائق، على الظروف الموضوعية، والتاريخية، والسياسية، التي قادت الملك المؤسس، إلى إعلان الاستقلال، وتأسيس المملكة الأردنيّة الهاشميّة.

فهذا الإعلان، جاء امتداداً لمسيرة الملك المؤسس، ولإيمانه بأنّ الأردن جزء من مشروع النهضة العربية الكبرى، إذ إنّ تأسيس الأردن المعاصر، جاء في لحظة كانت فيها المناخات السياسية، تحمل عناوين القومية العربية، وتدعو إلى الوحدة، وكان شعور سكان وأهالي المشرق العربي، ينزع إلى التفكير في مصير بلدانهم من خلال التحرر من الانتداب، وما فرضه عليهم من نظم، بالإضافة إلى أنّ مصير المشرق العربي يتقرر من قبل أهاليه، وشعوبه، وقادته.

والأردنيون، بقيادة ملوك بني هاشم، آمنوا بأنّ النهضة العربية الكبرى، بما حملته من عناوين الوحدة، والتحرر، والاستقلال، هي العناوين المُثلى لتحقيق غاياتهم، على الرغم من ما فرضه الانتداب، من قيود، وعلى الرغم من الغدر الذي وقع بالعرب من قبل بريطانيا العظمى، التي كانت شريكتهم في التأسيس لمرحلة جديدة معاصرة.

---

* باحث في التاريخ والتوثيق، والمدير العام السابق لدائرة المكتبة الوطنية/وزارة الثقافة (الأردن).

وسنتتبع أفكار الملك المؤسس التي آمن بها، من خلال الرجوع إلى المصادر التاريخية التي وثقت لسيرته، ومن خلال تتبع ما عاصره من أحداث. فالملك المؤسس، في سيرته الذاتية، التي حملت عنوان «مذكراتي» يروي جانباً من آماله القومية، وتطلعاته، ويسرد جانباً من اتصالاته، وحركاته العسكرية منذ زمان الثورة العربية الكبرى، وصولاً إلى تأسيس الإمارة، فإعلان المملكة، فالوحدة بين الضفتين، حتى لحظات ما قبل استشهاده على عتبات المسجد الأقصى عام ١٩٥١م.

أهل الإخلاص ووصول الملك المؤسس إلى معان في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٠م

يقول الملك المؤسس، في مذكراته، حول أسباب قدومه إلى شرقي الأردن، مبرراً أسباب القدوم إن: «..حوادث الشام وخرق فرنسا حرمة الحق وهجومها على سوريا، والكارثة التي حلت بها بخروج الملك فيصل منها، ثم ما حدث على الوزراء السوريين الموالين لفرنسا في درعا، وطلب أهل الإخلاص من أنصار القضية العربية في سوريا إرسال من ينوب عن الملك فيصل من الشخصيات الملكية في البيت الهاشمي (...) فاستأذنت والدي، وطلبت إليه أن يحملني تبعات هذه الحركة شخصياً، وألّا تكون الوظيفة كمأمورية حجازية، فأذن لي، فتوجهت من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ومنها بالخط الحديدي إلى معان، فوصلناها بمشقةٍ شديدةٍ (لخراب الخط) بعد شهر، وكان الوصول بتاريخ ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٠م».

وهنالك في هذه المرحلة، العديد من الوثائق الهامة، التي تشرح توجهات الملك المؤسس، بينها إصداره من معسكره بمعان جريدة «الحق يعلو»، بالإضافة إلى إصداره المنشور الأول، والذي دعا من خلاله السوريين كافة، إلى نصرته، خاصة بعد معركة ميسلون، والتي عادةً ما يصفها الملك المؤسس، بأنها الضربة «الحادة» التي حدت من آمال العرب.

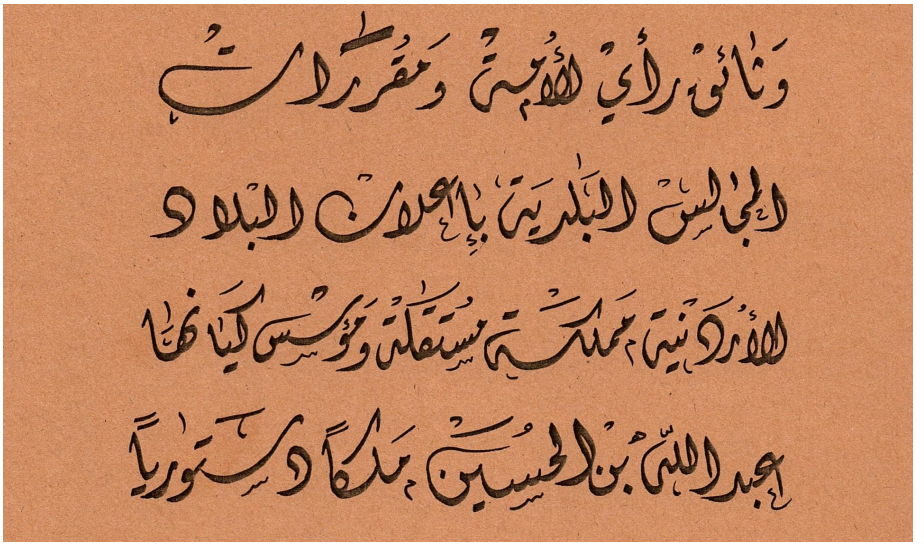

وثائق رأي الأمة ومقررات
المجالس البلدية بإعلان البلاد
الأردنية مملكة مستقلة وتأسيس كيانها
عبد الله بن الحسين ملكاً دستورياً

القرار التاريخي

باعلان البلاد الاردنية دولة مستقلة استقلالاً تاماً مع البيعة بالملك
لحضرة صاحب الجلالة عبد الله بن الحسين المعظم
ملك المملكة الاردنية الهاشمية

يوم السبت في ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ هـ الموافق ٢٥ أيار سنة ١٩٤٦

عقد المجلس التشريعي الاردني الخامس جلسته الثالثة لدورته فوق العادة الاولى وذلك في الساعة الثامنة من صباح يوم السبت الواقع في ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ الهجرية الموافق ٢٥ أيار سنة ١٩٤٦ ميلادية : ولدى تلاوة مقررات المجالس البلدية البيعة والمتضمنة رغبات البلاد الاردنية العامة ، تم تلاوة مذكرة مجلس الوزراء رقم ٥٢١ وتاريخ ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ الموافق ١٥ أيار سنة ١٩٤٦ المتضمنة تأييد تلك المقررات والاقتراح بتبنيها وتعديل الدستور الاردني بموجبها . ثم لدى مجلس النواب القومية في ضوء المبادئ والمواثيق الدولية العامة وحماية تقرير المصير وحقوق الشعوب المتحررة ومقاصدها وما بذلته البلاد الاردنية من تضحيات ومساعدات للحلفاء وما حصلت عليه من وعود وعهود ودولية رسمية فقد أصدر المجلس التشريعي الاردني بالاجماع القرار التالي :-

نص القرار

تحقيقاً للأماني القومية وعملاً برغبة الأمة التي أعربت عنها المجالس البلدية الأردنية في قراراتها المبلغة الى المجلس التشريعي، والاستناد الى الحقوق البلدية الشرعية والطبيعية وجهادها المرير وما حصلت عليه من وعود وعهود دولية رسمية، وبناءً على ما اقترحه مجلس الوزراء في مذكرته رقم ٥٣ وتاريخ ١٣ جمادى الآخرة ١٣٦٥ الموافق ١٥ أيار سنة ١٩٤٦ فقد سن المجلس التشريعي النيابي عن الشعب الأردني أن الصوت المقبول للبلاد الأردنية المستقلة تاماً هي ذات النظام الملكي النيابي مع البيعة بالملك لسيد البلاد ومؤسس كيانها :-

عبد الله بن الحسين المعظم

كما سن أن تعدل القانون الأساسي للأردن بما يتفق مع هذا القانون بخصائصه الدستورية ولدى المداولة والمذاكرة، قرر بالإجماع للأمور التالية :-

أولاً - اعتماد البلاد الأردنية دولة مستقلة استقلالاً تاماً ذات حكومة ملكية وراثية نيابية.

ثانياً - البيعة بالملك لسيد البلاد ومؤسس كيانها، ورئيس النهضة العربية :-

سمو الأمير الحسين المعظم

بوصفه ملكاً دستورياً على رأس الدولة الأردنية بلقب :-

حضرة صاحب الجلالة عبد الله الأول الحسين

ملك المملكة الأردنية الهاشمية

ثالثاً - تعديل القانون الأساسي الأردني بما يتفق مع هذا القانون طبقاً لما هو مبين في اللائحة الملحقة بقانون تعديل القانون الأساسي.

رابعاً - رفع هذا القرار الى سيد البلاد معزز بطلب القانون الأساسي ليوقع بالموافقة السنية حتى إذا ما افترق بالصديق السري، عدنا فذاع الصوت على الشعب وولي الحكومة لإجراء تنفيذ مع تبليغ ذلك الى جميع الدول بالطرق السياسية المرعية.

تحقيقاً للأماني القومية، وبناءً على شعور البلاد الأردنية العام وتشاور هيئاتها ووجهائها، وما انتهوا اليه من اجماع، فقد قرر المجلس البلدي لمدينة ... الزرقاء ... في جلسته المنعقدة بتاريخ ... ٩/٦/١٩٤٦ ... رفع شعور المدينة ومشاركتها الخاصة في رغبة الوطن العامة الى المجلس التشريعي الموقر النائب عن الشعب - رجاء المبادرة في وقت يحدده المجلس الى :-

١ - اعلان استقلال البلاد الأردنية التام على اساس الحكم الملكي النيابي.

٢ - تجديد البيعة على هذا الاساس لسيد البلاد الشرعي ومؤسس كيانها، ورمز النهضة العربية سمو الامير (عبد الله بن الحسين) المعظم، بوصفه ملكاً دستورياً على البلاد، بعنوان حضرة صاحب الجلالة (عبد الله الاول) ملك المملكة الاردنية الهاشمية.

ان المجلس التشريعي الاردني في تلبية هذا الطلب سيحقق للامة اغلى ما تصبو اليه. وفقه الله وسدد خطاه والهمه الحق والخير لمجد الوطن العزيز وحريته وهنائه، والله ولي التوفيق.

الاعضاء ... رئيس المجلس

وهنالك حاجة مهمة، لقراءة، وثائق هذه المرحلة، واستعراضها، كونها أسست ما أرسي لاحقاً، وهو تأسيس المملكة الأردنية الهاشمية.

مؤتمر القدس ١٩٢١م

كان لوصول الملك المؤسس إلى معان، وانضمام أحرار العرب إليه، صدى لدى دوائر الاستعمار الإنجليزي، الذين كانوا في هذه اللحظة التاريخية، على خلاف مع الفرنسيين، من بين أسبابه وصول الملك المؤسس، وحركته التي سعى من خلالها إلى الثأر من معركة ميسلون.

ومن بين أهم الأحداث في تلك الفترة، مؤتمر القدس. يعدّ هذا المؤتمر هو البداية الحقيقية لتأسيس إمارة شرقي الأردن لما جاء فيه من تسوية معقودة بين فرنسا وبريطانيا، والعرب بقيادة الملك المؤسس عبد الله الأول، ففي اللقاء الذي جرى مع ونستون تشرشل، وحضره مستشار الأمير (الملك) الخاص عوني عبد الهادي، وعدد من قادة حزب الاستقلال العربي الذين قدموا إلى شرقي الأردن ورافقوا الأمير، تمخض هذا الاجتماع عن اتفاق أبرز نقاطه:

- إقامة حكومة وطنية في شرقي الأردن برئاسة الأمير عبد الله.
- تكون هذه الحكومة مستقلة استقلالاً إدارياً تاماً.
- تسترشد برأي مندوب بريطاني يقيم في عمّان.
- تساعد بريطانيا هذه الحكومة لتوطيد الأمن.
- تنشئ بريطانيا قاعدتين للطيران في عمّان وزيزياء.
- تحافظ هذه الحكومة على حدود كل من في سوريا وفلسطين من كل اعتداء.
- تتوسط بريطانيا لتحسين العلاقة بين الأمير وفرنسا ... مدة الاتفاق ستة أشهر.

لقد كانت مقررات هذا المؤتمر، وثيقة أخرى، شهدت الظروف بعدها، على أنّ آمال الملك المؤسس، ترسخت على الرغم من معارضة الاحتلال، وتواصلت حتى اليوم.

وبالعودة إلى هذه المقررات، فإنه بناءً عليها كُلف رشيد طليع بتشكيل أول حكومة، وذلك في ١١ نيسان (إبريل) ١٩٢١م.

الاستقلال الأول

على الرغم من التحديات التي واجهت إنشاء الإمارة، فإن الملك المؤسس، استطاع إقناع بريطانيا باستثناء شرقي الأردن من بعض مواد صك الانتداب على فلسطين، وصدر القرار البريطاني بتاريخ ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢م، باستثناء شرقي الأردن من الهجرة اليهودية. وأعلن الاستقلال الأول في ٢٥ أيار (مايو) ١٩٢٣م، وقال يومها الملك المؤسس، في احتفال ضخم عُقد في عمّان، وحضره رجالات العرب، والمندوب السامي البريطاني: «وإني لآمل أن يكون هذا اليوم يوماً سعيداً للأمة تتخذه عيداً تظهر فيه سرورها وحبورها، ومنه تعالى نستمد العون ونسأله أن يطيل بقاء وتوفيق جلالة أمير المؤمنين، مولانا الحسين بن علي بن محمد بن عون، واللّه ولي التوفيق».

وقد واجهت الإمارة الناشئة، تحديات عدة، بينها: محاولة اغتيال الجنرال غورو، وعصيانات أهلية عدة، بالإضافة إلى غزوات الوهابيين.

ونحن نعرض وثائق الاستقلال، يجب إلقاء الضوء على الجغرافية الأردنية، فالاستقلال الأول، كانت الإمارة الأولى تتكون من (٦) مقاطعات، بموجب أول قانون صدر للتقسيمات الإدارية في جريدة «الشرق العربي»، وحمل عنوان: قانون تشكيل المقاطعات والنواحي في منطقة الشرق العربية، وقضى بتشكيل (٦) مقاطعات هي: عمّان والكرك ومادبا والسلط وجرش وإربد، وبقيت هذه التقسيمات سارية، حتى جرى توسيع حدود الإمارة مع إعلان جرى في ٢٥ حزيران (يونيو) بإلحاق معان والعقبة إلى إمارة شرقي الأردن، بعد أن كانت تابعة للحجاز، إذ أعلن الشريف الحسين بن علي، عن تنازله عنهما لإمارة شرقي الأردن في ١٨ آذار (مارس) ١٩٢٤م، لدى زيارته الإمارة الأردنية (٩/١/ ١٩٢٤- ٢٠ /٢/١٩٢٤)، وعقدت اتفاقية في حزيران (يونيو) ١٩٢٥م.

ومن بين الوثائق، التي ستحاول الدراسة إلقاء الضوء عليها، القانون الأساسي (أو الدستور الأول الصادر عام ١٩٢٨م) بالإضافة إلى الميثاق الوطني

رقم القرار
ق ٩١٢ ر

التاريخ ٢ مايس سنة ١٩٤٦

تحقيقا الأمانى القوميه وبناء على شعور البلاد الأردنيه العام
وتقاريرها وزعمائها ، وما انتهوا اليه من اجماع ،
فقد قرر المجلس البلدى لمدينة الفرق فى جلسته المنعقده بتاريخ
١ جمادى الآخره سنة ١٣٦٥ الموافق ٢ مايس سنة ١٩٤٦ رفع شكر
المدينه وشاكتها الخاصه فى عربة الوطن الغاليه الى المجلس التشريعى
الموقر - النائب عن الشعب - رجاء الموافقه فى وقت يحدده
المجلس الى :-
اعلان استقلال البلاد الأردنيه الهاشميه وجعل الحكم
الملكى النيابى .
تجديد البيعه على هذا الأساس لسيد البلاد الشرعى ومؤسس كيانها ، وريث العرش
العربى سمو الأمير (عبد الله بن الحسين) المعظم ، بوصفه ملكا دستوريا على البلاد
بعنوان حضرة صاحب الجلاله (عبد الله الأول) ملك المملكه
الأردنيه الهاشميه .
ان المجلس التشريعى الأردنى فى تلبيته هذا الطلب سيجعله نصب أعلى ما تصبوا اليه . وفقه الله وسدد
الهه الى ما فيه العز والخير للبلاد والعرش

نائب رئيس المجلس البلدى

عضو عضو عضو

نحن عبد الله بن الحسين ملك المملكة الاردنية الهاشمية
بمقتضى المادة (١٩) من القانون الاساسي
وبناء على ما قرره المجلس التشريعي في جلسته المنعقدة بتاريخ ٢١/ جمادى الثانية سنة ١٣٦٥ الموافق ٢٣/ ٥/ ١٩٤٦ نصادق على القانون الاتي ونأمر باصداره .

قانون رقم (٩) لسنة ١٩٤٦
قانون تعديل القانون الاساسي لشرق الاردن

١ـ يسمى هذا القانون (قانون تعديل القانون الاساسي) ويعتبر والقانون الاساسي الصادر سنة ١٩٢٨ (الذي يشار اليه فيما بعد بالقانون الاصلي) قانونا واحدا ويعمل به اعتبارا من ٢٥ مايس سنة ١٩٤٦ .

٢ـ في القانون الاصلي وفي اي قانون او نظام اخر صادر بمقتضاه او اية ارادة سنية تحل الكلمات (صاحب الجلالة الملك) محل الكلمات (صاحب السمو الامير) وكلمتا (جلالة الملك) محل كلمتي (سمو الامير) وكلمة (الملك) محل كلمة (الامير) والكلمات (المملكة الاردنية الهاشمية) محل كلمتي شرق الاردن حيثما وردت .

٣ـ المملكة الاردنية الهاشمية دولة مستقلة ذات سيادة وهي حرة مستقلة ملكها لا يتجزأ ولا ينزل عن شيء منه ونظام الحكم فيها ملكي وراثي نيابي .

٤ـ تعدل المادة السادسة عشرة من القانون الاصلي كما يلي :ـ

١٦ـ أ ـ مع مراعاة احكام هذا القانون تخول السلطات التشريعية والتنفيذية للملك عبد الله بن الحسين ولورثته الذكور من اولاد الظهور من بعده كما سيأتي بيانه في الفقرة التالية ـ

ب ـ مع مراعاة احكام الفقرتين (جـ و د) من هذه المادة يكون الوارث للعرش عند وفاة صاحب العرش اكبر ابنائه سنا على خط عمودي فاذا لم يكن لمن له ولاية الملك عقب كانت الولاية الى اكبر اخوته واذا لم يكن له اخوة فالى اكبر ابناء اخوته وهكذا للاعمام ومن بعدهم من الذكور وفقا لاحكام الوراثة الشرعية . واذا لا سمح الله توفي اخر ملك بدون وارث على نحو ما ذكر يرجع الملك الى من يختاره المجلس التشريعي للمملكة الاردنية الهاشمية من سلالة مؤسس النهضة العربية الملك حسين رحمه الله .

جـ لا يعتلي احد العرش الا اذا كان من الذكور وسليم العقل مسلما وولدا لوالدين مسلمين .

د لا يعتلي العرش احد من استثنوا بارادة ملكية من الوراثة بسبب عدم لياقتهم ومن الطبيعي ان لا يشمل هذا الاستثناء اعقاب ذلك الشخص .

هـ سن الرشد للملك تمام الثمانية عشر عاما على اساس التقويم القمري فاذا انتقل العرش الى من هو دون هذا السن تمارس صلاحيات الملك من قبل وصي او مجلس وصاية يعين كل منهما بارادة ملكية تصدر من الجالس على العرش بيد انه اذا توفي دون ان يوصي فيقوم بالتعيين مجلس الوزراء .

و اذا اصبح الملك غير قادر على تولي شؤون واجباته بسبب مرضه فتمارس صلاحياته من قبل نائب او من قبل مجلس للعرش يعين النائب او مجلس العرش بارادة من الملك وعندما يكون الملك غير قادر على اجراء هذا التعيين فيقوم به مجلس الوزراء .

ز يجوز للملك عند الاقتضاء ان يتغيب عن المملكة الاردنية الهاشمية وعلى جلالته قبل مغادرته البلاد ان يعين بارادة نائبا او مجلسا للعرش لممارسة صلاحياته مدة غيابه مع مراعاة الشروط التي قد تشتمل عليها تلك الارادة .

ح ليس للوصي او النائب او لعضو من مجلس الوصاية او العرش ان يقوم بوظيفته او يباشرها ما لم يقسم اليمين المذكورة في المادة (١٧) من هذا القانون فاذا كان المجلس التشريعي في دورته يقسم اليمين وفقا لاحكام المادة المذكورة والا فيقسم امام مجلس الوزراء . اذا توفي الوصي او النائب او احد اعضاء مجلس الوصاية او العرش او اصبح غير قادر على القيام بمهام وظيفته فيعين مجلس الوزراء

شخصا لائقا ليقوم مقامه.

ولا يجوز ان يكون سن نائب الملك او الوصي او احد اعضاء مجلس الوصاية او العرش اقل من ثلاثين سنة انما يجوز تعيين احد الذكور من اقرباء الملك اذا كان قد اكمل السنة الثامنة عشرة.

٥ـ تعدل الفقرة الثانية من المادة التاسعة عشرة من القانون الاصلي كما يلي :ـ

١٩ ـ ٢ ـ الملك هو الذي يعقد المعاهدات ويعلن الحرب ويعقد معاهدات الصلح بشرط ان لا يبرمها الا بعد موافقة مجلس الوزراء.

٦ تلغى الفقرة الرابعة من المادة السابعة والعشرين من القانون الاصلي.

٧ـ تعدل المادة الثامنة والثلاثون من القانون الاصلي كما يلي ـ

٣٨ ـ لا يسري مفعول اي قانون مالم يقبله الملك ويقترنه بتوقيعه دلالة على ذلك القبول ويمر شهر واحد على نشره في الجريدة الرسمية الا اذا نص في القانون على ان يسري مفعوله من اي تاريخ آخر.

في ٢٥/ ٥/ ١٩٤٦.

(عبد الله)

وزير المواصلات وزير التجارة والزراعة وزير الخارجية والمالية قاضي القضاة رئيس الوزراء ووزير المعارف ووزير الدفاع

سمير طبر نقولا غنما محمد الشريقي فهمي هاشم ابراهيم هاشم

وزير الداخلية والعدلية (مسلم العطار).

القرار التاريخي

باعلان البلاد الاردنية (دولة مستقلة استقلالا تاما)

مع البيعة بالملك لحضرة صاحب الجلالة (عبد الله بن الحسين) المعظم

ملك المملكة الاردنية الهاشمية (يوم السبت ٢٣ جمادى سنة ١٣٦٥ الموافق ٢٥/ ايار سنة ١٩٤٦.

عقد المجلس التشريعي الاردني الخامس جلسته الثالثة لدورته فوق العادة الاولى وذلك في الساعة الثامنة من صباح يوم السبت الواقع في ٢٣ جمادى الاخرة سنة ١٣٦٥ الموافق ٢٥ ايار سنة ١٩٤٦ ميلادية ولدى تلاوة مقررات المجالس البلدية المبلغة اليه والمتضمنة رغبات البلاد الاردنية العامة ثم تلاوة مذكرة مجلس الوزراء رقم ٥٢١ بتاريخ ١٣ جمادى الاخرة ١٣٦٥ الموافق ١٥/ ٥/ ١٩٤٦ المتضمنة تأييد تلك المقررات واقتراح تلبيتها وتعديل القانون الاساسي الاردني بمقتضاها ثم لدى بحثنا اماني القومية في ضوء المبادىء والمواثيق الدولية العامة وحق تقرير المصير ووعود الامم المتحدة ومقاصدها ومابذلته البلاد الاردنية من تضحيات ومساعدات للديمقوقراطيات وما حصلت عليه من وعود وعهود دولية رسمية فقد اصدر المجلس التشريعي الاردني بالاجماع القرار التاريخي الاتي :ـ

نص القرار

تحقيقا للاماني القومية وعملا بالرغبة العامة التي اعربت عنها المجالس البلدية الاردنية في قراراتها المبلغة الى المجلس التشريعي واستنادا الى حقوق البلاد الشرعية والطبيعية وجهادها المديد وما حصلت عليه من وعود وعهود دولية رسمية وبناء على ما اقترحه المجلس الوزراء في مذكرته رقم ٥٢١ تاريخ ١٥/ ٥/ ٤٦ فقد بحث المجلس التشريعي النائب عن الشعب الاردني امر اعلان استقلال البلاد الاردنية استقلالا تاما على اساس النظام الملكي النيابي مع البيعة بالملك لسيد البلاد ومؤسس كيانها (عبد الله بن الحسين) المعظم كما بحث امر تعديل القانون الاساسي الاردني على هذا الاساس بمقتضى اختصاصه الدستوري ولدى المداولة والمذاكرة قرر بالاجماع الامور التالية :ـ

اولا اعلان البلاد الاردنية دولة مستقلة استقلالا تاما ذات حكومة ملكية وراثية نيابية.

ثانيا البيعة بالملك لسيد البلاد ومؤسس كيانها ووريث النهضة العربية (عبد الله بن الحسين) المعظم بوصفه ملكا دستوريا على رأس الدولة الاردنية بلقب حضرة صاحب الجلالة.

الصادر في ذات العام، وكلا الوثيقتين، تعبران عن محاولات الأردنيين نيل استقلالهم باكراً.

الحرب العالمية الثانية وإعلان الاستقلال الناجز

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وإنشاء هيئة الأمم المتحدة في ٢٥ نيسان (إبريل) ١٩٤٥م، طلبت الحكومة الأردنية، في مذكرة مؤرخة في ٢٧ حزيران (يونيو) ١٩٤٥م، المفاوضات لإعلان الاستقلال.

واعترفت بريطانيا باجتماع لهيئة الأمم بتطور الأردن إلى مستوى ينهي نظام الانتداب، ووافقت لندن بتاريخ ٢٢ آذار (مارس) ١٩٤٦م على معاهدة أردنية بريطانية تعترف باستقلال شرقي الأردن وسيادتها. واتخذ المجلس التشريعي في جلسته بتاريخ ٢٢ أيار (مايو) ١٩٤٦م، قراراً بتعديل القانون الأساسي ليعمل بالتعديلات منذ ٢٥ آذار (مارس) ١٩٤٦م، وجرت مراسم إعلان الاستقلال ومبايعة الأمير عبد الله ملكاً على أساس النظام الملكي النيابي وأقرت التعديلات من قبل المجلس ليصبح اسم الدولة بعد إقرار الدستور: المملكة الأردنية الهاشمية.

ومن الضرورة بمكان إلقاء الضوء على أهم وثائق إعلان الاستقلال، إذ إنّها وثائق تعبر عن رغبات الأمة، وقد سطرتها المجالس البلدية بدايةً (وثائق البلديات)، ورفعت آمالها بصيغة موحدة إلى الملك المؤسس، ما يعبر عن ملمح هام لأدوار هذه المؤسسات الأهلية كوحدات أهلية، عبرت عن مطالب وأماني الأردنيين، ليجري لاحقاً اعتماد مقررات البلديات من قبل مجلس الأمة، وبعض الردود عليها. وكذلك إلقاء الضوء على برقيات ورسائل التهنئة، بالاستقلال، التي وردت إلى الديوان الملكي (أو المقر) من مختلف الأقطار العربية، وبخاصة من فلسطين، وسوريا ومصر، ولبنان، إذ إنّ ردود الفعل الشعبية عربياً، تعبر عن مكانةٍ جليلةٍ للبيت الهاشمي في نفوس أبناء الأمة.

الذاكرة الوطنية والرواية الشفوية في الأردن

نداء الخزعلي*

لطالما حظيت الوثيقة المكتوبة بمنزلة رفيعة بوصفها أساساً للتاريخ، فإذا ضاعت الوثيقة ضاع التاريخ، خاصة بين أجيال ومؤرخي التاريخ الوضعي، ومن يعتمدون على الكتب والأرشيفات القديمة والمكتبات في المعرفة، إلا أن التاريخ الشفوي، ومع بداية السبعينيات من القرن الماضي، أصبح علماً قائماً في مجالات العلوم الإنسانية والأدب، ووافق رواجاً في الأوساط العملية المختلفة، وأُسِّس له كحقل معرفي أكاديمي في عدد من الجامعات الغربية.

تكمن أهمية التأريخ الشفوي كونه أداة مهمة في تسجيل الشهادات الحية حول قضايا مختلفة، وإحدى طرق البحث الذي يعزز التعددية في تناول الخبر التاريخي، مما يوسع دائرة فهمنا ومعارفنا على صعيد الأفراد والجماعات على حد سواء، كما أنه يظهر الجانب المهمش في الحياة الاجتماعية والإنسانية، والتي غالباً لا يتم الالتفات إليها من قبل الباحثين، لذا يمكن أن يطلق عليه (التأريخ للمهمّشين) و(التأريخ لمن لا تاريخَ مكتوباً لهم)، أي أنه يؤرخ للأحداث برمتها، وبجميع تفاصيلها بعيداً عن الطبقات العُليا والحاكمة، ويتجه إلى جمع الشهادات عن الأحداث والأماكن التي تناساها، أو نسيها الكُتّاب، فالرواية الشفوية تحمل تمثلات وتصورات معرفية متراكمة تستمر في الذاكرة الجمعية للإنسان زمناً طويلاً، كما أنها تربط الأماكن الأثرية بمحيطها الاجتماعي، وتوضح أثر السكان القدامى والحاليين على تلك الأماكن، وكيف أثروا وتأثروا وتفاعلوا معها، وذلك من خلال معرفة الرواية المحلية للأماكن التاريخية والعادات والتقاليد.

* باحثة في التأريخ الشفوي والكتابات القديمة (الأردن).

إن دراسة التأريخ الشفوي المعتمد على الرواية الشفوية والذاكرة الفردية للأشخاص يثير العديد من المشاكل، منها ما هو معرفي يتمثل بدقة المعلومات وتسلسلها، ومنها ما هو منهجي ويتعلق بآلية البحث والعمل والتوثيق والتحليل، علماً بأن التاريخ الشفوي قديم في ظهوره، فقد ظهر لدى المؤرّخين والرَحالة المسلمين والأوروبيّين منذ القدم من خلال كتاباتهم وأدب الرّحلة التي اعتمدوا بها على تدوين وتوثيق كل ما يرونه ويسمعونه في هذه الرحلات.

لا يزال التأريخ الشفوي قليل الحضور في أوسطنا العلمية والثقافية عموماً مقارنة مع الغرب والنهج الذي تتبعه الدول المتقدمة، فقد بدأ الاهتمام في هذا النوع من المعرفة بشكل كبير بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بسبب الأعداد الكبيرة للضحايا نتيجة الحرب وتداعياتها، مما أوجد نقلة مهمة في موضوع المواد التاريخية غير المكتوبة، غيرت نظرة كثير من الباحثين في التاريخ عن التأريخ الشفوي، وجعلت منه مصدراً مكملاً للمعلومات، يمكن أن يصحح أو يحدد الوقائع التي وثقتها المصادر التقليدية المكتوبة، ويجعل الأحداث المكتوبة في الوثائق صوراً حية، فمن خلاله تنعكس انطباعات الأفراد الذين عايشوا الأحداث وتفاعلوا معها وكانوا جزءاً منها؛ وفي حال غياب الوثائق المكتوبة حول موضوع معين أو أن تلك الوثائق لا تعطي الجواب الشافي، فإن الحال هُنا يستوجب الاعتماد على الشهادات والروايات الشفوية، وجمعها ممن عاصروا الأحداث لإلقاء الضوء على التفسيرات والإيضاحات، لاعتبارات مختلفة وكونها تشكل المصدر الأساسي والوحيد للتوثيق.

لا يزال التأريخ الشفوي مصدراً أساسياً للتأريخ، في معظم المدن والقرى الأردنية، فهناك بعض المناطق تَعُد الرواية المتعلقة بتاريخها ميزةً خاصةً بها، وتأخذ حيزاً كبيراً في ذاكرتها، وتحرص على تواترها من جيل إلى آخر، كونها الوسيلة الوحيدة لإعادة رسم الحياة والأحداث القديمة بتفاصيلها سواءً أكانت أحداثاً سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، أو حتى ثقافية، ذلك أنها تعكس المزاج العام للناس العاديين، وتسجل بعض تفاصيل والأحداث المعاشة يومياً.

ويمكن للتأريخ الشفوي أن يرقى ليصبحَ منهجاً علمياً يسعى لتحويل الرواية الشفوية إلى نصوص محفوظة، باستعمال الوسائل والتقنيات الحديثة لتوثيق الأخبار والروايات، من خلال تدوين الوقائع والأحداث التاريخية على أسس علمية متينة، ويستخدم، في الغالب، آلات التسجيل بالصوت والصورة، وتسهم هذه

التقنيات في عملية تطوير مصادر التاريخ الشفهي وإعطائها المصداقية اللازمة، والعاملون في التاريخ الشفوي يدركون وجود الذاكرة الانتقائية والذاكرة المختلطة لدى الرواة الذين يشكلون المصدر الأساسي للمعلومات بأشكالها المختلفة.

ولجمع الرواية الشفوية مهارات عدة، منها: إتقان لهجة الراوي من قبل الباحث، ووجود مخزون معرفي بالعادات والتقاليد، بالإضافة إلى توافر المهارات المتعلقة بأسلوب توجيه الأسئلة بطريقة لا تستفز الراوي، وإعطاء الراوي الحرية الكافية للحديث والسرد، إذ ينبغي أن تتوافر في الرواية حرية التعبير والصدق في سرد الأحداث والتفاصيل، ولأن الرواية من راو واحد يمكن أن تكون غير مكتملة العناصر والأحداث، فيتم مقابلة مجموعة من الرواة، والحديث معهم في الموضوع نفسه كل على حدة، وعلى الباحث، في العموم، أن يراعي ما قد يعتري ذاكرة الراوي من نسيان واختلاط في الصور والأحداث، وأن الرواة قد ينجرفون وراء عواطفهم ورغباتهم في وصفهم للأحداث والحديث عنها، لذلك ينبغي تسجيل وحفظ وتحليل المعلومات التاريخية، والتحقق منها وتحريرها، ومقاربة الروايات، وقياس القيم النسبية لدلائل الرواية، ثم اختيار واختبار الفرضيات الجديدة من الرواية، وأخيراً كتابة الرواية بشكل موضوعي ووضعها موضع الاستفادة العامة للباحثين والمهتمين.

إن كتابة سردية وطنية شاملة وواضحة تتطلب، حتماً، البدء بجمع وتوثيق الرواية الشفوية التاريخية باعتبارها واحدة من أهم مصادر المعرفة حول بناء الدولة الأردنية وتطورها على مدى السنوات، ولمعرفة دور وتسليط الضوء على مسيرة البناء والازدهار وحركة التطور الاجتماعية والثقافية الواسعة وبيان دور رجالات الدولة الأوائل في ذلك.

تأتي أهمية جمع المضمون الثقافي الشفوي في حماية الهوية والخصوصية للمجتمع الأردني، وذلك من خلال رصد ذاكرة الوطن، واستثمار الذاكرة الحية لكبار السن الذين عاصروا مسيرة الدولة الأردنية وشاركوا في بنائها، ويملكون رصيداً كبيراً من المعلومات والمعارف حول نشأتها ومراحلها المختلفة، وتأسيس مؤسساتها وتطورها، واحتفاظها بقيمها ودورها الكبير في الشأن الإقليمي والدولي على رغم من نشأتها في وسط إقليم ملتهب بالأحداث، وبإمكانيات بسيطة وقليلة جداً.

إن التوثيق الوطني الممنهج للأحداث التاريخية والإنجازات الوطنية وحفظ الذاكرة الوطنية، ما هو إلا جسر يوصل الماضي بالحاضر، والتراث بالمعاصر بين

أجيال عاصرت نشأة الإمارة الأردنية وتأسيسها على يد المغفور له الملك المؤسس عبدالله بن الحسين ومعه رجالات من مختلف أنحاء الأردن والعرب، والعهد الحاضر بقيادة الملك عبدالله الثاني ابن الحسين - حفظه الله ورعاه - والأجيال القادمة. وكذلك فإن المراحل التاريخية التي مرت بها الدولة الأردنية عبر مئويتها الأولى، وقبل ذلك، وشارك فيها رجالات الوطن الطامحة إلى التغيير والتقدم، متعددة وغنية بالأحداث والتفاصيل والوقائع الهامة، ويشكل الكثير منها مفصلاً مهماً في تاريخ الدولة وذا أثر كبير في الواقع المُعاش، إلا أننا لا نجد ذكراً لها في كتب التاريخ المعاصرة، أو نجد أنها ذكرت بصورة وجيزة جداً على الرغم من أهميتها.

ففي أحداث ثورة الشوبك عام (١٩٠٥)، وثورة الكرك عام (١٩١٠)، وقبلهما مواجهة أهالي الكرك لجيش إبراهيم باشا عام (١٨٣٤)، وأدوار الأردنيين الكبيرة في الثورة العربية الكبرى، وفي الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما قدمه أبناء الوطن من تضحيات، واستجابة الدولة لمتطلبات الحضارة والتطور والتحولات الجيوسياسية والاقتصادية، وإنشاء مؤسسات الدولة والنهضة الكبيرة في مسيرة الدولة الحديثة أحداث ووقائع اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، ونفسية، ودينية تتطلب دراسة وتوثيقاً - كما تفعل الدول المتقدمة - للحفاظ على تراثها المادي بأنواعه كافة، وغير المادي من تراث فكري وفني وأدبي، وما يندرج تحته من الأمثال والأغاني والشعر والطقوس والعادات والتقاليد، فهذه الروايات هي ثروة الأجيال القادمة، ومصدر زاخر بمعلومات وتفاصيل لتجارب متراكمة نكتب من خلالها التاريخ.

إن ضعف البحث في التاريخ الشفوي وتوثيقه سبب ضياع الكثير من الموروث الثقافي لمجتمعنا الأردني، وقد ينتج أجيالاً لا ترغب بالانتساب لهذا الإرث الثقافي، ومنفصلة معرفياً عنه، ولا تتفاعل معه، وغير معنية بالمحافظة عليه، ولذلك ينبغي دراسة تاريخ الأردن الشفوي وأرشفته، وربط الأماكن الأثرية بمحيطها الاجتماعي، ومعرفة تأثير المكان على السكان القدامى والحاليين وتفاعلهم معه، والعمل على أن يكون مصدر المعلومات للتاريخ هو أبناء المجتمع المحلي الذين عايشوا الحدث، أو سمعوا عنه، بالإضافة إلى ماكتب من معلومات، لأن ذلك سيشعرهم بأهميتهم، وبأنهم مصدرٌ أساسيٌ للمعلومات حول الوطن، ويعزز لديهم الاهتمام في الهوية الأردنية، ويزيد حرصهم على الاهتمام بالتراث المادي وغير المادي بالمجمل وبكل ما يتعلق بخصوصية وهوية المجتمع الأردني الحضارية وتاريخه العريق.

الطبيب والمفكر وعالم المصريات
حوار مع الأستاذ الدكتور وسيم السيسي

حاورته: شيرين نبيل*

على الرغم من الاهتمام الكبير الذي يبديه الدكتور وسيم السيسي، الطبيب والمفكر، بعلم المصريات، من خلال المؤلفات المتعددة التي أنجزها في هذا المجال، غير أنه لا ينكر أن دخوله إلى رحاب هذا العلم كان من باب المصادفة، إذ ولدت بذرة ذلك الاهتمام من رحم بعض المواقف التي عاشها أثناء دراسته للدكتوراة في انجلترا.

طبيعة تلك المواقف، وجوانب متعددة أخرى من حياة د. السيسي العلمية والفكرية سوف نلقي الضوء عليها من خلال الحوار الآتي:

* د. وسيم نرجع معك بالزمن إلى الوراء وفترة الطفولة والصبا، كيف كان للأسرة دور في تكوين شخصيتك؟ وما الأماكن التي عشت فيها قديماً؟

** أذكر وأنا طفل صغير أننا كنا نسكن في شارع مصر والسودان حالياً، وكان يسمى شارع الملك، ويقع قريباً من حدائق القبة، وكان امتداده شارع الملكة نازلي، وتقع به (الكلية الأمريكية) التي كان لي نصيب في أن أدرس بها لمدة سنتين. وكان بيتنا في شارع عبادة، وبجوار شرفة المنزل شجرة موز كبيرة وكنا نمد أيدينا لنقطف الموز وهو مازال أخضر، وكان معي شقيقتي الصغيرة وسام. الوالد هو رشدي السيسي، الحاصل على ماجستير الأدب الانجليزي، وكان مغرماً

* كبير المذيعين ومعدي البرامج في إذاعة صوت العرب من القاهرة.

بالأدب وله مؤلفات كثيرة منها: (في زورق الحياة)، وكانت والدتي تجيد العزف على البيانو.

الشيء الذي أثّر في حياتي بالفعل كان خالتي، التي كانت تقيم معنا، وكانت وقتها في كلية الصيدلة، وكانت ترجع من الكلية ومعها ضفدعة للتشريح وكلوروفورم ثم تخدر الضفدعة وتثبتها على شريحة وأنا أشاهد وأتابع ما يحدث بكل شغف، وكان عمري وقتها أربع سنوات، وكنت أرى القلب ينبض والرئة تنتفخ بالهواء وأنا مندهش، وواقفاً على أطراف أصابعي أشاهدها وهي تشرّح الضفدعة، وأعتقد أن هذه المرحلة من عمري هي ما جعلتني أرغب بشدة أن أكون طبيباً، وجرّاحاً على وجه التحديد، حتى أطلع على دقائق الجسم البشري.

* هل كنت تقرأ في مرحلة الطفولة؟ وكيف ساهم ذلك في تكوين شخصيتك؟

** في تلك الفترة لم يكن هناك سوى الراديو وكانت التسلية الوحيدة هي المكتبة الكبيرة لوالدي، وهو كان مغرماً بجمع كل الصحف والمجلات الصادرة في ذلك الوقت، مثل: السياسة الأسبوعية، واللطائف المصورة، وآخر ساعة، والمصور، وغيرها، وكنت بالكاد أقرأ، وكنت أحاول القراءة، وأشاهد الصور، وذلك علمني كثيراً، وعندما ذهبت إلى إنجلترا، قالوا لي إن لك لكنة أمريكية في حديثك بالإنجليزية، وقد اكتسبتها خلال طفولتي في الكلية الأمريكية، لذلك أقول فعلاً التعلم في الصغر كالنقش على الحجر والتعلم في الكبر كالنقش على صفحة الماء.

* هل كان لك اهتمامات فيما بعد بالقراءة في علم المصريات أو التاريخ المصري القديم؟

** لم يكن في هذه الفترة، أو في فترة الجامعة، أي اهتمام بهذا المجال، وإنما ما فجّر فيَّ هذا العشق حدث عندما كنت أذهب إلى حديقة الهايد بارك للبحث عن موضوعات لأنني كنت أكتب مقالات متنوعة لجريدة ديلي ميل والجارديان، وفي يوم في داخل هذه الحديقة كان أحدهم واقفاً على منطقة مرتفعة وحوله بعض الناس، ووجدته يقول: نحن نور العالم ... إنجلترا نور العالم، نحن من اكتشفنا البنسلين (ألكسندر فلمنج إنجليزي) نحن من اكتشفنا التعقيم (ليستر

إنجليزي)، ونحن من عمل أول برلمان في تاريخ البشرية عام ١٦٤٢، ونحن من اكتشفنا المادة الضد (بول دريك إنجليزي) أيضاً وأخذنا جائزة نوبل.

فظهر في الوسط شخص أسود طويل القامة، وقال للمتحدث أرجوك كف عن التفاخر ببلدك لأنني من وهبت لك الحضارة، نظر إليه الجميع، فسأله الآخر: كيف؟ وما هو الدليل على كلامك؟ قال الرجل الطويل: أنتم (انجلو ساكسون) أخذتم حضارتكم من الرومان، والرومان أخذوها من اليونان، واليونان أخذوها من مصر القديمة، فقد جاء أفلاطون وتعلم الفلسفة على أيدي الفلاسفة المصريين لمدة اثنتي عشرة سنة في الإسكندرية، وكتب كتابه (القوانين). وأضاف الرجل: ما من علم لدينا إلا وقد أخذناه عن مصر. صولون جاء من اليونان واعتنق الأمونية كي يدخل المعابد المصرية التي بها المكتبات، ومكث ثلاث سنوات يدرس القانون المصري الذي نقله فيما بعد إلى أثينا.

فيثاغورث أيضاً جاء إلى مصر وأراد أن يتعلم الرياضيات فقدم نفسه إلى جامعة هليوبوليس فرفضته وقبلته مدرسة صغيرة علمته الرياضيات، وظل بها حوالي ٢٢ عاماً، وصار العالم الكبير فيثاغورث الشهير بنظرياته الرياضية التي أخذها عن مصر.

فقاطعه الرجل الإنجليزي وسأله: هل أنت مصري؟ أجاب: أنا من نيجيريا: وهي في أفريقيا التي بها مصر، وهذا يعنى أنني من أعطيتك الحضارة، فصفق الواقفون ومعهم أنا والرجل الإنجليزي وكنت أنا طائراً فوق السحاب من الفخر بكوني مصرياً، وهذا الموقف أثر فيَّ جداً وفي حياتي فيما بعد. لكنني شعرت بالأسى لأننا لم نتعلم شيئاً عن حضارتنا العريقة وكيف أثرت في العالم سوى بعض الأسماء، مثل خوفو وخفرع ومنقرع. لقد كان هذا اليوم بمثابة صدمة حضارية لي.

أما الصدمة الأخرى فكانت في مجلس العموم البريطاني، في نفس اليوم، وكنت أجلس وأشاهد فعاليات ما يحدث داخل المجلس من مناقشات بين الحكومة والمعارضة، وطالب أحد الأعضاء برد رخصة القيادة التي سحبت من الأمير فيلب

لأنه تجاوز السرعة قليلاً فقط ولم يرتكب حادثة، فرد رئيس المجلس قائلاً: (لا... ليس لديه ريشة على رأسه)، وعندما عدت إلى المستشفى سألت زميلي الانجليزي: من أخذ هذا المثل من الآخر؟ فنظر لي زميلي وقال: ألا تعلم: هذه ريشة ربة العدالة عندكم (ماعت) وهي عندنا لا توضع إلا على رؤوس الملوك والأمراء والقضاة، ويجب أن تكون ريشة نعام، لأن ريش النعام فيه شعيرات متساوية على الجانبين، ولا تكون العدالة عدالة إلا بالمساواة بين طرفين، والمحاكم يجب أن يكون بها ميزان، وهذا الميزان جاء من محاكمة الروح في مصر القديمة حين كانت توضع ريشة العدالة في كفة وأعمال المتوفى في الكفة الأخرى، وقتها لم أعرف ماذا أقول، لكنني شعرت بالفخر والأسى مرة أخرى لأننا لا نتعلم في مدارسنا وجامعاتنا شيئاً يذكر عن هذه الحضارة العظيمة التي يتحدث عنها العالم كله.

* درست في إنجلترا وفي الولايات المتحدة الأمريكية، لماذا لم تفكر في الهجرة والحياة بالخارج خاصة وأن الأطباء هناك يحصلون على أجر مادي كبير؟

** بعد أن حصلت على شهادتيّ دكتوراة من إنجلترا، وحصلت على دكتوراة شرفية من أمريكا، بالإضافة إلى المعادلة الأمريكية التي أستطيع أن أعمل بها هناك، فكرت في الذهاب إلى أمريكا لارتفاع الدخل والراتب، فبعثت أوراقي إلى بعض المستشفيات فأرسلت لي ٣٠ مستشفى عروضاً للعمل بها بالراتب السنوي والنظام والمزايا وهكذا، وفي نفس الوقت جاء لي خطاب من السفارة المصرية فيه تهنئة لي بحصولي على الدكتوراة، ويقول الخطاب: يسعدنا أن تعودوا لأرض الوطن لتؤدوا خدماتكم فيه. فأرسلت لوالدي وقلت له: أنا في حيرة من أمري، ولا أستطيع أن أتخذ قراراً، سواءً بالاستمرار في إنجلترا أو الذهاب إلى أمريكا أو العودة إلى مصر، فرد والدي قائلاً: السعادة الحقيقية هي التي تجدها في عملك، وتأتي السعادة عندما تعلم أين ستكون مفيداً أكثر، فإذا كنت ستشعر بأنك أكثر إفادة لإنجلترا أو أمريكا أو لمصر فاختر ما ترغب ... وتركني معلقاً. فقلت: سأكون أكثر إفادة لمصر، فرجعت إلى بلدي ولم أندم يوماً على ذلك.

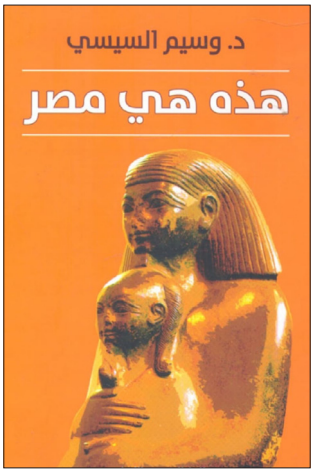

* متى وكيف بدأ شغفك بعلم المصريات والتاريخ المصري القديم؟

** موضوع البحث في علم المصريات كان اضطراراً وليس اختياراً، البذرة كما ذكرنا كانت في إنجلترا، وبعد رجوعي انشغلت بعملي الطبي، ثم فوجئت بمريض من أسوان، كنت وقتها في مستشفى الساحل التعليمي التابع لجامعة عين شمس، وبعدما أجرينا له أشعة اكتشفنا مقصاً منسياً داخل بطنه، فأخرجناه، وعلمت جريدة الأهرام بهذا فجاءت وأجرت معي حواراً، ونشرت تقريراً في صفحة كاملة عن الموضوع. وبعدها بيومين فوجئت باتصال من الصحفي الكبير عبد الوهاب مطاوع، الذي كان يشرف على بريد الأهرام وقتها، وطلب مني أن أكتب شيئاً للبريد فوافقت، وفكرت فيما يمكن أن أكتبه، وبدأت أجمع ما في ذهني وما قرأته من أشياء غريبة عن الحضارة المصرية القديمة، وكتبتها تحت عنوان (مصر التي لا تعرفونها)، وكتبت فيه على سبيل المثال ما يأتي: أول من عرف الدودة وأسماها حرارات كان في مصر، وأول من عرف علاج البلهارسيا بواسطة أملاح الأنتيمون كان في مصر، وأول إمبراطورية في التاريخ تحتمس الثالث في مصر، وأول سلم موسيقى سباعي في مصر، وأول من عمل عملية (تربنة) ومياه بيضاء في التاريخ في مصر، وهكذا... نشرت المقالة في بريد الأهرام، وبدا حينها وكأنك فتحت قلوب المصريين على عشق تاريخ أجدادهم، وبدأت تنهال التعليقات والكتابات على عظمة وحضارة تاريخ مصر. ومنهم الأستاذ محمد عبد المنعم

رئيس مجلس إدارة مؤسسة روز اليوسف، اتصل بي وقال: خصصت لك صفحة أسبوعية في روز اليوسف تكتب لنا مصريات. رفضت وقلت ليس لدي مادة تكفي أسبوعياً، وكان في ذلك الوقت لا يوجد إنترنت أو أي مصدر للمعلومات سوى الكتب والمراجع التاريخية. وكنت أرسل المقالات مع الممرض. قال لي محمد عبد المنعم: سأتركك للتفكير، وهاتفني مرة أخرى قلت له: يا أستاذ محمد ليس لدي المادة العلمية ولا وقت لدي أيضاً، قال لي (بطل دلع)... وبعد إلحاح منه قلت له سأكتب حتى نفاد المادة، أو الرصيد الذي لدي بعدها سأتوقف وأعتذر، فوافق وذهبت في هذا اليوم إلى المكتبة الموجودة بالمتحف المصري بميدان التحرير واشتريت منها حوالي ٣٠ كتاباً في المصريات وبمختلف اللغات، ومن هذه الكتب كتاب (رياضيات الهرم الأكبر) لجون تيلور وفيه يقول على سبيل المثال:

طول الهرم ١٤٩ متراً عند ضربها في ١٠٠ مليون تعطي المسافة بين الأرض والشمس.

وزن الهرم بضربه في ١٠٠ مليون يعطى وزن الكرة الأرضية.

أضلاع الهرم تتفق مع الجهات الأصلية.

مكان الهرم خط عرض ٣٠ على خط طول ٣٠ وهو مركز الثقل بين القارات الخمس.

محيط الهرم مقسوم على قطره يعطى أخطر ما وصل إليه علم الرياضيات وهو ٣,١٤ النسبة التقريبية التي لا يوجد معادلة لأينشتاين أو ماكس بلانك أو يوهانس كيبلر تحل بدون الباي. مصر عملت بهذه النسبة منذ أكثر من ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد. وأشياء أخرى كثيرة مبهرة في كتاب (رياضيات الهرم الأكبر) فكتبت مقالة عن الهرم الأكبر وأسراره، ومن هذا الوقت بدأت الكتابة عن المصريات في روز اليوسف بمقال أسبوعي، وشجعني إعجاب الناس وانتظارهم للمقال، أن أعطي المزيد وأستمر في القراءة والبحث في المصريات، وواصلت كتابة المقال أسبوعياً لمدة ١٠ سنوات من ١٩٩٥ حتى ٢٠٠٥.

وأثناء عملي في روز اليوسف، وبعده، قمت بكتابة العديد من الكتب في التاريخ المصري القديم مثل (الطب في مصر القديمة)، (مصر التي لا تعرفونها)، (هذه هي مصر)، (المسكوت عنه في التاريخ)... وغيرها، مثلا كتاب المسكوت عنه في التاريخ، والصورة على الغلاف لتوت عنخ آمون وعلى فمه كمامة، هذا الكتاب يتكلم عن الجوانب التي لا تعرفها الناس عن أسرار مقبرة توت عنخ آمون،

والتي ذكرها أندرو كولنز في كتابه الذي أصدره عام ٢٠٠٢، وذكر في الكتاب أن المقبرة كانت تنهب وقت الاحتلال الإنجليزي، وقد خاطب أحمد شوقي اللورد الإنجليزي قائلاً:

يَقولُ النـاسُ في سِـرٍّ وَجَهرٍ وَمالَكَ حيلَةٌ في المُرجِفينا
أَمَن سَرَقَ الخَليفَةَ وَهوَ حَيٌّ يَعِفُّ عَنِ المُلـوكِ مُكَفَّنيـنا

وكان وزير الأشغال في تلك الفترة هو مرقس باشا حنا في وزارة سعد باشا زغلول فأمر بغلق وتشميع مقبرة توت عنخ آمون، وجن جنون عالم الآثار هيوارد كارتر وذهب إلى مرقس باشا فرفض استمرار العمل بالمقبرة، وذهب إلى سعد باشا رئيس الوزارة ورفض أيضاً فرفع قضية في القضاء المستعجل رفضت أيضاً، ولجأ بعد ذلك إلى المندوب السامي البريطاني الذي لم يوافق أيضاً بعد أن رفض كل هؤلاء إعادة العمل في المقبرة.

ومن ضمن كتبي أيضاً كتاب (إحنا مين؟) أي (إحنا مين) من الناحية الجينية، والتاريخية، والدينية، والعلمية، وهكذا...

كيف أن جيناتنا المصرية موجودة في الأوربيين أو الآسيويين، وذلك بحث صدر من جامعة كمبردج أثبت أن الجينات المصرية موجودة في العديد من السلالات والأجناس القديمة، وهذا بحث كتب في المجلة الأمريكية للجينات البشرية/ فصل تحت عنوان (المصريون فينا جميعاً)، كتبه ثلاثة علماء من كمبردج، هم: مارك جوبلينج وكفرسيلد ولوقا باكملى، وهذا فعلاً ما يثبت أن (مصر أم الدنيا).

* ذكرت أن جميع العلوم بدأت من الحضارة الفرعونية وخاصة نبوغ المصريين القدماء في الطب، كيف كان ذلك؟

** أصاب (كورش) أول ملوك الفرس العمى، سنة ٥٥٠ ق.م، بسبب المياه البيضاء، وطلب من الجراحين المصريين الذهاب له في فارس لإجراء عملية تعيد له البصر، لأنهم كانوا الوحيدين الذين يجرون عمليات مياه بيضاء.

الأطباء في الخارج يقولون: ليس هناك (أمريكانولوجي) لكننا نعرف (الايجيبتولوجي).

برلين، من عدة أعوام، أهدت لنا القدم الصناعية لسيدة مصرية قديمة بترت ساقها كان لديها غرغرينا، ووجدوا مفصلات بين كل سلامية وأخرى في ساق المومياء.

* كيف استفدنا من معرفة المصريين القدماء للتحنيط ومن تقدمهم في الطب؟
** لقد عرف علماء الآثار والمصريات العديد من أسرار التحنيط والكثير من المواد المستخدمة فيه واستفدنا منه في الطب والفنون.

التحنيط في الدولة القديمة لم يكن بنفس القدر من التمكن كما في الدولة الحديثة. والعقيدة المصرية القديمة تعتقد أن الروح سترجع إلى الجسد يوم القيامة وخوفاً من أن تَضّل الروح كان المصري القديم يرسم وجه المتوفى على التابوت، أو يصنع له تماثيل كمساعدة للروح للتعرف على هذا الجسد، وكانوا يؤمنون أن الروح تخرج على هيئة طائر أخضر وتذهب إلى السماء. فالتقدم سواءً من ناحية التماثيل التي صنعها الفنان المصري القديم أو من ناحية الرسم على التوابيت كذلك، ساعدهم كثيراً في معرفة دقائق الجسم البشري لأنه كان يفتح وينظر ويحنط، وكذلك يشرح حتى يعرف سبب الوفاة. وهناك بردية طبية وجدت تقول (عند تشريح العنق وجدنا أن الفقرة الأولى مغروزة في الفقرة السفلية كما تنغرس القدم في الطمي)، وهذا يعني تشريح ما بعد الوفاة لمعرفة السبب.

وكتبت جريدة الديلي ميل صيف ٢٠٢٢، أن مستشفى بكمبردج كان لدية آلاف الإصابات بالرأس سنوياً وأجرت المستشفى بحوثاً ودراسات لطريقة القدماء المصريين في عمل (تربنة) للجمجمة، وقد أنقذت طريقة علاج القدماء المصريين حوالي ٢٠ بالمئة من الإصابات. ومعنى هذا أن العالم استفاد كثيراً من طرق علاج المصري القديم للأمراض.

كانوا أيضاً يفرغون المخ من الأنف، فعرف العلماء أن أقرب شيء إلى الأنف من الجهة العليا هي الغدة النخامية فعن طريق الأنف يضعون المواد المشعة ولا يوجد بينها وبين الغدة النخامية إلا العظام المصفاوية، فالإشعاع يخرج ويدمر الخلايا الشريرة الموجودة بالغدة النخامية، وهذه الطريقة أخذت من المصري القديم.

كذلك رد الكتف المخلوع يتم بالطريقة نفسها التي مارسها المصريون القدماء، وهي التثبيت الداخلي للمسمار، وعند تصوير إحدى المومياوات بالأشعة وجدوا مسماراً داخلياً في عظمة الفخذ المكسورة مثبتاً من الداخل، وهذا ما يفعله أطباء العظام حالياً. ويخرج أدم كرافو أحد كبار أطباء العظام في إنجلترا يقول: «لو قمنا بعمل صورة أشعة لهذه المومياء منذ خمسين سنة كانت وفرت علينا عناء تطوير المسمار الذي وصلنا إليه الآن بنفس الشكل الذي كان يستخدمه المصري القديم منذ ٤٠٠٠ سنة». ومن هذا المنطلق أستحضر ما قاله شامبليون الذي فك رموز اللغة المصرية القديمة، قال: «يتداعى الخيال ويسقط بلا حراك تحت أقدام الحضارة المصرية القديمة».

وقال أمير الشعراء أحمد شوقي:

مَشَت بِمَنارِهِم في الأَرضِ روما
وَمِن أَنوارِهِم قَبَسَت أَثينا
مُلوكُ الدَهرِ بِالوادي أَقاموا
عَلى وادي المُلوكِ مُحَجَّبينا
فَرُبَّ مُصَفِّدٍ مِنهُم وَكانَت
تُساقُ لَهُ المُلوكُ مُصَفَّدينا

* أجدك تستشهد غالباً بأمير الشعراء أحمد شوقي.. هل تحب الشعر؟

** أحب الشعر جداً، وأكتبه أحياناً بالعربية والإنجليزية، وأقرأ لشوقي وأبي العلاء المعري وغيرهما، ولكنني تعلقت بهما. لدي ذاكرة تحفظ ما تعجب به.

* كيف كان لحقوق الإنسان وسيادة القانون في مصر القديمة دور في خلود الحضارة المصرية؟

** لو قرأ قارئ في كتاب (فلسفة وتاريخ القانون المصري القديم) للدكتور محمود السقا أستاذ القانون في كلية الحقوق بجامعة القاهرة قوله: «هذه الحضارة عاشت آلاف السنين لأنها اعتمدت على القانون»، ويصف القانون في مصر القديمة بأنه كان مثالياً في قواعده، عالمياً في مراميه، عادلاً في أحكامه، صافياً في مواده، نقياً في مبادئه، مدهشاً للمؤرخين. قام على دعامتين هما: العدل أساس الملك/العدالة الاجتماعية، وأن الكل أمام القانون سواسية.

ويذكر د. محمود السقا كيف أن تحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية التي امتدت ما بين النهرين شمالاً وبرقة غرباً وأثيوبيا جنوباً، عندما أراد تغيير فقرة في القانون اعترض كبير القضاة، وقال: أعلم يا جلالة الملك أن كلمة الحاكم لا يجب أن تعلو فوق كلمة القانون فاعتذر تحتمس الثالث وطلب المغفرة.

ويكفي أن نقرأ الرسائل التسع للفلاح الفصيح عندما هاجم حاكم وادي النطرون، عندما تقاعس في أداء واجبه في تحقيق العدالة، وقال له في الرسالة الأولى: (لسانك هو المؤشر، ويداك هما كفتا الميزان دعني أضع اسمك على كل قانون عادل).

وقال له في رسالة أخرى: (اعدل فما أنت بعادل، مالك بطيء في حقوق الناس). تسع رسائل بهذه الطريقة حتى يرد له ما سرقه اللصوص منه، وفي الرسالة الأخيرة قال له: (اكتشفت أن ربة العدالة قد غادرت هذا الإقليم). رد عليه الحاكم وقال له: (لقد تركناك كل هذه المدة لتكتب لنا هذه الرسائل الرائعة) ولحسن الحظ أن التاريخ احتفظ لنا بها.

* هل هناك كلمات من اللغة المصرية القديمة ما زالت تستخدم حتى الآن؟

** يكفي أن نعرف أن عدد كلمات اللغة المصرية القديمة حوالي أربعة ملايين وأربعمائة ألف كلمة، وهذا كلام الدكتور ميسرة عبد الله أستاذ الهيروغليفية بكلية الآثار جامعة القاهرة، فهي أغنى لغة على سطح الكرة الأرضية، ومازلنا نستخدم في لهجتنا المصرية ولغتنا العربية حوالي ١٦ ألف كلمة من المصرية القديمة. من ذلك:

(شن رن) هو ما يحيط باسم الملك وصفاته، وهي كلمة مصرية قديمة، الآن نقول: (اسم له شنة ورنة).

الفول المطبوخ يقولون عنه (مدمس)، الخبز (بتاو)، والبصارة (بيصارو) وهي كلمات مازالت مستخدمة.

(حج) كلمة مصرية قديمة معناها النور أو الضياء، و- (از) معناها المتجه إلى، نستنتج أن (حج –از) التي تشكل كلمة (حجاز) معناها المتجه إلى النور.

(صاو) كلمة مصرية قديمة معناها يمتنع، و(م) تعني عن، لتصبح (صوم) يمتنع عن الطعام (أو الشراب).

و(حوى يا وحوى أياحا) تعني: أهلاً أهلاً أياحا، وهي (أياح حتب) الذي يعني القمر المطمئن، وكانوا يهتفون للملكة (أياح حتب) لأنها حررت مصر من الهكسوس.

وهناك آلاف الكلمات التي ظلت مستخدمة على شفاه المصريين، فيما يعرف باللغة الدارجة أو بالعامية المصرية.

* ما الجديد الذي سيقدمه الدكتور وسيم السيسي للمكتبة العربية؟

** هناك كتاب جديد بعنوان (أنا أتحدث إليكم)، منه على سبيل المثال: أنا المخ أتحدث إليكم، أنا القلب أتحدث إليكم، أنا الزائدة الدودية أتحدث إليكم. كتاب يعرف الناس بطريقة علمية مبسطة معلومات في شتى مجالات المعرفة، فهناك أيضا: أنا سيجموند فرويد أتحدث إليكم، وهكذا، فهو متنوع فيه من الطب والفلسفة والمذاهب والمفكرين والعلماء.

* إلى من يستمع د. وسيم السيسي؟

** أنا عاشق لعبد الوهاب، وليلى مراد، وعبد الحليم حافظ، وفريد الأطرش، وفيروز، وبعض أغاني أم كلثوم. وقبل أن أبدأ عملي في العيادة أستمع إلى أغاني عبد الوهاب من الساعة الواحدة إلى الواحد والنصف ظهراً.

* يوم في حياة د. وسيم السيسي.

** ابدأ بإجراء العمليات الساعة ٨ صباحاً حتى الساعة ١١، بعد ذلك ولغاية الساعة ٢ ظهراً أعمل في عيادة حلوان، ومن الساعة ٤ إلى ٦ في عيادة المعادي، وإجازتي يومي الجمعة والأحد.

* كلمة أخيرة توجها للناس أو للقراء أو للمجتمع كما تشاء.

** تعجبني نصائح للإمام الشافعي، لو طبقها الناس لكانوا من السعداء. يقول فيها:

إذا شئتَ أن تحيا سليمًا من الأذى
وحظُّك مَوفورٌ وعِرضُك صَيِّنُ
لسانَك لا تذكُرْ به عورةَ امرئٍ
فكلُّك عَوراتٌ، وللناسِ ألْسُنُ
وعينَك إن أبدَتْ إليك مَعايبًا
فصُنْها، وقل يا عينُ: للناسِ أعينُ
وعاشِرْ بمعروفٍ وسامِحْ مَنِ اعتدى
وفارِقْ، ولكنْ بالتي هي أحسنُ

وفي النهاية أقول: عندما سئل المفكر الكبير فرانسيس بيكون، كيف تتقدم أوروبا؟ قال: المعرفة قوة، سألوه: وكيف نصل إلى المعرفة؟ قال: الذين يقرأون لا ينهزمون – لأن القراءة معرفة والمعرفة قوة.

خطبة الهندية الحمراء إلى نساء فلسطينيّات
للشاعرة الكندية لي مراكل

تقديم وترجمة: جاكلين سلام*

بدأت علاقتي الخاصة بأدب الكنديين الأصليين (الهنود الحمر) منذ بدايات هجرتي إلى كندا. حوالي عام ٢٠٠٠ حيث شاركت في مهرجان لحقوق المرأة والأقليات المهاجرة، وهناك سمعت امرأة تعزف على الغيتار، وتغني وتتحدث عن سيرتها الشجية. عن عرقها وكونها واحدة من أبناء الهنود الحمر الذين تم فصلهم عن أهلهم عنوة في الستينيات من القرن العشرين، ليكونوا موضع تبني من قبل عائلات بيضاء ليتم تعليمهم المدنية والحضارة على خلاف نشأتهم في مقاطعات الهنود الحمر المنعزلة. بعضهم تم إجباره على الإقامة في مدارس خاصة، حيث تم تعذيبهم وبعضهم قضى نحبه بعيداً عن ذويه.

تلك مأساة افتتح باب البحث فيها في العام ٢٠٢١ في كندا. وكان على الحكومة الكندية أن تعتذر منهم على هذا الإجراء التعسفي، وتخصص ميزانية مالية لمداواة الجرح والتعرف على المفقودين وأصولهم. هذه المرأة كانت شاعرة، ومحامية، محبطة ومتألمة. تعاطفت مع قصتها، وتحدثت معها لاحقاً بعد المهرجان، وأجريت معها حواراً نشر في وسائل الإعلام المهجرية العربية.

كانت تلك بداية بحثي في تراث سكان كندا الأوائل (الهنود الحمر). **ويجدر بي أن أذكر أن كلمة «الهنود الحمر» كعرق، تم استبدالها بـ «الكنديين الأوائل»**، وبدأت هذه الكلمة تظهر في أدبيات الحديث عن هذه القبائل وهذا العرق. الكلمة ما تزال واردة في بعض قصائدهم وكتب دراسة التاريخ الخاص بالمنطقة.

---

* مترجمة وكاتبة سورية – كندية.

لم تنقطع متابعتي لأنشطتهم في منطقتي التي أقيم فيها حتى اليوم، أي ما يقارب ربع قرن وأنا أتعمق في تراث الهنود الحمر، وأحضر مهرجاناتهم، استمع إلى موسيقاهم، وأزور متاحفهم في كندا، وأستمع إلى قصصهم الشفاهية في التجمعات الثقافية. **والأنشطة كثيرة وخاصة في هذه السنوات الأخيرة وقبل انتشار وباء- كورونا في كندا والعالم.**

وأصبح الموضوع بالنسبة لي أكثر فضولاً حين قرأت عن شاعرة من الكنديين الأوائل لها قصائد مطبوعة عن فلسطين، تناصر حقوقهم وقضاياهم. كان اكتشافاً جميلاً.

كنت قد قرأت سابقاً أن محمود درويش له قصائد يشير فيها إلى إبادة الهنود الحمر، لكنني لم أتخيل أن تكتب شاعرة كندية عن تلك البلاد، وخاصة أن الكنديين البيض، في الغالب، كانوا منعزلين سياسياً وإعلامياً إلى حد ما، دون تعميم.

أما هذه الشاعرة، التي أنا بصدد تقديمها للقارئ العربي، فهي (لي مراكل)، التي رحلت يوم ٢٣ نوفمبر ٢٠٢١ في تورنتو، حيث كانت تقيم، ولها من العمر ٧٢ سنة. سبق أن التقيت بها شخصياً وحضرت ورشة كتابة إبداعية لها، بعد أن قرأت وترجمت بعض قصائدها إلى العربية.

مناسبات شعرية وحضور متنوع الأعراق

في عام ٢٠١٥، كانت صديقة إيرانية «بانوزان» تدير أمسيات شعرية شهرية في تورنتو وتدعو لضيافتها شعراء وفنانين مهاجرين، من كل الأعراق. اتصلت بي وأخبرتني أن الشاعرة «لي مراكل»، وهي من أصل هندي، ستكون ضيفة أساسية في إحدى الأمسيات، ودعتني للقراءة في الوقت المخصص (٣ دقائق لمن يرغب- أوبن مايك).

قررت الذهاب لحضور الأمسية وكنت سعيدة، إذ قمت بطباعة القصائد المترجمة إلى العربية للشاعرة نفسها. **وحين وصلت الى مكان الأمسية** في داون تاون تورنتو كانت الصالة عامرة بالحضور. اسم المركز (بيت زيتون) وكانت ملصقات على الجدران هي خرائط فلسطين قبل وبعد الاحتلال.

في فترة الاستراحة ذهبت إلى الشاعرة وألقيت التحية وعرفتها بنفسي. أعطيتها الأوراق المترجمة والتقطت صوراً معها. كانت سعيدة بالخبر، وأخبرتني سريعاً عن معرفتها بالشاعر محمود درويش. وانتهى الحديث هناك في تلك الأمسية، على أمل أن نتواصل لاحقاً.

بعد ذلك علمت بأنها تدير ورشة كتابة إبداعية في تورنتو، فذهبت للمشاركة. كانت أغلب النساء من الكنديين الأوائل وكنت الوحيدة المهاجرة المشرقية.

في تلك الجلسة، وزعت علينا بعض القصائد المطبوعة من دواوينها. أذكر أنها أشارت إلى القميص المتواضع الذي تلبسه، وقالت: هذا القميص مصنوع بيد نساء من أفغانستان. وتحدثت عن أجرة اليد العاملة الرخيصة هناك، والظروف البائسة التي تعيشها المرأة في العمل والتعليم. **كانت ملاحظاتها تحثّ** على التفكير في الشخصي جداً والخاص، وفي العام القريب والبعيد. كانت مناصرة للحقوق العادلة لكل الشعوب.

في تلك الورشة، كنت وجهاً لوجه مع قصص العديد من النساء المنحدرات من قبائل الهنود الحمر التي هي أصول وفروع ولغات مختلفة، بعضها شفاهي ينقل إلى الأجيال عبر الأجداد والجدات لذلك نراهم يثمنون كثيراً تجربة كبار السن باعتبارهم حملة المعرفة والطقوس والشفاعة والشفاء. ويجري تكريمهم ونقل المعلومات عنهم من جيل إلى آخر.

وهناك تذوق الخبز المصنوع على طريقة الهنود الحمر وبعض الحساء الحار. كان ذلك عام ٢٠١٦. كانت جالسة بيننا مثل أمّ مع بناتها، على سجيتها.

حين قرأت خبر رحيل الشاعرة لي مراكل، الناشطة الاجتماعية، شعرت بحزن من يفقد شخصاً عرفه من قريب ومن بعيد. **كاتبة جمعتنا بها هموم الإنسان والشعر.**

ولهذا أردتُ الكتابة عنها من جديد، ولعل روحها تبتهج بما نثمن من مسيرتها النضالية، شعرياً وإبداعياً. وهي التي وقفت يوماً على منبر «اليونسكو»، مع الشاعر الفلسطيني محمود درويش، وقرأت بالانجليزية قصيدته: **سجّل أنا عربي، فيما قرأها هو بالعربية، كما تشير المصادر.**

ومما يجدر ذكره بأنها كانت تحظى على شهرة واسعة وتقدير كبيرين بين الكنديين على اختلاف مشاربهم. وحصلت على جوائز تقديرية في أكثر من حقل.

سيرة أدبية: لي مراكل في سطور

الشاعرة لي مراكل من مواليد كندا، فانكوفر ١٩٥٠. تحمل تراث قبيلة ميتس وساليش. شاعرة وروائية وكاتبة مقالات ومحررة عدد من الأنطولوجيات الشعرية. صدر كتابها الأول عام ١٩٨٨.

تقول مراكل: «أردت أن أكتب الانجليزية بالطريقة التي أشعر بها حيال القصص التي سمعتها بلغتنا. أريد أن أخذ القصة القديمة، وأغزل أساطير جديدة مبنية على ما فقدناه خلال ١٥٠ سنة من قصة التطور ومنذ أن جاء البيض»، وعن السياسة والكتابة ترى الشاعرة بأنه لا يمكنها أن تفصل قصيدتها عما يجري في عالمها القريب والبعيد. تقول مراكل: أكتب انطلاقاً من ظرفي. نحن نعيش زمناً سياسياً طاغياً، وكتابتي تعكس ذلك. أكتب من خلال الأوضاع التي تحيط بنا. أوضاع السكان الأصليين في كندا. إننا في مخاض النضال من أجل اللا-كولونيالية.

الشاعرة لا تتوقف عند حدود قريتها وتاريخ شعوبها، بل تأخذنا إلى قضية الشعب الفلسطيني وتصور أحوال النساء والأطفال والبؤس والأمل بالحياة على الرغم من القصف والاعتداء. كما تصور في قصيدة ساخرة قصيرة مسألة الاغتراب عن العادات والمعايير واللغة الإنجليزية بحد ذاتها. القصائد المختارة هنا للترجمة مأخوذة من «أنطولوجيا شعرية لأشعار الكنديين الأوائل». **صدرت عام ٢٠٠٠ عن دار نشر** «برودفيو»، وهذه القصائد مرفقة بسنوات كتابتها كما يظهر في نهاية كل قصيدة. عناوين القصائد: نساء، ليونارد، حرب، تمثيل.

نصوص مختارة

القصيدة الأولى: نساء

نساء فلسطينيات تهز أسرة الأطفال
على إيقاع القنابل الأمريكية/الإسرائيلية
فيما الرياح الصحراوية تمزّق الخيام
والرمل يضرب وجوه الباحثين عن ماء.

في كان - أمريكا الأمهات يستخدمن العاج
وارتفاع أسعار «حفاظات الأطفال» من أكثر المشاكل جدية

تحت وابل الطلقات الماطرة في منتصف الشوارع
والقرى الممسوحة مع الأرض
أفواج المقاومة
تضرب قصور العاصمة

الشوارع في كان -أمريكا
غارقة بالمتسوقين
يهرولون للشراء.. للشراء.. والشراء..

في ورشات عمل تحت الأرض
شيّدتها أياد متواضعة
نساء يعملن طوال الليل
على ابتكار أسلحة من أجل فلسطين.

الأيادي النسوية في كان–أمريكا
بنهم تلتهم برتقال إسرائيل
لم تقع أعين أطفال فلسطين عليه أبداً.

الأرض تحتضن النساء، دافئات
ناعمات، بخطى واثقة الكرامة
طُبعت في واحات الصراع
تسقيها بالماء، مقاومات نسويات
ورياح التغيير الدافئة
تتنفس نقاء نكهة النصر
المتداعية إلى شواطئ بيتي البعيد.
١٩٧٢

ملاحظة: كان-أمريكا، هي اختصار لـ كندا-أمريكا. وأدرجت في النص الانجليزي: CAN-AMERICA

***

القصيدة الثانية: ليونارد

في أي مكان آخر يسمع أحد
قرع المعدن على المعدن

في أي مكان آخر تتمدد الأيام
إلى أيام بلا نهاية

حيث الوقت، يدلّ عليه
بالعدم المؤكد
حيث لا شعور بالراحة، من الصباح وحتى المساء
فقط ضحكات وقحة
على تعذيب
رفاقك الذين
مثلك
صاروا سجناء في أغلال الوقت
«ماما، حياتي توقفت منذ ١١ سنة ونصف»
الأخ مالكولم قال: «كل شخص غير حر، هو سجين»
ليس سجناً تماماً
إنه غرفة فارغة
بلا نور
بلا حب
إنها حياة، دون عيش
معاناة دون صراع

بالنسبة لمن هو غير حر منكم
وربما يتنقل دون فولاذ
هناك على الأقل
سعادة التمرد.
١٩٨٠

***

القصيدة الثالثة: حرب

في دمي يجري دم «الغال»
ثوار الباستيل والإشارات الأنثوية
الناعمة، اللدنة لـ «ساليش-كرّي»

نغمات الحنجرة العميقة الأساسية، تتبدد
تبتلعها الأرض،
ضحكة حارقة تتعالى، تشوه صوتي

ابنة الأرض- دمعة الغرب
مطر الساحل، قطرة ندى تتلألأ
رقراقة، شمس بيتي المشرقة

امرأة دافئة من منتجع «سن سكايب»/ البحر الأبيض المتوسط
تبيّضُ القطن الخشن- لذكرى
المصنع الاستغلالي

زلزال وقح، مدٍ
يفصم روحي من الداخل. قطرات عنب صغيرة
من النبيذ تعزيني

هل يمكنني أن أدير الظهر لتراث، طُمر
بجهد بلايين الناس، خُطط له
بالاغتصاب، النهب والنحر؟

في الأوردة، ذلك القتال لغرس أنفسهم
في فسحات أرضي الفارهة
حيث يجري دم الإنسانية

لص أوروبي، مخادع، مصاص دماء
أنا لا أنكرك، لا أخافك
حقيقتك وحقيقتي لم تعد ترهبني
يسيرني حبي للحياة

إيماني الراسخ بأن العالم كله يجب أن يتوقف عن الذبح
والمجازر

أمضي من عمق جراحي، ومن أوساخي
كي أعيد كتابة التاريخ بجسدي
كي أريق دم الذين خانوا أنفسهم

إلى الحياة، إلى إنسانية العالم، أدوّنُ
إلى شعبي... تاريخي... أوجه
رؤياي
١٩٦٩

***

القصيدة الرابعة بعنوان: تمثيل

يجب أن أحصل على أوسكار
من أجل كل الأكاذيب التي لفقتها
كل الأقنعة التي لبست...
لكنهم، لا يعطون الأوسكار لنساء هنديات
لارتدائهنّ ثياباً كما في مجلة (فوغ)
حيث يقطرون الإنجليزية بالعسل

تذكّر، «تا اه»
أنا أتكلم حبرا-إنجليزياً متكسّراً
الآن
أنا،
عاجزة عن النطق...
١٩٧٢

كتـب ومراجعات ونقد

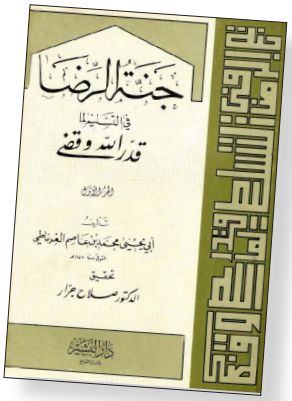

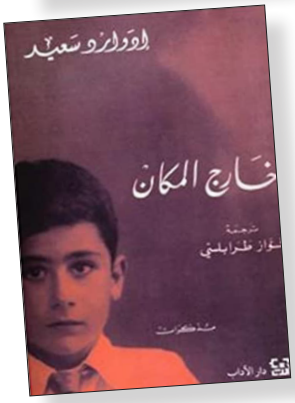

قراءة في مختارات من المُنجَز العلمي

للأستاذ الدكتور صلاح جرار

أ.د. أيمن محمد ميدان*

عندما يطلق هذا اللقب دون ذكر لاسم ملحق به في حقل الدرس الأندلسي العربي المعاصر فإنه يشير دون ريب أو تردد إلى معالي الأستاذ الدكتور صلاح محمد جرار وحده ،أقول هذا الكلام مستحضراً قول غييرمو أرايا في حق أميركو كاسترو وهو أعظم مؤرخ إسباني معاصر شغل بالحضور الإسلامي والعربي وامتداداته في التاريخ الإسباني منذ القرون الوسطى وحتى اليوم، ضارباً عرض الحائط بمقولات القوميين الإسبان وغيرهم المهوسين بنقاء الدم، وكان محقاً تماماً:

«سجل السيرة الذاتية والأكاديمي لأميركو كاسترو مثير للإعجاب من حيث الجودة والكم. ومع ذلك ... ففي سن ٦٣ عاماً يتجه بكامل قوته نحو اتجاهات جديدة من الدرس ، وعندما ركن العديد من العلماء عشية تقاعدهم من التدريس والبحث إلى الراحة والدعة ، بدأ أميركو كاسترو الجزء الأكثر أصالة وشدة من عمله»
Pedro Martínez Montávez: Américo Castro y los moriscos

يعد الدكتور صلاح جرار واحداً من أبرز المهتمين بحقل الدراسات الأندلسية درساً وتحقيقاً وإبداعاً أيضاً، اتسمت دراساته بضخامة المنجز وديمومة العطاء واستمراره، مولع بالجديد يسعى إليه غير مدخر وقتاً أو جهداً في سبيل تحقيق هذه الغاية، فحقق حضوراً بارزاً على الساحة العلمية أستاذاً جامعياً مرموقاً، تخرجت على يديه أجيال من عشاق الأندلس، وضيفاً أثيراً على الملتقيات العلمية ذات الصلة بتخصصه

* أستاذ الأدب الأندلسي بجامعة القاهرة (مصر).

الأساسي، فلقي حفاوة الأوساط العلمية داخل الوطن العربي وخارجه، فنال وسام ملك إسبانيا برتبة «فارس».

تعددت صور عناية «الأستاذ» بالإرث الفكري الأندلسي، بحثاً عن مناطق ثَريةَ لم يتنبه إليها الباحثون السابقون، أو عرضوا لها لماماً دون استقصاء أو روية طرح ومعالجة، فحاز قصب السبق في هذا الاتجاه، مُنتجاً للمعرفة لا مجتراً للساند المكرر المملول، وأمام منجزه الهائل أراني مدفوعاً إلى الوقوف أمام البعض منه:

أولاً - كتاب «جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى»، لمحمد بن عاصم الإشبيلي. (ت ٨٥٧هـ):

يعدّ تحقيق هذا الكتاب والتمهيد له بدراسة عميقة للمؤلف سيرة حياة ومنهج طرح، إحدى صور ولع د. جرار بغرناطة التي اختصها بكتاب ذي منحى فريد، فراح يرصد بعين العاشق مظاهرها الحضارية التي استعصت على المحو متحديةً النسيان (ديوان الحمراء)، ثم اختار عنواناً دالاً لأحد كتبه استوحاه من موشح ذائع لابن الخطيب (زمان الوصل). وتكتمل «ثلاثية جرار الغرناطية» بتحقيق كتاب محمد بن عاصم «جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى».

أقدم «الأستاذ» على تحقيق هذا النص تحدوه رغبة صادقة في الكشف عن المطمور من تاريخ غرناطة بني نصر، فوجد فيه بغيته ، فتجشم عناء تحقيقه متسلحَاً بكل ملكات المحقق الأنموذج، يعرض هذا الكتاب لغرناطة بني الأحمر في حقبة محددة (أوائل القرن التاسع الهجري حتى منتصف العقد السادس منه).

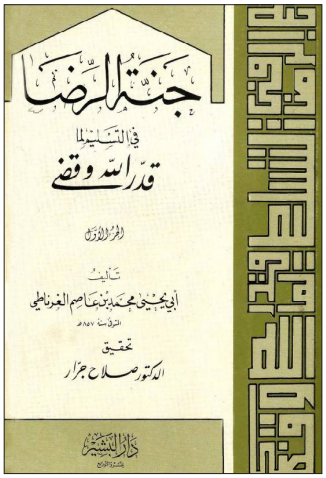

والكتاب يرصد الواقع الذي عاشته غرناطة بني نصر، ويسرد معلومات يندر وجودها في المصادر الأخرى، فقد عاين واقعها مرأى العين وسردها كراوٍ عليم، فهي أقرب إلى سيرة ذاتية لابنٍ عاصم شاهداً ومشاركاً في صنعها.

وظَّف المؤلف الأشـــعار والرســـائل المشرقية والأندلسية في سياق موضوع فريد، ألا وهو المحن والابتلاءات التي يتعرض لها الأفراد والدول وسبل مواجهتها واستنباط العبرة منها، كما أوردها محللة ومدروسة.

ثانياً- كتاب «أدباء مالقة» المسمى: «مَطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد ما لهم من المناقب والآثار» لأبي بكر محمد بن محمد بن علي بن خميس المالقي (ت ٦٣٩هـ):

احتفى الباحثون حفاوة خاصة بهذا الكتاب، فاعتمدوا عليه مصدراً في تحقيقاتهم ودراساتهم، ولكن أحداً منهم لم يتجشم عناء تحقيقه لأسباب متعددة، من بينها ما يعتور الأصل الخطّي اليتيم من نقص طال المقدمة والخاتمة والوسط، وما لحق نصوصه من تلف وطمس ومحو ولم تخلُ مفرداتها من تصحيف وتحريف»، وما شاب أوراقه من تقديم وتأخير، فنهض بعبء تحقيقه مهتدياً إلى إتمام ما نقص من مصادر أندلسية ومشرقية اهتدى إليها.

يضم هذا الكتاب تراجم لـ ١٧٣ علماً من أعلام مالقة والطارئين عليها من خلفاء ورؤساء وأدباء وشعراء وفقهاء... فاحتفظ بسير من لا سير لهم في مصدر آخر، ونصوص ضاعت أصولها، وأشعار لا وجود لها في دواوين أصحابها المنشورة أو المجموعة.

والمطالع في هذين السفرين الأندلسيين القيمين -وغيرهما من تحقيقات أخرى- يلمس أننا إزاء عاشق أندلسي مولع بالبحث عن جوانب مطمورة تزيد صورة الأندلس وضوحاً، غير مدخر جهداً أو ضانّ بوقت، عملاً بقول أبي فراس الحمداني:

تهون علينا في المعالي نفوسنا

ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

وهذا عرض لثلاثة من الكتب المؤلّفة، ورصد للقيم العلمية المصنفة بها:

ثالثاً: كتاب «ديوان الحمراء»

شغل المهتمون بالإرث الحضاري الأندلسي -مستعربين إسباناً وباحثين عرباً- بما تركه الأندلسيون من حضارة وجدت لتبقى حيّة تلهم الأجيال المتعاقبه أنماطاً إبداعية متوالدة متجدّدة، وقد بدأت العناية بالنقوش الشعرية والنثرية التي ازدانت بها جُدُرُ الحمراء وأسقفها وباحاتها...بداية مبكرة على يد الموريسكي الإسباني ألونسو دى أليكاستيو، عندما أصدر كتيبه «استيعاب ما بحمراء غرناطة من التواريخ والأشعار» وضم ما دُوِّن من أشعار مترجماً إياها إلى الإسبانية، ثم توالت جهود تريسا غارولو وماريا خيسوس فيغيرا، ثم امتدت العناية إلى الباحثين العرب، فدرسوا هذه النقوش من خلال المدونات التاريخية الأندلسية، ولكنها افتقرت إلي التوثيق المادي لهذه الكتابات وتلك النقوش، وجاءت المعالجات جزئية، تركيزاً على باحة أو قاعة ... أو منحصرة في نقوش شاعر دون باقي الشعراء الغرناطيين الآخرين، فشغلوا بنقوش ابن زمرك الشعرية وتجاهلوا ما تبقى من نقوش شعرية لابن الخطيب وابن الجيّاب وغيرهما.

وهنا تأتي دراسة د. جرار الرائدة «ديوان الحمراء، الأشعار العربية المنقوشة في مباني قصر الحمراء وجنة العريف بغرناطة» لتجمع كل ما تبقى من أشعار، دارساً إياها دراسة متعمقة، محققاً إياها بأسلوب علمي دقيق، ملحقاً كل نص بصورة فوتوغرافية ملونة له، جامعاً بين الإفادة والمتعة... وهذا دأبة فيما يصنع، إذ قدم قراءة دقيقة رصداً ودرساً وتحقيقاً وتوثيقاً، وكان لعمله الرائد كبير أثر في جيل من الباحثين العرب نهجوا نهجه أذكر منهم د. محمد عبد المنعم الجمل (مصر)، ود. مرتضى كمال حريحة (العراق) وغيرهما، فنهجوا نهجه وسلكوا دربه.

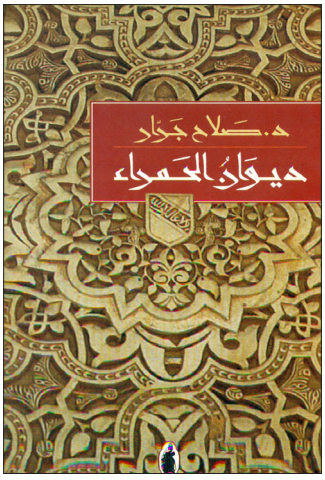

وقد ألقى «الأستاذ» الضوء على ما بذله من جهد وما سعي إلى تحقيقه من غايات، فقال: «إن الهدف من هذه الدراسة، بعد تصوير ما أمكن تصويره من الأشعار المنقوشة في مباني الحمراء وجنة العريف، أن أضم هذه المصورات جميعاً في (ألبوم) خاص، ثم أقوم بتحقيقها، والبحث عن الشعراء الذين نظموها والتعريف بهم، ومقابلة هذه الأشعار على دواوين الشعراء والمصادر الأدبية الأندلسية، ثم دراستها من حيث موضوعاتها وأساليبها وقيمتها الأدبية والفنية والحضارية».

رابعاً: «زمان الوصل، دراسات في التفاعل الحضاري والثقافي في الأندلس»

يأتي هذا الكتاب امتداداً لولع د. جرار بغرناطة التي بدأت رحلة العشق بينهما مبكرةً عندما اتخذ من أشعار شعرائها الكبار مدونة شعرية لرسالته للدكتوراه، وظل هذا الولع يخبو حيناً، ويتأجج أحايين أخرى، ويتخذ هذا الولع هنا بعداً شعرياً وجمالياً، عندما يستعير تركيباً ورد في موشح ذائع الصيت لشاعر غرناطة الكبير ومؤرخها العظيم ابن الخطيب يقول فيه:

جادك الغيث إذا الغيث همى

يا زمان الوصل بالأندلس

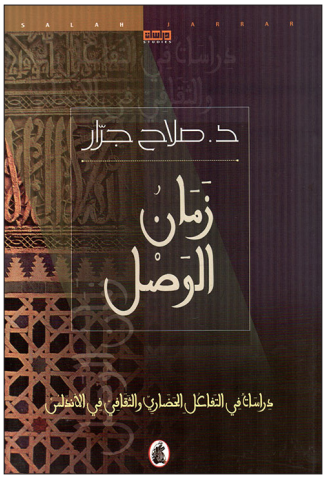

وجرار وهو يعرض جوانب من النماذج الحضارية والتفاعل الثقافي واللغوي مع الآخر عزَّ وجودها في الزمن الغابر، مؤكداً أن القوة العسكرية وحدها لا تحقق للأندلس كل هذا الحضور، فقامت حضارتهم على دعائم متعددة، منها الانفتاح على الآخر دون قيود أو شروط، وانتشار قيم العدل والتسامح، ومراعاة حرية الرأي والعبادة، وطلب العلم وتطوير المعرفة ونشرها دون حجب أو استغلال، فحققوا في هذا المضمار نجاحات عز نظيرها، وما صرخة أوليفارو سوى دليل على نجاح الأندلسيين في استقطاب طوائف مجتمع الأندلس لثقافتهم وإتقانها.

عالج جرار هذه المظاهر من خلال مباحث ثلاثة تتجلى في: مظاهر العلاقات الثقافية بين الأندلس وأوروبا، واحتفاء مسلمي الأندلس بأعياد المسيحيين، ثم عنايتهم بتاريخهم أيضاً، وهي مظاهر حاضرة وممتدة، مما كان لها كبير الأثر في أعلام مدرسة الاستعراب الإسباني بدءاً بجيانجوس وانتهاء بماريا خيسوس فيغيرا، فسلطوا الضوء على هذه الجوانب في دراساتهم بالإسبانية ولغات أخرى.

خامساً: «جوانب منسية من الحضارة الأندلسية»:

نالت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس قدراً كبيراً من عناية الباحثين عرباً وأجانب، فانجذبوا صوبها راصدين تجلياتها في ميادين عدة متدبرين إياها هويةً ودوافع، فشملت الدراسات جوانبها المختلفة الكبرى من علوم وعمارة وفكر.

وتكتسب هذه الحضارة أهمية كبيرة لدى الباحثين عرباً ومستعربين إسباناً، فهي إرث إنساني وحضاري عربي بوصفه إفراز عقلية إسلامية وصيغ بلغة عربية، بينما يراها الإسبان إرثاً إسبانياً، مطلقين على تلك الحقبة «إسبانيا الإسلامية» أو «الإسلام الأيبيري».

ووسط هذا الركام الضخم من الدراسات المتصلة بالحضارة الأندلسية بالعربية وغيرها من لغات يصعب على الباحث المعاصر أن يجد لنفسه موطئ قدم كي يدلو بدلوه دون الوقوع في أسر هذه الدراسات تكرارًا ومحاكاة. ومن هنا تأتي أهمية دراسة د. جرار المولع بالبحث عن الجديد، فراح يسلك طريقاً مغايرة، في بحث الظواهر الحضارية الكبرى، فولى وجهه شطر التفاصيل الصغيرة يلتقطها من المصادر الأندلسية القديمة الضخمة، ويتتبع جزئياتها جامعاً شتاتها، مقارباً بينها حتى تستقيم ملمحاً بارزاً، وهو أمر شديد الصعوبة، ودونه خرط القتاد وساعات من الجهد تنتهي أحياناً دون كبير زاد، وهذا ما يشير إليه جرار ذاته في مقدمة كتابه قائلاً:

«هذا الكتاب يهدف إلى تسليط الضوء على جوانب خفية أو منسية من الحضارة الأندلسية لم يتعرض لها الباحثون إلا عرضاً أو لم يلتفتوا إليها، وهي مما ورد متفرقاً في المصادر التاريخية والأدبية، وكان له صدى

باهت أو واضح أحياناً في ما وصل إلينا من النصوص الأدبية من شعر ونثر وموشحات. وهي جوانب يمكن أن تغني صورة الحضارة الأندلسية وتزيدها جلاءً، كما أنها تعزز وظيفة مهمة من وظائف الأدب، وهي وظيفة تصوير حياة المجتمعات والشعوب عن قصد أحياناً وعن غير قصد في أحيان أخرى».

ومن المظاهر الحضارية المطمورة أو المنسية على حد تعبير د. جرار التي كشف الستر عنها: استعمال الأندلسيين للعربات، ومصارعة الثيران والولع بها ممارسة ومتابعة، ومعرفتهم «خيال الظل، والرقص على الحبال، وحضور المرأة شاعرة وعالمة، وقبة عباس بن فرناس الفلكية» ... وغيرها من مظاهر غابت عنا إما لقلة التعرض لها بالدرس المتأني، أو تناولها على عجل دون تريث.

مما سبق يتجلي لنا مدى ضخامة منجز د. صلاح جرار في حقل الدرس الأندلسي إبداعاً وتاريخاً وحضارة، وتنوعاً في آليات الدرس عرضاً ونقداً وتحقيقَ نصوص اتسمت بالجدة وضخامة الجهد، وبدا د. جرار مولعاً بالجدة، يتتبعها في جل دراساته، ليصبح منتج معرفة وليكون جديراً بأن تلقى دراساته تقدير أهل الاختصاص عرباً ومستعربين ومستشرقين، وعليه فليس غريباً أن ينال وسام ملك إسبانيا برتبة «فارس».

مناقشة فكرية حول كتاب
«ديـن العقـل وفقـه الواقـع»
للدكتور عبد الحسين شعبان*

م. سمير الحباشنة**

(١)

يمثل هذا الكتاب، بمجمله، مناظرات بين الدكتور عبد الحسين شعبان والسيد أحمد الحسني البغدادي، لكنني في الحقيقة وجدت به جهداً فلسفياً فكرياً نقدياً يتسم بالعمق وبالإحاطة المعرفية والغوص بجرأة في الواقع العربي، في قراءة تاريخية معتقدية، ترصد التاريخ بما له وما عليه. وتسعى نحو استنتاجات تلاقح بين الموروث والحاضر، استنتاجات من شأنها إبرام مصالحة ما بين الدين الإسلامي وأدوات وإمكانيات التجديد، ما يخدم مسيرة العرب وتطلعهم إلى مستقبل أفضل وبشكل عام المسلمين.

(٢)

إن هذه الحوارية تتسم بأهمية خاصة كونها تنعقد بين رجل دين وصل إلى أعلى المراتب في المذهب الشيعي الإسلامي وبين شخصية فكرية قانونية فلسفية من خلفية يسارية، ترنو إلى إحداث اختراق إيجابي في الموروث، والسعي إلى تخليصه مما علق به من ترهات وشعوذات وربما إسرائيليات، طبعت سلوك الإنسان العربي بها والمسلم

---

* نائب رئيس جامعة اللاعنف في بيروت، وعضو منتدى الفكر العربي (العراق).
** وزير سابق، وعضو منتدى الفكر العربي (الأردن).

بعامة، حتى طغت في كثير من الأحيان الطقوس على جوهر رسالة الإسلام السمح. وعلى أي حال فهي محاولة لجلي الحقائق وتخليصها مما علق بها من غبار السنين، وبالتالي إعادة التجسير بين المذاهب المختلفة على قاعدة ما يخدم الإنسان ومستقبله.

وإن أهمية الحوار ما بين عبد الحسين شعبان وأحمد الحسن البغدادي، مع حفظ الألقاب، أن كلاً منهما موجود في خانة فكرية خاصة، لكنهما تمكنا من امتلاك مفتاح الدخول إلى خانته الفكرية وبنفس الوقت قدرته على الخروج منها والالتقاء بالآخر، وأيضاً مفتاح الخروج منها إن اقتضى الأمر، عكس الكثير ممن ينتمون إلى التيارات الإسلامية السياسية والقومية واليسارية الذين تحولت خاناتهم الفكرية إلى صَدفات مقفلة، الأمر الذي حال بينهم وبين قدرتهم بالخروج من هذه الخانة الفكرية «الصَدفة المقفلة»، والتي ضاقت عليهم وضاقت على الواقع، وتصبح دون جدوى في خدمة هذا الواقع وتحريكه إلى الأمام.

لذلك نرى كثيراً من القوميين يتحدثون بخطاب خشبي، وكأن جمال عبد الناصر لا زال حياً، وكأن الحركة القومية العربية لا زالت في ألقها على امتداد الوطن العربي، والأمر ينسحب على اليساريين، حيث أسمع الكثير من الخطابات اليسارية تبدو للمستمع وكأن الاتحاد السوفييتي لا زال في عزه ولا زال قوة كبرى مؤثرة في العالم، والأمر ذاته ينسحب على الكثير من قوى الإسلام السياسي، هذه القوى التي تحاول أن تحشر اللحظة الراهنة والواقع الذي يعيشه العرب في صَدفة تحمل أفكار ما قبل ألف عام دون أي تجديد ودون أي إمكانية لمحاكاة الواقع ومتطلباته وتحدياته الراهنة.

هذا ما يميز الدكتور عبد الحسين شعبان وأحمد الحسني البغدادي، وهو الأمر الذي يجب أن يميز كل صاحب فكر حيوي، بحيث يستطيع أن يمتلك الفكر ويؤثر به، لا أن يكون أسيراً لهذا الفكر ومعتقلاً، أو أسيراً في صدفته المغلقة.

والحقيقة الماثلة للعيان أنك وإن أردت أن تشتت أمّة ما فإن أقصر الطرق إلى ذلك هو تشتيت معتقدها عبر تحويل المعتقد الواحد إلى معتقدات متنازعة، فتسود أجواء الأمة روح الكراهية

والتضاد الذي يبدأ بالكلمة وينتهي باحتراب البندقية، وما يترتب عليه من قتل ودمار. وهذا ما يتصف به، مع الأسف، الواقع العربي الراهن في كثير من أقطاره، وبالذات أقطاره المهمة.

(٣)

وعودة إلى الموضوع، أقول إن هكذا مناظرات حوارية تتسم بإيجابية إيقاف ودحر الانقلاب على مفهوم وحدة الدين الإسلامي، بل وعلى مفهوم وحدة الأديان التوحيدية، ذلك أنها جميعاً نزلت على الإنسان من الخالق سبحانه بصور مختلفة بأسلوبها، لكنها موحدة بغايتها لخدمة الإنسان وإشاعة أجواء التواد والاحترام المتبادل فيما بين منسوبيها.

وهي حوارية تسعى إلى تحويل الاختلاف إلى تنوع، فالاختلاف يولد الكراهية والتنوع يولد الإيجابية والابتكار وقبول الآخر، وبالتالي التقدم. وهي حوارية تسعى إلى أن يواكب الدين الإسلامي متطلبات العصر والإجابة على أسئلته وتحدياته، تلك التي تواجه العرب والمسلمين وتضعهم حتى اللحظة في خانة متخلفة عن مسيرة التقدم الإنساني التي تسبقنا بمراحل شاسعة، وهذا يتطلب منا، كما ذكرت، احترام التنوع والذي يتطلب إعادة الاجتهاد إلى مكانته في فكر الأمة وسبل تطورها، فالاجتهاد هو ثالثة الأثافي بعد القرآن الكريم والحديث الشريف المؤكد، وهو السبيل للإجابة على أسئلة العصر. نقول إن الإسلام يصلح إلى كل زمان ومكان، وأعتقد حتى نثبت هذه المقولة فإنه لا بد أن يعاد الاجتهاد إلى مكانته وأن يعمل به بقوة لمجابهة كل هذا التطور السريع في الحياة والتي لا زلنا نقف بصفوف المتفرجين والمستهلكين لمخرجات الحضارة.

ذلك أنه ليس من الممكن تبني اجتهادات المجتهدين التي وضعت لملاءمة الأوضاع قبل قرون مضت وحشر الواقع الحالي بها. وأن الدكتور عبد الحسين أصاب لما سماه دين العقل أي بإضفاء صفة العقلانية على الدين خصوصاً كما يقول في ارتفاع موجة التجهيل والتكفير والتحريم، واستشهد بالمفكر توماس هوبز حين قال إن الإصلاح مفتاحه الفكر الديني، وبالتالي فإن القراءة الخاطئة والمحطة للدين وإبقائه في قوالب صبت منذ قرون إنما يعني تدمير الحاضر وتدمير المستقبل أيضاً.

وهو ما دفع بالدكتور عبد الحسين للقول إن العقل أساس الدين والاجتهاد هو أساس العقل، وأذكر هنا بأن القرآن الكريم طالما أشار مرات عدة إلى «الذين يتفكرون» لأنه يربط الإيمان بالفكر، ويوقر العلماء ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨)، أي ضرورة تماهي الإيمان والعقل والعلم، وبالتالي كيف للدين الإسلامي، المليء بالتسامح والحب، أن يُختَطَف من قوى مارقة تنطق باسم الإسلام وتستغله كأداة للظلم والكراهية والقتل وإشاعة التجهيل على مستوى الأمة؟

والدين الإسلامي، من جهة أخرى، أكد على الأمن والوفرة «نقيض الجوع» بالآية الكريمة: ﴿... الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ٤)، نقارن ذلك بحالة الفصام التي نعيشها اليوم، حيث نرى أن مساجدنا في طول وعرض العالم العربي والإسلامي مليئة بالمصلين، وبالمقابل فإن شوارعنا أيضاً ملأى بالجياع الذين يقتاتون من حاويات النفايات، فالتدين في بعض أوجهه الخاطئة أصبح طقوساً وليس تمسكاً بجوهر الدين ودلالاته الإنسانية الاجتماعية والاقتصادية، وأذكر بأن الزكاة في الإسلام هي واحدة من أركان الإسلام الخمس، وكما يقول سموّ الأمير الحسن بن طلال إن المسلم لو قام بواجبه وأدى الزكاة فإنه لن يبقى فقراء في العالم الإسلامي.

(٤)

وبعد، نحتاج إلى الاجتهاد للإجابة على التحديات وأسئلة العصر، نحتاج للاجتهاد من أجل التخلص من مفاهيم قضت وانتهت وتجاوزها العصر بفعل التحولات الاجتماعية والسياسية الراهنة، وعلى سبيل المثال:

(أولاً) **مفهوم أهل الذمة وحماية أهل الكتاب**، فإن المفهوم قد انتهى بعد أن أصبح المسيحي على سبيل المثال جزءاً من القوات المسلحة يدافع عن الوطن ويستشهد من أجله، ولم يعد أهل الذمة في حماية المسلمين لأنهم أصبحوا جزءاً من الدولة ومؤسساتها ومنها العسكرية.

(ثانياً) **مفهوم الجزية** الذي انتهى بعد أن أصبحت الضريبة الواحدة بديلاً عن هذا المفهوم، فالضريبة واجب على كل مواطني الدولة بصرف النظر عن ديانتهم أو مذاهبهم أو طوائفهم.

(ثالثاً) **مفهوم غنائم الحرب** والذي أيضاً قد انتهى وسقط هذا المعنى بعد

أن أصبحت الدولة هي المعنية، ولا يوجد هناك اقتسام لغنائم الحرب بأي شكل من الأشكال.

(رابعاً) فإن مفهوم الرق أُلغيَ عملياً في كل القوانين الوضعية المعاصرة على الصعيدين العربي والإسلامي.

أضرب هذه الأمثلة كفيضٍ من فيض، لأستنتج بأننا نريد إعمال الاجتهاد كوسيلة لتجديد الخطاب الديني ليصبح ملائماً للعصر، وبالتالي الولوج إلى المستقبل بقوة دون أي موانع فكرية أو معتقدية تحول دون ذلك.

(٥)

والمسألة الأخيرة التي أود طرحها هي مسألة حوار الأديان، والتي لا أرى لها أي معنى أو جدوى، فالحوار بالعادة هو أن يسعى الجميع إلى أن يصلوا إلى تفاهمات ومناطق وسطى للاتفاق، وهذا لا يحدث لأن العقائد الدينية ثابتة ذات مفاهيم مطلقة ومن غير الممكن أن تتغير تلك العقائد أو أن تتنازل عن بعض من مفاهيمها وصولاً إلى تلك المنطقة الوسطى المفترضة والمستحيلة ما بين الأديان المختلفة.

وأن بديل حوار الأديان هو مبدأ قبول الآخر كما هو، واحترامه واحترام عقيدته وتوقير منتسبيها في إطار المواطنة دون أن نطلب منه أن يغير من عقيدته. فلنكن واقعيين، فاليهودية لا تعترف بالمسيحية ولا بالإسلام، والمسيحية لا تعترف بالإسلام، ولكل منهما قراءة عقيدية تختلف في كثير من الأحيان، لذلك فإنني أرى أن من الضرورة بمكان أن نركز على قبول الآخر كما هو واحترامه دون أن نذهب إلى موضوع الحوار، لأن الحوار في هذه الحالة ليس بذي جدوى.

«خارج المكان» لإدوارد سعيد .. حكاية الارتحال والمنفى

قراءة وتعليق: سمير أحمد الشريف*

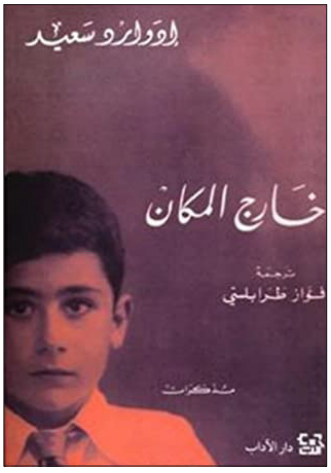

صارت الكتابة عن الذات دائرة تتسع يومياً، لأهميتها المرجعية في حياة الكاتب النفسية، وضرورتها في إضاءة الكثير مما لا يعرفه المتلقي عنه، وما تمثله من وثيقة يمكن التأريخ بها لفترة زمنية عايشها الكاتب وخط عنها ما علق في وعيه وذاكرته.

«إدوارد سعيد»، الذي يتعزى بالتأليف بغير لغته الأمّ، وعاش مكتوياً بصراعات «اللغة والمكان والدين»، وجد نفسه يحكي لغة غير لغته، متنقلاً في أماكن كثيرة، ويعتقد ديناً مخالفاً لما يعتقد به المحيط من حوله، الصادق، متعدد المواهب والميول، الناقد والباحث الأكاديمي، يقارن نفسه لتأليفه بغير لغته الأمّ بـ «جوزيف كونراد» الذي صار معروفاً على مستوى عالمي، وكتب هو الآخر بغير لغته (الإنجليزية)، وهي لغته الثالثة بعد البولونية والفرنسية، وأبدع فيها أيما إبداع، وقد غادر وطنه وهو في السابعة عشرة لفرنسا، أما «إدوارد سعيد» فأمره مختلف، حيث الفارق بين الإنجليزية والعربية يتخذ شكل توتر حاد غير محسوم بين عالمين مختلفين، بل متعاديين، فاختبر الشعور بالغربة المزدوجة، فلم يتمكن كلياً من السيطرة على حياته العربية في اللغة الإنجليزية، ولا هو حقق في العربية ما تمكن من تحقيقه في اللغة الإنجليزية، وصارت هويته تتكون من تيارات وحركات، لا من عناصر متجذرة ثابتة (ص ٨)، أما الجغرافيا

* أديب وناقد أردني.

التي كانت في مركز ذكريات «إدوارد» عن السنوات الأولى من عمره مرتبطة بالترحال: القدس/القاهرة/لبنان، وما يكتنف ذلك من شعور الرحيل والوداع، والوصول والشوق، والمنفى والحنين، هذه الأماكن المتعددة، شكّلت المدرسة فيها المشترك الأكبر والمكان المميز، وكأنه بكتابة هذه المذكرات، يحاول نفسياً تجسير المسافة زماناً ومكاناً، بين حياته بين الأمس واليوم، دونما مناقشة أو تعليل، من أجل ذلك يسعى أن يكون وفيّاً لتجربته وأحاسيسه وذكرياته، كما انطبعت على شغاف قلبه وسطرها عقله، ولو كانت مخالفة لرأي البعض ممن تناولهم في هذه السيرة، ووصل الخمسين من عمره حتى تمكّن من التخلص من ملامح شخصيته السلبية، والخروج على مرض الحرج من اسمه المركب من لفظ أجنبي وآخر عربي، والذي جعله يُحسّ أنه كالنير، يسبب له إرباكاً وقلقاً أمام الآخرين، وكان أول ورطة يواجهها في مجتمعه، فإذا عرفنا أن والده ووالدته لم يفتحا قلبيهما له، ولا يعرف عنهما الكثير، أدركنا عمق الهوّة التي وجد «إدوارد سعيد « فيها نفسه، وظلّ صريع السؤال الملح عليه: من أنت؟ سعيد اسم عربي وأنت أمريكي (ص ٢٨).

يُقدّم صاحب السيرة ذاته بلا رتوش، جريئاً في كشف أسراره وخفايا أسرته، بموضوعية، خجول في طفولته، مفرط الحساسية، تعرض لكثير من انتقاد والديه، عانى من ضعف ثقته بنفسه، وعدم قدرته على التكيف مع مجتمع البيت والمدرسة، تنازعته طريقتان متباينتان في التربية: منهج الأم، وأسلوب الأب، تائه على طريق تحديد هويته بين المكوّن العربي والأمريكي، تنازعته حيرة وقلق العيش في وسط مسلم وهو المسيحي.

شكّلت هزيمة حزيران انعطافة حادة في إعادة النظر في تحوله نحو عروبته.

لم يلتزم الخط المتنامي في كتابة سيرته، بل ظل يقفز وهو يحكي عن طفولته للمستقبل، وعندما يتحدث لاحقاً عن شبابه ونضجه، يعود للحديث عن طفولته.

أرّخ للأحداث السياسية كما عاصرها في مصر ولبنان، وظلّ يتوجس السلطة وتحمل مسؤولياتها، ويتهرب منها، أمضى حياته بين القدس والقاهرة والإسكندرية ولبنان وأمريكا. صوّر لنا العالم برؤيته، وبعدسة وعيه، الحقبة الناصرية، وسجّل أحوال القاهرة بدقة، في أربعينيات القرن العشرين، بعد أن استقر فيها الأرمن، والإنجليز، والشوام واليهود، وعانى

من نظرة العرب له كعربي يحمل الجنسية الأمريكية، ونظرة الإنجليز له وهو يحمل جنسية مغايرة، وهم من يبسطون جناحهم على مصر آنذاك.

عاش حيرة كونه الفلسطيني الذي لا يعيش في فلسطين، والأمريكي الذي لم يولد بأمريكا، والعربي الذي يعيش في مصر، ويتعلم فيها اللغة الإنجليزية: «أنا من هناك، أنا من هنا، لست هناك ولست هنا».

فصّل تكوين المجتمعات الأجنبية/ المدارس/في البلاد العربية، منتقداً المدارس البريطانية والأمريكية الخاصة، وكيف تفرضان مناهجهما وقيم مجتمعاتهما على طلبة المجتمع العربي، في عقر داره، وما يسببه ذلك من إرباك لغوي للطلبة، في مراحلهم الدراسية الدنيا والمتوسطة، وضياعهم بين اللغة الإنجليزية والعربية، وظل يعبّر عن عدم رضاه لوجود المدارس الخاصة في بلاد العرب.

قدّم في مذكراته، التي وقف فيها على فترتي الطفولة والشباب، تأريخاً لحيوات الجاليات في مصر قبل ثورة ١٩٥٢.

ذكرياته عن فلسطين عادية غير لافتة، والمكان باهت غير محدد الملامح، وطفولته فيها من المعاناة الكثير، «مع أبناء عمتي كنتُ دائماً ألهثُ لحاقاً بالتوأمين الذين يكبرانني بسبع سنوات، فلا استقلال لي ولا دور ألعبه، إلا دور ابن العم الأصغر، يستخدمانني بين الحين والآخر كمكبر صوت...عديم التفكير، كامل الطاعة مستمعاً مستكيناً إلى حكاياتهم» (ص ٤٥)، هذه المشاعر ظلت مزروعة في أعماقه، وإن حاول في القاهرة التحلل من شعوره الحاد بالوحدة (ص ٤٦) وظل المكان بالنسبة له محصوراً بحيّز المدرسة والكنيسة، والنادي والحديقة، تلك التي تختصر عالم «إدوارد»، كله حتى بلغ سنوات مراهقته المتأخرة (ص ٤٨).

رسم الكاتب صورة لوالده في مذكراته لم تكن بالقدسية التي يجب أن تكون عليه «كان أبي يمتلك مجموعة من السيارات، أجاز لي التحدث مع اثنين من السائقين فقط، خلال رواحه إلى العمل وإيابه منه، يُصرّ على الصمت الكامل، وعندما أرافقه، يبدأ الرحلة من البيت في مزاج بيتيّ، مستجيباً لحديثي إلى حد ما، وقد يتكرم عليّ بابتسامة، إلى أن نبلغ جسر «بولاق»، وإذ ذاك ينكمش تدريجياً ويصمت، ثم يتناول أوراقا من حقيبته ويأخذ بمراجعتها... ثم لا يعود يجيب على أسئلتي، بل لا يكاد يعترف بوجودي، ويتحول إلى رب عمل مهيب، إلى شخصية ما لبثتُ أن كرهتها وخشيتها، لأنه كان يبدو أقل آدمية عن الرجل الذي يشرف على حياتي (ص ٤٨)، حتى خالَ الطفلُ

أنه محتجز داخل عالم صغير، خلفه عالم كامل من السدود التي لن تلبث جرفهم، وكأن الأب والأم قد تعاونا معاً بتصرفاتهم لكي يتمكن «إدوارد» الصغير من بناء هذه الفرضيات، بنظاميهما الإداري المتكامل الذي من خلاله يتحكمان بوقت إدوارد دقيقة بدقيقة، نظام لم يترك لـ «إدوارد» غير فسحات انفراج نادرة يستمتع بها، وتمنحه الإحساس أنه منفلت من قبضة والده الذي رسم الفتى له صورة تمزج بين القسوة والصمت المطبق والعاطفة العجيبة (ص ٥٤).

أما الوالدان معاً فكانا يتناوبان على تحذير «إدوارد» من الاقتراب من الناس في الباص والحافلة، ومن تناول المشروبات أو الأطعمة في (زريبة الرذائل المحيطة بنا) (ص ٥٤).

رصدت المذكرات مراحل القمع التي وقعت على طفولة المؤلف بدءاً من «أستاذه لين» الذي عاقب «إدوارد» بالضرب ... «انتابني فزع مباغت من هذا الإنجليزي الضخم، الأحمر الوجه.. وهو يشير أن أتقدم نحوه، لم نتبادل كلمة، فيما رحت أقترب ببطء.. أذكر سترة زرقاء و.. خيزرانة قصيرة، أدركت أنه لا يجوز أن أنهار أو أبكي، جذبني من قذالي ثم دفعني للأسفل، بحيث بت منحنياً ثم رفع الخيزرانة وهوى بها ثلاث مرات ...» (ص ٦٩)، ومما زاد الطين بلة، أن والديه لم يبديا تعاطفاً مع الطفل، بل وصفاه بالشيطان، وكان رد أبي على الحادثة: أترى كم أنت شيطان، متى تتعلم؟

ولم يظهر في نبرة صوته أو صوت أمي أي اعتراض على بذاءة العقوبة، واكتفت أمي بقول «أمي إدوارد، لماذا توقع نفسك في كل هذه المشاكل؟» (ص ٧٠).

ولم ينس الطفل كذلك، ما كانت تُقرّعه به «مس كلارك» بأقوالها وتهكماتها «أنت يا «إدوارد» تصرفتَ بطريقة فظيعة، لم أعرف في حياتي من هو مثلك، فاقداً القدرة على التركيز، وعديم المراعاة للآخرين، وكسولاً ومتقاعساً، راقبتك دقيقة بدقيقة فلم تأت بعمل يشفع لك، سوف أبلّغُ عنك «مس ويليس» مديرة المدرسة، لتستدعي أهلك؟ (ص ١٢٠).

تسمرتُ في مكاني لهذا المديح الذي كالته لي بكلماتها التي نفذت لدواخلي، أتظاهر بالأسف والقوة وقد بدأتُ أكره أولاد الصف.. وشعرتُ أنني بلا تاريخ يقيني ذلك الحكم، الذي أصدَرته بحقي، وظل يتردد في مواعظ أمي.

أمام هذه التشبيكات العاطفية، والإساءات التي تعرّضت لها طفولة «إدوارد سعيد»، هل نستخرج منها مفتاحاً نفتح به قفل رفض الرجل للسلطة بأنواعها من بعد؟

قراءة في كتاب
«أزمــة الثقافــة الإســلاميــة»
تأليف: الدكتور هشام جعيط

قراءة وتعليق: يوسف عبدالله محمود*

الناشر: دار الطليعة – بيروت

د. هشام جعيط أحد أبرز المفكرين التونسيين، أثرى المكتبة العربية بالعديد من الدراسات المعمقة. قرأ التاريخ الإسلامي قراءة نقدية، بمنهجية واضحة بعيدة عن العواطف والمغالاة.

في كتابه «أزمة الثقافة الإسلامية» يطرح د. جعيط «قضية الديمقراطية» في عالمنا العربي والإسلامي، وفي رأيه أن «لا ديمقراطية عندنا في العالم الإسلامي». (المرجع السابق ص ٨)

وكلامه هذا لم يأت من فراغ، مُرجعاً ذلك «إلى عُروق فلسفية وثقافية». هو لا يرى مشكلة الديمقراطية في عالمنا العربي والإسلامي تكمن «في المظاهر الخارجية من تعددية وبرلمانية وانتخاب وغلبة الأغلبية، بل لها عُروق قيمية تمثل أساساً في قلب الضمير. والمقصود وجوب القناعة الداخلية بوجاهة الديمقراطية لدى النخبة والجمهور. فهل ثمة قناعة داخلية متوفرة لدى النخب والجمهور؟ هل تسكن هذه القناعة قلب الضمير؟ هل القيم الإنسانية راسخة لدى الطرفين، وفي رأي هذا المفكر «فإن القيم أهم من الحرية والمساواة لأنها تشتمل عليها وتغلفها». (المرجع السابق ص ٨)

يركز على «الضمير» الذي -مع الأسف- لم يُدخله الكثيرون منا وبخاصة «النخب الحاكمة في منظومة القيم المؤكدة». وكما يقول نحن بحاجة إلى «انقلاب ذهني ثقافي»

* كاتب وناقد أردني.

يدعم واقعنا الاجتماعي والسياسي». دون حدوث هذا «الانقلاب الذهني الثقافي» لن نرتقي إلى «الحداثة الحقيقية المطلوبة في هذا العصر. سنظل «نتخبط في التناقضات».

حديثنا عن أي «مشروع حضاري عربي» سيظل مجرد شقشقة لسان ومجرد «وهم فضفاض»، كما يقول.

في كتابه يقرأ جعيط «العلاقات التاريخية والعامة بين الإسلام والسياسة». وهنا نراه يعيد قراءة ثلاثة مفكرين يمثلون -في نظره- فترتين مفصليتين في تاريخ الاسلام: «إسلام المجابهة الثقافية مع أوروبا (خير الدين)، وإسلام المجابهة مع الذات (ابن خلدون، ابن تيمية، خير الدين -كما يراه- هو «مُتغرّب» «لم يكن يرى عظمة الإسلام التاريخية إلا من خلال شهادة أوروبا». (المرجع السابق ص ١٠٧)

وهذا في رأيي يمثل «استسلاماً ثقافياً للآخر وهو هنا الغرب «كان يصبو إلى محاكاة أوروبا في انجازاتها المادية مع استخدام إسلام تنويري». (ص ١٠٨)

باختصار كأن هذا المفكر يريد «رَوْحَنة وعقلنة السياسة».

أما المفكر الآخر فهو «ابن خلدون» وهو بحق مفكر لديه استنارة فكرية متقدمة يفرّق بين ثلاثة أنواع من السلطة.

-السلطة المطلقة بلا حدود، والتي تبرر «القمع والعنف».

- السلطة التي ينظمها العقل البشري.

-السلطة التي ينظمها كلام الله. (ص ١٠٩)

وهنا يمكن أن يقال إن ابن خلدون كان «حداثياً» بمقياس عصره، وهو القائل «إن الانحطاط إذا حل بقوم فإنه لا يرتفع». والمقصود أنه لا يرتفع إلا بوعي قوي في الأنا الفردي والجماعي.

رفض ابن خلدون الحكم القمعي الخارج عن الضمير، ولا سيما أن عصره ساده الكثير من القمع.

أما الشخصية الثالثة التي تناولها المؤلف فهي «ابن تيمية». حَظرِ ابن تيمية منح الحكم للعلماء، مطالباً بأن تخضع السياسة والمؤسسات الاجتماعية لروحية الإسلام ولشريعة والإسلام.

أكد ابن تيمية على ضرورة أن تتبع الأحكام الدنيوية من القرآن والسُنة، إذ ألبس هذه الأحكام المستندة إلى القرآن والسُنة «لباس العصمة والهالة القدسية». والواقع أن هذه النظرة لا تحاول الاستفادة من علم العلماء، فهو في عرف بعض المؤرخين، اليوم، قد غلب تفكيره السياسي-الديني على ما عداه. رفض قيام السلطة السياسية على العقل.

من هنا بدت بعض الأمثلة التي وردت في مؤلفاته متهافتة على حد بعض المؤرخين، كان يُفتي في العديد من المسائل وفق الفقه الحنبلي دون أن يرى إن كانت هذه الفتاوى تطابق معطيات العقل والواقع أم لا.

بعد استعراضه لآراء هؤلاء المفكرين يتساءل د. جعيط: هل يستطيع الإسلام تأسيس ثقافة إسلامية؟

يدعو الكاتب إلى «ثقافة سياسية» تستوعب المبادئ النبيلة في الإسلام كالعدل والمساواة والتضامن وتطبيقها بكيفية ملموسة في نواة الدولة، وليس طرحها (كبرنامج حكم).

وحتى يتم ذلك لا بدّ -كما أسلفت- من ثورة عقلية في الأذهان ترسخ مفاهيم العدل والمساواة في أذهان «النخبة» والجماعات. وحتى يتم هذا الترسيخ، إسلامياً وعربياً، لا بد من «توافر الشروط الضرورية لمثل هذا التحول وفي مقدمتها الديمقراطية، وتضامن بين الأفراد والشعوب، وتصور أفضل وأرقى لمعنى الحياة عند الجماعة والفرد على حد سواء». (ص ١٩٨)

وقد فطن إلى هذا التصور في عصرنا الحديث علماء ومفكرون أمثال: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، فمشروعهما الإصلاحي ببعده الديني «كان يطرح الكمال الإنساني أفقاً أخيراً لكل تقدم». (ص ٧٤)

أما ما هو مستغرب فأن تتم مقاومة «عقلانية محمد عبده الحصيفة» من قبل مؤسسة الأزهر باعتبارها «بدعة مُربكة وجرى تصورها كأنها حداثة مقنعة». (ص ٧٦)

وإلى جانب هذه العقلانية» التي مَثّلها محمد عبده، وإلى حد ما الأفغاني، برز «تيار سلفي» زعيمه رشيد رضا الذي راح يشدد على الإرث الإسلامي مُظهراً «السلفي» «في صورة المثقف الإسلامي الملتزم بمسار الحياة السياسية والاجتماعية، القاطع جذرياً مع طبقة العلماء». (ص ٧٧)

وبعد، لقد أصاب هذا المفكر حين أرجع «أزمة الثقافة الإسلامية» إلى غياب الديمقراطية والتعددية.

وكما أشار «لا يمكن للعرب والمسلمين أن يلجوا باب الحداثة والمشاركة في العالم المعاصر، إلا إذا كوّنوا لأنفسهم طموحاً عالياً في مجالات الفكر والمعرفة والعلم والفن والأدب، وقرروا بصفة جدية الأخذ عن الغير، وما أبدعته الحداثة في كل الميادين». (المؤلف)

يبقى أن أقول إن «الجدلية» القائمة بين الدين والحداثة والثقافة السياسية ستستمر، وهي ظاهرة صحية إذا توخّت «المشترك الإنساني».

رحلة من منائر بابل إلى هيروشيما

البُعد الأهوائي لدى باسم فرات

نـاديـة الزقــان*

«طريق الآلهة، رحلة من منائر بابل إلى هيروشيما» هو الكتاب السادس من كتب أدب الرحلات كما أَقَرَّ بذلك مؤلفه باسم فرات في مقدمة كتابه، هذه الرحلة التي قدمت له إجابات كثيرة عن اليابان، ما كان ليحصل عليها، لولا إقامته بهيروشيما مدة ثلاث سنوات (٢٠٠٥/٢٠٠٨م)، كما قدمت لنا كقراء إجابات عن سبب اختيار باسم فرات أدب الرحلات بدل غيره من الأجناس الأدبية الأخرى في التعبير، وهو الذي كان قد عُرِفَ شاعراً.

منذ البدء نجده قد تَنَبَّهَ إلى الدور الريادي للعرب في أدب الرحلات، مع إيمانه بكون «**أدب الرحلات هو تجسيد للآية القرآنية الكريمة ﴿..وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾**[١]، مُؤازَراً بمساعدة زوجه «جينيت» **التي لولاها ما كانت حياته ثرية بالسفر والترحال والمعرفة بالمجموعات اللغوية بالعالم**[٢].

كلنا يعلم أن الرحلات عالم ساحر من الرؤى وغوص في المجهول، وعبور الحدود لاستكشاف الأمكنة، بما فيه انتقال في الزمان والمكان، وهي أولى الأشكال التعبيرية الأدبية التي استطاعت تمثيل الأنساق الغيرية [٣].

---

* كاتبة وناقدة (المغرب).

(١) باسم فرات، كتاب طريق الآلهة، من منائر بابل إلى هيروشيما، ط١ ٢٠٢٠م، ص ١٤.

(٢) نفسه، ص ٤.

(٣) انظر آليات قراءة النص الرحلي الرحلة في الأدب العربي، التجنس، آليات الكتابة خطاب المتخيل لشعيب حليفي - أنموذجاً.

غير أن قراءة رحلة باسم فرات «طريق الآلهة» نجدها قد فرضت منهجاً تحليلياً خاصاً يستدعي البحث في الأنساق الذاتية للرحالة بسبب تدفق مشاعره وانفعالاته، الشيء الذي يدل عدم خلعه عباءة الشاعر المتأصلة فيه، وهنا نتذكر الأديب الفرنسي أناتول فرانس Anatole France حين يصف في قولة له إن نقد الشاعر لواقعه هو مغامرة الروح في عيون الأدب[٤]، والروح تغامر بانفعالاتها في عالمها الشاعري المنفلت...

فما هي أهم التجليات الروحية الوجدانية التي رتبت رحلة باسم فرات؟ وما دلالة توظيفها عند المتلقي؟

أولا: اللغة العاطفية مقاربة تفاعلية

باسم فرات وبهدف تقريب (Domestication) المشاهدات وإضفاء طابع الألفة على أفكاره، عمل على نقل الصور التي يتقبلها القارئ، فنهج -وبشكل مكثف- أسلوب المقارنة بين بلده الأمّ (العراق) والبلدان التي يزورها من جهة، وبين البلدان نفسها من جهة أخرى، وهذا بتعبير Antony Easthope يدعونا إلى استجلاء الأبعاد اللاشعورية للسقطات الفرويدية في نصه خاصة حين نجده يقول «**هيروشيما كيف تحولت ذكرياتي معك ومع أنهارك إلى ماض؟ كيف افترقنا وأنت التي زرعت في هوسا بك كي لا تغادريني.. أنت التي فتحت ذراعيك وقلت لي: كلانا أوجعه اليتم والجوع، فهلم إلي وبأنهاري يا ابن الماء الحي...**»[٥].

إن التعبير عن الأهواء في ذلك المقطع التواصلي مع مكنونات النفس، جعلته يكتب عن رحلته اليابانية باسترجاع ذكرياته العائلية هناك بالعراق، بدءاً من الجدة وحكاياتها الأسطورية عن بلاد الواق واق، التي تجسدت عنده في هيروشيما، ثم فرحه بأن يكون أول رحالة عربي يقيم بها، ذلك لأن اليابان هو البلد الأول الذي اختاره بإرادته ولم يُفْرَض عليه، عكس الأردن الذي كان هو المتنفس الوحيد للعراقيين، وعكس زي الجديدة (نيوزيلاندة) التي فرضتها عليه المفوضة السامية لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، لتصبح بعد كل ذلك هيروشيما ملاذاً آمناً حقيقياً له، يقول: «..**إذا بزوجتي تدخل علي وأنا جالس في البيت وكنت**

(٤) ويليك رينيه، مفاهيم نقدية، ص ٤١٠.

(٥) باسم فرات، كتاب طريق الآلهة، من منائر بابل إلى هيروشيما، ط١ ٢٠٢٠م، ص ٢٢.

قد وصلت من العمل قبلها، لتفتح الباب وتسألني سؤالاً عجيباً: هل تود العيش في هيروشيما؟ لم أفكر لحظة واحدة، نعم، أجبت بأقل من لحظة، أكيد وسأكون أول شاعر وأديب عراقي وعربي يعيش في هيروشيما»[٦]، لكننا سنتفهم فرحة باسم فرات أكثر حين سيفصح لنا عن التاريخ المرير للعراق وقتها (١٩٩١م)، فنستوعب بالتالي أسباب حرمانه من وطنه، والتي كان من بينها سلسلة الإعدامات التي طالت أبناء عمومته، يقول: «**وأتذكر جيدا أن ابن عمتي خضير الذي أعدم مع شقيقه محسن وابن عمنا علي في رمضان ١٩٩١م**، هذا الانتهاك لحرمة الشهر الفضيل، ازدادت وقتها مع اعتقال السلطات الحكومية العراقية لأبناء جيرانه محمد الدبو مع أخيه علي الدبو، لأنهما شاركا في انتفاضة ١٩٩١م، هذا الاعتقال الذي لولا لطف الأقدار، لطال باسم فرات أيضا (كان باسم قابعاً بإحدى الثكنات، حيث كان القانون يلزم الخدمة العسكرية لكل شاب عراقي وقتها) بسبب شبهه الكبير بمحمد الدبو، يقول: «**محمد الدبو سوف تعتقله السلطات الحكومية في وطني البعيد في رمضان ١٩٩١م مع أخيه الأكبر علي الدبو المتضلع في الإنجليزية، ليكونا معاً طعاماً سائغاً لنهم الطغاة والاستبداد للدم العراقي.. وأنا غادرت البلاد بدمعة لم تجف يوماً**»[٧]...هنا نحس مدى الخوف الشديد الذي تملك الرحالة، مع حسرته الكبيرة على شباب العراق، فاتخذ القرار...

فعل الرحيل هو فعل اغترابي، ذات قلقة تضيق بالمكان ويضيق مكانها بها، فتمارس الرحيل، هذه المغادرة القصرية للوطن كان لها تأثيرها النفسي على رحالة ذاق طعم المرارة التي تتركها الدموع المفجوعة على أوتار قلبه جراحاً بسبب رحيل الأهل في وطن فُقِدَ فيه الشعور بالأمان، فسافر ليعيش مرتحلا ذاتاً وتخييلاً، يقول ثيودور أدورنو Theodor W.Adorno «بالنسبة للإنسان الذي لم يعد لديه وطن، تصبح الكتابة مكاناً له ليعيش فيه»[٨]، وهذا ما حصل مع باسم فرات الذي اهتدى لـ (السرد الرحلي) كحيلة أدبية وفنية يعبر بها بظاهر القول عن المضمر الكاشف للتاريخ المأساوي للفترة التسعينية التي سادت العراق وقتها...

(٦) نفسه باسم فرات، كتاب طريق الآلهة، من منائر بابل إلى هيروشيما، ط١ ٢٠٢٠م، ص ٢٩.

(٧) نفسه، ص ٣١.

(٨) انظر ثيودور أدورنو من النقد إلى الاستطيقا (مقاربات فلسفية).

ثانياً: الاعتزاز وتفخيم الأساليب المثيرة للتعاطف

غصة باسم فرات على فراقه مسقط رأسه تتبدى واضحة كلما تقدمنا في قراءة النص، وهو الرحالة المعتز بالانتماء على الرغم من جفاء الطغاة، إذ نجده يقول: «**أنا ابن الأنهار، أنا سليل دجلة والفرات، أليس اسمي فرات تيمنا بنهر الفرات الذي على ضفتيه بدأت الحضارة**»[٩]، هذا الاعتزاز بتكرار ضمير الأنا والفرات، ثم استخدام أسلوب الاستفهام الاستنكاري الذي يوحي باستغراب لاوعيه للمآل الذي بلغه بلد كان هو مهد الحضارات العربية، هو الذي يجعل المتلقي يتفاعل ويشترك معه في البحث عن الخلل.. بل ويزداد تعاطفه معه خاصة حين يسقط مشاعر الفقد الأصلي على بلد آخر لمجرد تشبيهه به، يقول: «**هيروشيما التي لولا بغداد لقلت هذه مدينتي الفاضلة**»[١٠]، فقبل أن يستغرب المتلقي موقفه ذاك، تستنفره عاطفته الداخلية، ليلتفت إليه معتذراً، كمن خان بوصلة الحنين، ليشفع له تمسكه بحبل الجذور، الذي من شدة بعد المسافة أصبح أدق من شعرة معاوية، موظفاً أسلوب الشرط (لولا بغداد) الذي يؤكد ذلك الانشطار النفسي الذي زلزل نفسية الرحالة.

ثالثاً: استثارة الشفقة في بناء خطاب إقناعي

من بين الصور العاطفية التي قدمها هنريش لاوزبرغ Heinrich Lausberg (١٩٦٠)، هو الظهور بمظهر المتأثر[١١]، حيث يعمل المتكلم/الكاتب/الرحالة.. على الظهور بمظهر الهوى أو الانفعال الذي يروم توصيله أو إثارته في المتلقي، وهي استراتيجية تستنفر عدة وجوه بلاغية كالتعجب، الاعتذار، المقارنة.. أساليب أقبل عليها باسم فرات بهدف التأثير واستثارة شفقة المتلقي ليعذره في حبه لهيروشيما، وتلك مغامرة كان فيها مجازفاً بسبب التباعد الموجود في علاقة المشابهة بين كلتا البلدتين (بغداد/هيروشيما) فنجده يقول: «**ما شغفت بمدينة مثلما شغفت بمدينة هيروشيما، وما سحرتني مدينة مثلها باستثناء بغداد، واعذرني أيها القارئ، يا شريكي وصنوي تكرر عبارات الشغف بهذه المدينة، وإني**

(٩) باسم فرات، كتاب طريق الآلهة، من منائر بابل إلى هيروشيما، ط١ ٢٠٢٠م، ص ٣٥.
(١٠) نفسه، ص ٣٧.
(١١) محاضرات في البلاغة الجديدة، د. محمد مشبال، ط ٢٠٢١م، ص١٠٨.

لأطمع بوعيك وتفهمك لضحية استغل في كل مكان عمل فيه وعانى كثيراً من خجله وحيائه وانغماسه وهوسه بالشعر والكتب، وكانت هيروشيما أول مدينة أتفرغ فيها للشعر والقراءة والتأمل والسفر، ولا عمل لي سوى ما ذكرته»[١٢]، هنا نستشف قصده في استجلاء عاطفة المتلقي ليسامحه على شغفه بمدينة أخرى غير بغداد، لأنها وفرت له الأمان...فهل يعقل أن يسبب الاغتراب كل هذا الانقسام بين واقع مفروض وضمير يصدر تأوهاً وأنيناً؟ نسمع صداه حين يصرخ: «**أنا العراقي القادم من حزن كربلاء وتاريخها الموشى بالدموع**»[١٣].

رابعاً: البناء العاطفي لرحلة باسم فرات

ولأن باسم فرات يسعى إلى بناء خطابه الرحلي بناءً منطقياً، فقد دفع به حزنه على بلده إلى البحث في موضوعات تحكم إنتاج الأهواء والحجج العاطفية، وهو ما أوضحه رفاييل ميشيلي بقوله: «السعي إلى القبض على المنطق الذي يحكم البناء الخطابي للمواقف التي تبرر بشكل مثالي عاطفة معينة»[١٤]. هذا الوعي جعل باسم فرات ينتقل في سرده الرحلي بتراتبية مواضيعية بعيدة عن التسلسل الزمني، الشيء الذي مكنه حرية انتقاء وتنويع محاوره بوعي قصدي، اختارها لتكون خادمة لفعل المقارنة الذي يجعل العراق حاضراً، ومن ذلك الاستقصاء عن الأدب الياباني الذي أفاده في أمرين:

- الأول: تلبية فضول المعرفة التي ينعم به كل رحالة كان له وعي بضرورة تضمين النص الأدبي، المرجعية التوثيقية والتأريخية التي هي معيار الصدق والجودة في الكتابة الرحلية.
- الثاني: يتجلى في أن يخلق لنفسه جسراً موضوعياً مقبولاً ضمن أحداث الرحلة، يشرح به سياقات بعض قصائده العصية على التحليل والنقد، وهذه إضاءة ذكية منه، تحقق الهدف، وتحقق أيضاً ذلك الترابط المائع بين كل أجناس

(١٢) باسم فرات، كتاب طريق الآلهة، من منائر بابل إلى هيروشيما، ط١ ٢٠٢٠م، ص ٤٤.
(١٣) نفسه، ص٥٠.

(14) Christian Plantin, Les bonnes raisons des émotion, op, p.30.

القول، لأن «الأدب لا يقبل التفرقة بين الأنواع ويرمي إلى تحطيم الحدود»[١٥]، وهو ما يؤثث له باسم فرات ضمن نصه بالربط بين الشعر وأدب الرحلة، وكأن لسان حاله يقضي بأن الشعر هو الأصل في الأديب، ومنه تنبثق باقي الأنواع الأجناسية الأخرى، يقول: «**أعتقد أن هذه اللمحة السريعة عن الشعر الياباني تجعل من قصائدي عن اليابان ومنها قصيدتي «تقريظ باشو» أكثر قرباً للقارئ ولا يجد فيها صعوبة**»[١٦]...

خامساً: التجليات الأهوائية للعنوان

إذا كان العنوان «هو الذي يسم النص ويعينه ويصفه ويعلن مشروعيته القرائية»[١٧]، فما السر في اختياره «طريق الآلهة، من منائر بابل إلى هيروشيما»؟

سنبقى دائماً مع الرحالة في البعد الأهوائي لاستراتيجية الباتوس البلاغية، المؤثرة والمقنعة، والتي تتجلى في البحث عن أسباب التشويق لاستثارة القارئ حتى يطرح سؤال العلاقة بين بابل وهيروشيما، هذه الأخيرة التي ارتبط اسمها بالخراب والدمار..

لنكتشف بالتالي أن الرابط بينهما هو التعدد في تعبد الآلهة: «**هذه المعابد لآلهة شنتوية، لكل إله معبده الخاص: هذا إله الرياح ومعبد إله الأمطار، وتوالت أسماء الآلهة، من بينها تذكرت إله الشمس وهو إله العدل في العراق القديمة والذي كان يقدم للملك حمو رابي شريعته...**»[١٨]، إضافة إلى إله الخصب الذي تتبرك به اليابانيات مثل ما حدده المؤرخون عن البابليين، يقول الرحالة: «**رأيت عدداً من النساء أغلبهن تبللن بعمر الثلاثين، كن يمسحن بطونهن وأسفل السرة حتى أرخبيل الأنوثة في جسد إله الخصب... وتذكرت ما رواه المؤرخون**

(15) Le livre à venir, Maurice Blanchot, بلانشو، ص ١٦٤.

(١٦) باسم فرات، كتاب طريق الآلهة، من منائر بابل إلى هيروشيما، ط١ ٢٠٢٠م، ص١٢٢.

(١٧) جميل حمداوي، مقال: العنوان والنص الموازي، مجلة الرقيم الفصلية، العدد ٢٠٢١/٢٨، ص٦.

(١٨) نفسه باسم فرات، كتاب طريق الآلهة، من منائر بابل إلى هيروشيما، ط١ ٢٠٢٠م، ص ١٦٦.

اليونانيون حين زاروا مسقط تبلل الألسن مدينة العولمة الأولى في التاريخ بابل: هو أن البابليات يقعدن على أرصفة المعابد منتظرات من يأتي من الرجال ويمارس معهن الجنس المقدس، ولن يتركن المعبد ويعدن إلى بيوتهن حتى ينلن المبتغى»[١٩].

وهذا يفضي إلى تاريخ مشترك، وإلى إنسانية موحدة، وإلى شِرْك بابلي اندثر، ما زال إلى اليوم قابعاً بكوكب اليابان.. الشيء الذي سيدفعنا للتساؤل عن معنى التطور والمعايير المعتمدة لتقييم حداثة بلد ما؟...

سادساً: البكائية أثناء السرد

قص واسترسال سردي يعتمد الديكاميرون[٢٠]، هو ما ميز أسلوب باسم فرات الذي ينتقل بين دفتي كتابه، مراوحاً بين عديد موضوعات، تبرز المعاينة والمشاهدة والمجالسة عن قرب، في مثل لقائه الشاعر ماتسوو باشو: «**شاءت الأقدار العجيبة أن ألحظ شخصياً فيه وقار الشاعر الراهب الزاهد، تأملته وإذا به مركزاً نظره نحوي، اقتربت منه، ابتسمت وأديت التحية اليابانية، قولاً وفعلاً، بادلني بمثلها، وقبل أن أنطق جملتي: هل أنت متنبي اليابان الشاعر ماتسوو باشو؟ أجابني نعم، ومسك بيدي وسألني: كيف العراق؟ وإذا بعينيه تغرورقان بالدمع، كان جوابي، إن دمعك هو الجواب**»[٢١]،... عبر هذا الحوار القصير يبرز مدى تأثر المثقف والأديب -أينما وجد- بما يدور في العالم من حوله، من أحداث تهم القاسم المشترك للإنسانية جمعاء، ألا وهو السلام والطمأنينة اللذان تأثر لهما الشاعر الياباني تعاطفا، تجلى في مسكه يد باسم فرات واغروراق عينيه دمعاً وهو يسأل عن العراق، وكذا في افتقادهما من طرف الرحالة العراقي، الذي استمر يبكيهما إلى أخر طيات صفحات كتابه بقوله: «**هكذا أنا أبكي حين أرى السلام والطمأنينة في الشوارع، في حين كانت مفقودة في وطني، أتألم وأنا أرى الاحتفاظ**

(١٩) نفسه، ص١٨٠.

(٢٠) الديكاميرون كتاب ل: جيوفاني بوكاشيو الإيطالي، وضع فيه قواعد القص بأسلوب يوصل فيه المؤلف الأحداث بكلمات بسيطة، متجنبا الوصف المسهب والشخصيات المركبة والحوار الفلسفي...

(٢١) نفسه باسم فرات، كتاب طريق الآلهة، من منائر بابل إلى هيروشيما، ط١ ٢٠٢٠م، ص ١٩٨.

بالتراث وصيانة الآثار هنا ثقافة وعرفاً وتقليداً وواجباً وهماً وطنياً، في حين أصبحت آثار بلادي نهبا ولقمة سائغة للجميع»[٢٢].

البكاء هنا استراتيجية حجاجية، لجأ إليها الرحالة ليكسب خطابه الرحلي المعقولية والمصداقية والقبول، خاصة وأنها عاطفة لازمته منذ خروجه من بغداد قصراً، جعلت خطابه ينطوي على ممارسة اجتماعية وسياسية، بناء على حقيقة مفادها أن الإنسان يتأثر بوجدانه أكثر مما يتأثر بعقله... ومن دون أن يدري سيكون لذلك وقع على المتلقي الذي سينفعل وجدانياً معه تعاطفاً واستنكاراً..

سابعاً: مشروع باسم، بديل حاسم، لحزن على أنفاسه كاتم

لا يشك قارئ ومتتبع الإنتاجات الأدبية للرحالة العراقي، في كونه صاحب مشروع أدبي نقدي يستقرئ الأحوال العربية، وهو مشروع يفرض عليه، ليس فقط الانتقال من مكان إلى آخر، بل يحملنا معه كقراء للانتقال إلى الزمن القديم والتاريخ المفقود، للنبش في أسباب انهيار النهضة العربية، فيقول: **«وأتوجه في التركيز على مشروعي في قراءة تاريخ العراق والمجموعات اللغوية والعقائدية، هذا المشروع الذي أعمل عليه منذ سنوات طويلة، لمعرفة أسباب انهيار مشروع النهضة العربية، وصعود الأقليات وانتشار المتطرف من سردياتهم المملوءة بالمظلومية»**[٢٣].

وهذا يعني أن باسم فرات يمارس حقه في البحث كمثقف عضوي، مع طرح إشكاليات نقدية عن مجتمعه تُسائل حراس وطنه، وهذا يدفعنا للتفكير التالي: هل نحن فعلاً أمام رحالة ينقل لنا أوصاف البلد المستضيف، أم هو حكي عن وطنه الأم بغلاف هيروشيمي، استعار له التجربة التي مرت بها مدينة هيروشيما من جراح وآلام... جعلتها تنهض وتتطور ثم تفرض وجودها للتواجد اليوم كأكبر قوة اقتصادية وعسكرية وتكنولوجية وسياسية...؟ وكأن لسان حاله يقول: نحن شعب العراق، أصحاب حضارة وتاريخ وعزة ... يلزمنا فقط إعادة القراءة والإفصاح والفضح... فكرس

(٢٢) نفسه، ص ١٩٩.

(٢٣) نفسه، ص ٢١٣.

لذلك سبيلاً، الكتابة والتعبير عبر جنس أدب الرحلة، مستخلصاً ما يلي: «**وما وجدته في أثناء بحثي هو أن الحضارتين العربية واليابانية متقاربتين، وأن سبق العربية ليس كثيراً زمنياً، أذكره بقصد الإشارة إلى المشتركات بين البشر أولاً وبين العرب والبابليين ثانياً**»(٢٤).

خلاصة القول، إن باسم فرات، من خلال هذا النص، سعى إلى التعبير عن اغترابه الذي يزيد عنده استفحالاً كلما نبش في ماضي العراقة العربية وتاريخها الحضاري، هذا التنقيب الذي يظهر أن البلاد العربية كانت أرقى وأكثر ازدهاراً حتى قبل مجيء الإسلام، مبرزاً أن الوثنية الموجودة في اليابان اليوم والتي كانت عند البابليين قديماً (طريق الآلهة، من منائر بابل إلى هيروشيما) لم تحل دون تقدمهما، لقد كانت بابل قديماً حضارة كبيرة وثقها التاريخ، واليوم نحن نسمع من هذا وذاك أن اليابان كوكب فوق أرضي، بسبب ازدهاره الصناعي والرقمي التكنولوجي...وهذا ما سيجعلنا نفكر في أحد أمرين:

- إما أن التطور الحداثي للبلدان يستدعي فصل الدين عن الدولة، على اعتبار أن تعدد الآلهة في اليابان لم يحل دون تقدمها وازدهارها في كل المجالات الأخرى...
- وإما سيقضي بضرورة إعادة قراءة دين الإسلام، وخاصة كتبه التفسيرية القديمة، بما ينزهه عما آلت إليه الأوطان العربية الإسلامية الآن من تراجع ملحوظ في كل المجالات...

لكن قراءة الأبعاد الأهوائية التي سطرها باسم فرات في رحلته هذه، أبرزت لنا معاناته الاغترابية، ليس فقط كذات مسافرة، وإنما كوعي عربي إسلامي وعراقي يتحسر على الماضي المجيد ويبكي على الأطلال...

(٢٤) نفسه، ص ٢١٥.

المراجع المعتمدة

١. باسم فرات، كتاب طريق الآلهة، من منائر بابل إلى هيروشيما، ط١ ٢٠٢٠م.
٢. آليات قراءة النص الرحلي الرحلة في الأدب العربي، التجنس، آليات الكتابة خطاب المتخيل لشعيب حليفي – أنموذجاً.
٣. ويليك رينيه، مفاهيم نقدية.
٤. ثيودور أدورنو من النقد الى الاستطيقا (مقاربات فلسفية).
٥. محاضرات في البلاغة الجديدة، د. محمد مشبال، ط١ ٢٠٢١م.
6. Christian Plantin, Les bonnes raisons des émotions.
7. Le livre à venir , Maurice Blanchot.
٨. جميل حمداوي، مقال: العنوان والنص الموازي، مجلة الرقيم الفصلية، العدد ٢٠٢١/٢٨.

«النبطيّ المنشود»
عندما يكون المكان بطل الرِّواية
تأليف: صفاء صبحي الحطاب

مجدولين أبوالرُّب*

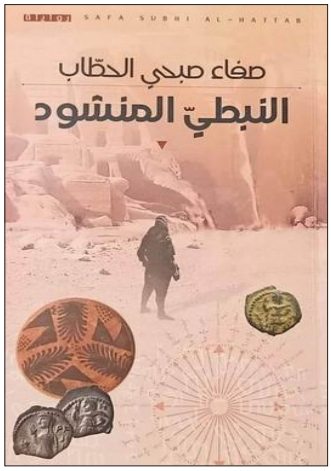

تتعالق رواية «النبطي المنشود»(**) لصفاء الحطاب مع التاريخ والخيال من جانب، ومع العلم والبحث العلمي الأثري من جانب آخر، في أجواء مشوّقة تؤثثها شخصيّة «معمّر» منذ كان طفلاً يعرِّض نفسه للخطر كي لا تتحطم جرّة فخارية أثرية. وهيمنت الفانتازيا على أجواء الرواية منذ شَعَرَ «معمّر الطفل» بارتباط نفسي مع الجرَّة، وحين رأى «معمّر الشاب» الأميرة النبطيّة في منامِه، حيث تأخذه في جولة في البتراء وجوارها، هي جولة في المكان والزمان، فيرى مدينة عامرة تمثل ذروة حضارية في مجالات العلم والعمارة، وتنتقل به الأميرة إلى مرحلة خراب المدينة على أيدي الرومان ورجال الدين الوثنيين. ويصحو «معمّر» لينقشع ما رآه أمام الواقع الذي تجثو فيه أطلال المدينة.

تسير أحداث الرواية عبر خط سردي يلظم أحداثها من البداية حتى النهاية، خط سردي ثيمته الكشف والبحث في تاريخ الأنباط، وهدفه إعادة المجد للمكان النبطيّ، ونستشف طبيعة هذا الخط منذ العتبات الثلاث الأولى للرواية: العنوان، والغلاف،

---

* كاتبة ومديرة تحرير مجلة «أفكار» التي تصدر عن وزارة الثقافة (الأردن).

** النبطي المنشود، رواية، تأليف صفاء صبحي الحطاب، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط١، عمّان-الأردن، ٢٠٢٢.

والإهداء. فجاء عنوان الرواية في كلمتين «النبطي المنشود» ليضع القارئ مباشرة أمام مرحلة تاريخية لحضارة الأنباط، وفي الوقت نفسه يثير تساؤلات ويخلخل قناعات، فالنبطي الذي قرأنا عنه أو سمعنا أخباره ليس هو النبطي الذي تقصده الكاتبة، ثمّة نبطي «منشود» تنفض صفاء الحطاب عنه غبار التاريخ وغبار التأويلات التي صارت مسلّمات، فهو ليس النبطي الذي أخذ علومه عن الحضارات القديمة الأخرى كما تقول الدراسات الاستشراقيّة والكلاسيكيّة التي تمَّ تكريسها في الأذهان وكأنها مسلّمات، فتنزع الكاتبة الحطاب طبقات المعلومات المغلوطة والظالمة التي تكسو النبطي في أذهاننا، لينبثق أمامنا جوهر وحقيقة هذا النبطي الذي تنشده وتنصفه الكاتبة التي تدعم وجهة نظرها من خلال جهود الشخصيّة الرئيسة «معمّر» الذي يتبع الأسلوب العلمي البحثي، وتتماهى الكاتبة في ذلك مع اشتغالات الباحث مأمون النوافلة العلمية الرصينة التي خرج منها باستنتاجات قلبت الموازين، وغيّرت المفاهيم، ودَعَت الجهات الأردنيّة الرَّسمية المعنيّة بالسياحة والآثار لتُعيد النظر في العديد من الآرمات والكتيّبات السياحية التي تعرِّف بمعالم البتراء وتشكل دليلاً للزائرين. فكان إهداء الرواية للباحث مأمون النوافلة الذي بذل جهوداً بحثية وعلمية مضنية وجادة في تجلية صورة الأنباط وإنصاف جهودهم البحثيّة العلميّة. أمّا الغلاف فيُظهر المدينة الوردية في لوحة تتوزع عليها آثار الحفريات والاكتشافات من نقوش وأدوات تنمُّ عن المعارف الراقية والمنجزات العلمية المهمّة التي توصل لها الأنباط وتكرّست في هذا المكان.

المكان بطل الرِّواية

تُعيد الرواية سرد قصة المكان النبطي، وتُعيد بناء شخصيَّته من منظور جديد، بل وتنحاز للمكان على حساب الشخصيات الرَّئيسة (سونيا ومعمّر) التي تُخضعها الكاتبة لسلطة وهاجس المكان. فما يجري من أحداث وحوارات كلها تؤثث لفكرة أنَّ المكان هو البطل.

يهيمن المكان بصفته بطلاً للرواية منذ السطور الأولى، فالفتى «معمّر» ذو الخمسة أعوام، ومنذ انطلق راكضاً ليلتقط الجرَّة الفخاريّة ليحميها قبل أن

تدوسها عربة، كان «كأنه مدفوع بقوة كونية يبثّها المكان، لا يمكن لأحد سواه أن يشعر بها» (ص٧). وهو الفتى نفسه الذي بقي «على مرّ الأيام والسنوات منجذباً إلى هذا المكان الساحر كما ينجذب الصوفي إلى محرابه، يتأمّل فيه، ويشعر، ويحبّ، ويفكر، حتى بلغ أشدّه وصار رجلاً قوياً صلباً، لا يهاب شيئاً، لكنه على حاله مع المكان؛ لا يتركه حتى يعود إليه بلهفة وشوق»(ص٨).

فالكاتبة تُسهب في الحديث عن المكان على لسان الشخصية الرئيسة «معمّر»، بل وتجعل المكان يتسيَّد في المونولوجات والحوارات؛ بحيث رجَّحت كفّة العناية بالمكان على حساب العناية بالشخصيات الرئيسة، فلم تستثمر تقنية الحوار من أجل تتبُّع تنامي الشخصيات وتطوُّرها وترسيم اشتباكاتها الحياتية والوجودية، وإنَّما كان المكان سيّد هذه الحوارات.

ونجد أنَّ المكان هو مَن يوكل مهمّة عظيمة للشخصيتين الرئيستين «معمّر» و«سونيا»، بل إنَّ الشغف المشترك بالمكان النبطيّ هو ما حرّك مشاعر المحبة بينهما، كما نلاحظ همساً خاصاً للمكان ورسائل يبثها في وجدانهما.

المكان سيِّد الحوار

إنَّ الحوار في «النبطي المنشود» مكرّس للبوح عن المكان، والتفكير به، واستنطاقه، والحزن عليه، والشغف به، والإصرار على إنصاف صورته التاريخية. أمّا الحوار كتقنية روائية تكشف عن عوالم الشخصيات الرئيسة، فقد كان مبتسراً ومختزلاً في الرواية؛ فعندما يتعلق الحوار بالشخصيات الرئيسة «معمّر» و«سونيا» فإنَّ الكاتبة تكتفي بإيجاز «وصف الحوار» وليس الحوار نفسه، وهو وصف عام يمكن للقارئ أن يتخيَّل تفاصيله كما يشاء؛ على سبيل المثال فإنّ الكاتبة تقدِّم وصفاً لحوار بين «معمّر» و«سونيا» وهما في الطائرة المتجهة إلى روما حيث سيقدِّم معمّر ورقة بحثيّة في مؤتمر دولي عن «الآثار والتكنولوجيا»، تقول الكاتبة: «تبادلت سونيا ومعمّر الأحاديث أثناء الرحلة، وتعرَّف معمّر على سونيا أكثر، فقد أخبرته بأنها تعيش في مصر بمفردها، لأنَّ عائلتها هاجرت إلى أوروبا قبل عام واحد من إنهاء دراستها العليا في روما...»(ص٢٧).

ومثال آخر على «وصف الحوار» نجده في الصفحة ٤٨ حيث نقرأ: «وتبادل معمّر وسونيا الأحاديث العلمية والإنسانية حول كل شيء تقريباً، بشفافية وراحة لم يعهداها من قبل».

والحوارات المهيمنة في الرواية هي حوارات العلماء والباحثين الأوفياء لرسالة مفادها إعادة سرد قصة المكان وإنصافه. أمّا ما خلا ذلك من حوارات تخص (معمّر وسونيا)، فإن ما يتعلق بشؤون معيشتهما وجوانبهما النفسية والعاطفية والإنسانية، نجد الكاتبة تمرُّ عليها باقتضاب، وتصوغها عبر وصف مبتسر كما أسلفنا، فالسرد منشغل بثيمة أكبر هي «حكاية المكان»، حتى إننا لا نرى الشخص يفصح عن مكنونات نفسه إلا عندما يتعلق الأمر بالمكان.

نرى «معمّر» يتماهى مع المكان النبطي القديم ليشاهده وهو في ذروة حيويّته وأوج نشاطه، ويتمثَّله «معمّر» في عقله وخياله، ليس من باب الفنتازيا كما قد يخطر في بالنا، ولكن هذا التمثُّل يتم بآليّة ذهنيّة ونفسيّة يمتزج فيها الوجداني والعاطفي بما هو علمي ومنطقي. فهو لا يرى في المكان النبطي مكاناً صامتاً وأطلالاً كما يتراءى لعين الناظر، بل تهيمن عليه صورة المكان الحيّ النابض تحت طبقات الزمن والتراب، ففي الصفحة ٧٣ عندما يشاهد «معمّر» المرفأ النبطي المكتَشَف في منطقة تبوك نقرأ: «كان معمّر يرى الموقع الأثري كما كان في زمن مضى وانقضى، وقبل أنْ يحلَّ السُّكون والصَّمت عليه، لا كما يظهر لفريق البحث السعودي الإيرلندي ولجميع الباحثين هناك، بقايا لمستوطنة أثرية نبطية، مثيرة للرغبة بالبحث والاستكشاف، فقد كان يبدو لمعمّر مختلفاً تماماً، وتمكَّن من رؤيته موقعاً يعجّ بالحياة الفارهة والباذخة قبل آلاف السنين».

كما تعكس الحوارات في الرواية انشغال الشخصية الرئيسة «معمّر» بجمع الأدلّة والإثباتات على أنَّ الحضارة النبطية هي جزء من سياق حضاري مجاور لها، وأنها حضارة سجَّلت اكتشافات ومعارف مهمة، ففي حديث «معمّر» مع «سونيا» والضابط «ألبرتينو» عن البوصلة التي سُرقت

من المتحف المصري، يقول معمّر: «مَن سرق البوصلة يدرك قيمتها وأهميتها، وأنها من الإثباتات هي ومثيلاتها من قطع نادرة على أنَّ الحضارة النبطية كانت جزءاً مهماً من السياق الحضاري المجاور لها، وتثبت أيضاً توسُّع الأنباط في الدراسات العلمية، كالفلك والهندسة والرياضيات واحتساب الوقت والتقويم السنوي بمهارة فائقة»(ص٣١-٣٢).

وفي المؤتمر الدولي في روما قدَّم معمّر ورقته البحثيّة، وكان فخوراً وهو يخاطب نخبة العلماء الحضور بقوله: «إنَّ مجد الحضارة النبطية، وإرثها الحضاري ظاهر بوضوح لا يحتمل الشك أو اللبس، وموثق بمنجزات مادية ملموسة بين يديّ، ومعلومات دقيقة مستمدَّة من تفاصيل مدينة البترا القائمة على القلم والمعرفة، وبالأدلة العلمية التي توصلتُ إليها بعد بحوث رصديّة وعلمية استمرَّت لسنوات طويلة...»(ص٣٢-٣٣).

نلمس موضوعاً واحداً للحوار في الرواية، وهو الانشغال بالبحث العلمي وجمع الأدلة لإثبات أمجاد الأنباط، وهي حوارات اعتنت بها الكاتبة كما أشرنا ووضعت تفاصيلها على لسان «معمّر» و«سونيا»، ففي البتراء، وعلى سبيل المثال عندما تأمَّلت «سونيا» المنحوتات التي تمثل المجموعات النجمية الأبرز في علم الفلك، قال «معمّر» وهو يشير إلى مبنى الخزنة: «إنها الكوكبات النجمية المعروفة عالمياً (العذراء، القيثارة، الجبار، الفرس الأعظم، الدلو، الكأس، الغراب، الأسد، والنسر الواقع) وكلها منحوتة بإتقان، تصوِّر المجموعات النجمية التي خلّدها الأنباط، بصورة منحوتات تعكس مدى إدراكهم لتفاصيل الكون والسماء، إدراكاً علمياً واعياً»(ص٤٥).

ومن الأمثلة العديدة على طبيعة الحوارات بين «معمّر» و«سونيا» ما جرى من حوار بينهما في البتراء، وهي حوارات تهدف إلى لفت انتباه مراكز علم الفلك الآثاري الدولية في العالم إلى موقع مدينة البترا كموقع أبحاث فلكي فريد من نوعه؛ يقول «معمّر»: «وهل تصدقين أنَّ بعض المراجع العلمية في العالم تروِّج لفكرة أنَّ الأنباط قد أخذوا العلوم عن غيرهم؟! مع أنَّ الكثير من المنحوتات والفخاريات النبطيّة ما هي في الحقيقة

إلا الوثائق الأصلية والوحيدة تاريخيًّا التي عثر عليها لعمل دراسات فلكيّة متكاملة؟»(ص٤٤). فتقول «سونيا» بحماسة: «من شأن الإعلان عن هذه الاكتشافات عالمياً أن يُحدث ثورة في عالم الدراسات الأثرية المتعلقة بالفلك»(ص٤٤).

المكان والمهمّة العظيمة

كرّس «معمّر» حياته وجهوده للقيام بمهمّة عظيمة؛ تتمثل في «إعادة المجد الضائع للمكان النبطيّ»، وهي مهمّة أوكلها إليه المكان حين كان يصغي بانتباه لما تنطق به الأطلال، بل إنَّ المكان فيما بعد اختار «سونيا» لتلك المهمة أيضاً. ولطالما أحسَّ «معمّر» أنه وحيد في مهمّته حتى انضمَّت إليه «سونيا» قائلة: «أنا معك في كل ما أستطيع أن أقدِّمه من أبحاث علمية؛ فرسالتنا واحدة في مواجهة الموروث الذي يسيء لنا، ويهضم حقنا في إثبات ما وصل إليه أجدادنا من علوم ومعارف أغنت الحضارة الإنسانية»(ص٤١).

هذا موقف عادي، أن يقف عالمٌ أمام مهمّة عظيمة، ويكون وحيداً، وتَنضمّ له في مهمّته زميلة تسانده لا سيما وأنها تسعى لتحقيق الهدف نفسه. لكنَّ الموقف غير العادي يتمثل في أنَّ المكان هو مَن يوكل مثل هذه المهمّة، وهذا ما نلمسه في كلمات «معمّر» وهو يطلب من «سونيا» مساندته، إذ يقول: «هل أنتِ معي في تحقيق مهمتي التي أوكلها إليّ المكان؟»(ص٤١). وعندما تخرج «سونيا» من السيق في البتراء وتمشي إلى جوار «معمّر» تقول: «صمتُ المكان يتغلغل في أعماقي، وأحسُّ به، وكأنه يطلب منّي الإصغاء بانتباه! إنه شعور غريب لم أشعر به من قبل»(ص٤٤).

وهنا، وفي لحظة من أكثر لحظات الرواية رومانسية، نجد هذه الرومانسية معجونة ومتداخلة مع الشغف بالمكان، حيث يتوقف «معمّر» عن السير عند خروجهما من السيق، ويضمّ يدي «سونيا» بين يديه، وينظر إلى عينيها نظرة محبّة تسرَّبت إلى روحها، ويهمس فرحاً: «لقد اختاركِ المكان أنتِ أيضاً يا سونيا، ليضع ثقته بك! لقد أصبحنا قوة حقيقية معاً، فأنا أشعر منذ أن كنتُ طفلاً بما تشعرين به الآن»(ص٤٥).

وعند استعداد معمّر وسونيا لقضاء ليلة حيث يخيّمان في منطقة البيضا، وهي أجمل منطقة عرفها الأنباط وتميزت بجوّها الساحر وصفائها الكوني، تقول «سونيا»: «إنه أمر مثير أن نقف معاً في مكان لمع فيه العقل الإنساني في زمن مضى، واكتشَفَ أنه جزء من كون واسع فسيح، ثم استطاع أن يتماهى معه وينظم علاقته به، والمثير أكثر أننا الآن نعمل اكمتداد لهم»(ص٤٦-٤٧).

شاب وصبية بينهما استلطاف وإعجاب، ويخيمان معاً في الليل، أجواء مشحونة بالرومانسية، لكنَّ الشريك الأهمّ في هذه الرومانسية هو المكان: «خيَّم الليل الهادئ بسكونه البديع، ولفَّ المكان بشاعريّة لامست قلب المتصوِّف ورفيقته، فأشعل معمّر النار، ليضفي على المكان لمسة بدويّة ساحرة، فكان لحظتها فارساً نبيلا، يتبادل هو والمكان أنفاس الأصالة والامتداد الحضاري المتجذر في تلك الأرض!» (ص٤٧).

لقد كان المكان هو مَن أوكل مهمة عظيمة ألقاها على عاتق «معمّر» و«سونيا»، لكنّ المكان كان أيضاً مبعث العشق في علاقة «معمّر» و«سونيا».

قصة حُبّ يبعثها الشَّغف بالمكان

عندما انهمرت سيول السماء دون انقطاع وكان «معمّر» يتجوَّل في جبال البيضا في منطقة البتراء، فقد لجأ إلى إحدى المغارات وغفا ليلته هناك، فحلم بأميرة نبطيّة، تمسك بيده، ويتجوَّلان في المكان، وأخذت الأميرة تشرح له حال البتراء في أوجِها، ثم في انكسارها وهزيمتها وخرابها، فيرى الصُّوَر حيّة في كل الأحوال، وينبهر لمنجزات الأنباط الفنيّة والعلميّة، ويحزن لأفول هذه الحضارة، وتخبره الأميرة أنه «النبطيّ المنشود» ليُعيد رواية قصة المكان وينصف الحضارة النبطيّة.

إنَّ شغف معمّر بالمكان النبطي وتماهيه معه بكل مراحل تاريخه، إلى حدّ استنطاق حجارته، هو ما جعله يتجوَّل في المكان على الرغم من المطر والسيول، وهو ما ربطه بالأميرة النبطية في فانتازيا الحلم، وهو أيضاً ما كان عتبة تُفضي إلى قصة حب بينه وبين الدكتورة المصريّة «سونيا» العالمة في حضارات الشرق القديمة، فقد أصابته الدهشة عندما رأى «سونيا» في المرَّة الأولى، وسبب هذه الدهشة هو أنّها

تشبه الأميرة النبطية التي رآها في حلمه عندما نام في المغارة في جبال البيضا.

وبمرور الأحداث، وعندما يصير المكان شغفاً مشتركاً عند «معمّر» و«سونيا»، يتنامى الحب بينهما، وتتدخَّل كيمياء غريبة في طبيعة مشاعر الحُبّ المتبادلة بين الشخصين معاً، وبين الشخصين والمكان، ففي الليلة التي خيّما فيها في البتراء، وعندما استلقى الاثنان على الرمال ليواجها السماء المرصَّعة بالنجوم «سرح معمّر بعيداً في أفكاره، وفكّر كيف أنه قضى عشرين سنة من عمره هنا وهو يتأمَّل المكان، ويسبر أغواره، ويحلل شيفرته التي استعصت على كل مَن سبقه! إلى أن باح له المكان أخيراً بأسراره العظيمة. ثم نظر إلى سونيا نظرة مودة عميقة، مدركاً أنه لم يعد وحيداً في شغفه بعد الآن»(ص٤٨).

وفي غمرة تأمُّلها للسماء والنجوم ابتسم «معمّر» وهو يشدّ على يد «سونيا» قائلاً: «لقد حانت اللحظة أخيراً، وناداكِ المكان يا عزيزتي، وها أنتِ هنا، ومن هنا سنبدأ العمل المثمر معاً»(ص٤٩).

والمكان في «النبطي المنشود» لا يكتفي بأن يتقاسم الحبّ والهيام مع الحبيبين، ولكنه يستحوذ عليه؛ فمن جانب نرى أنَّ اللحظات الرائعة لا تكتمل روعتها بوجود الحبيب أو الحبيبة، ولكن روعتها تكتمل بوجود المكان، ومن جانب آخر يستحوذ المكان على الاهتمام استحواذاً غريباً يجعل له سطوة على قرارات «سونيا»، ففي أدق اللحظات وعندما تريد «سونيا» أن تفصح عن مشاعر الحب لـ«معمّر»، فإنها تؤجل الأمر كي لا تقاطع تأمُّله في المكان.

فعندما جلس «معمّر» و«سونيا» أعلى تلة صخرية يراقبان المدينة الوردية من الأعلى، تلتقط «سونيا» مجموعة من الحجارة الصغيرة وتقول: «سأحتفظ بهذه اللحظات الرائعة معك ومع المكان، بأخذ هذه الحجارة معي إلى مصر»(ص٥٩). ويستمر الحديث، ويخبرها معمّر عن اكتشاف ميناء أثري نبطي كبير في منطقة تبوك السعودية على السواحل الشمالية للبحر الأحمر، وعندما توشك «سونيا» أن تعترف لـ «معمّر» بحبها له، فإنها تتردَّد، وسبب تردُّدها هو هيام «معمّر»

وشغفه بالتفكير بالمكان، نقرأ: «كانت سونيا على وشك أن تعترف لمعمّر بحبها له، وأنها تتمنى أن تقضي حياتها إلى جواره، لكنها تردَّدت بعد أن نظرت إليه، ووجدته غارقاً في التفكير بالمكان، وقررت أن تؤجل الأمر قليلاً، لتختار لحظة مناسبة أكثر»(ص٦٠).

«معمّر» ابن المكان

معمّر منذ طفولته نمت علاقة مؤثرة بينه وبين المكان، فكان يساعد بعض الفرق البحثية الآثارية التي تنقِّب في البتراء، يساعدهم بالأعمال الخفيفة، لكنه كان يرى نفسه حارساً للمدينة الأثرية، فكان يقف ويراقب العمل، ويحرص على حماية كل جزء من صخور البتراء من الأذى، يقول: «أنا ابن هذا المكان، وُلدتُ هنا، وكبرتُ هنا، ولي مع كل صخرة فيه ذكرى؛ هنا تعلمتُ الصيد، وهنا حلمتُ بالمستقبل، وهنا أصبحت شاباً، وكنتُ في رحلتي من الطفولة إلى الشباب أشعر باختلاف علاقتي بالمكان عن الآخرين»(ص٦٠).

حتى إنَّ المكان عند «معمّر» يقوم مقام الأب والأم اللذين يحميان الأبناء من الخطر ويمنحان الشعور بالأمان. وحين يكبر «معمّر» فإنَّ كل طموحاته ومساعيه تتجه نحو المكان؛ في دراسته وتطويره لنفسه كان المكان هو المحرّك والمحفّز والهدف. يقول معمّر: «كنتُ طفلاً يشعر بالمدينة الأثرية كحصن قوي يحميه من أي خطر. وكنتُ أشعر بالأمان المطلق وأنا بين صخورها وجبالها. كانت وما زالت تمنحني قوة داخلية عجيبة، فكان من واجبي حمايتها. حتى كبرتُ وصرتُ رجلاً، وأدركتُ عظمة المدينة العلميّة وحقيقتها كموقع بحثي متخصص، وأدركتُ واجباتي أيضاً تجاه مجدها الغائب، فعملتُ على دراسة علم الفلك، وطوَّرتُ نفسي بنفسي؛ لأتمكَّن من البحث العلمي في أسرار المدينة العلمية»(ص٦٢).

وكذلك الأمر كان مع «سونيا»، التي قررت دراسة الحضارات الشرقية القديمة لتُنصف جانباً من الحضارة المصرية القديمة، وكانت ترتبط بالمكان وتاريخه كما لو كانت ابنة لهذا المكان، ففي طفولتها كان لديها حلم يلازم مخيلتها، فكانت ترى نفسها طبيبة فرعونية تعالج المرضى، وتجري الاختبارات العلمية، وتحضر الدواء.

حتى كبرت، وذهبت إلى أوروبا لدراسة الطب، وكم كانت دهشتها وحزنها كبيرين عند اطلاعها على البرديات المصرية الطبية القديمة المعروضة في متاحف أرقى الجامعات الأوروبية، مثل (بردية إدوين سميث) و(بردية برلين)، التي تعرض تشخيصاً طبيًّا دقيقاً لأمراض محدَّدة، ثم تصف العلاج بوصف علمي دقيق، لا يزال متبعاً إلى اليوم في المحافل الطبية الحديثة، فقرَّرت أن تتخصَّص في دراسة الحضارات الشرقية القديمة بدلاً من دراسة الطب، وأن تعمل على تقديم علوم الفراعنة، وتحديداً الطبية منها إلى العالم بما يليق بها (ص٦٣).

لُبّ الحكاية: إعادة رواية قصة المكان

على مدى أسبوعين كان معمّر يقضي وقته في موقع المرصد الذي عمل على إنشائه في منطقة البتراء بمساعدة «سونيا»، وكان يخطط للقيام بالرصد الفلكي النبطي باستخدام أدواته ووثائقه الثابتة على صخور المكان. فكان يعمل ليلاً نهاراً وهو «يستحضر أمامه علماء الأنباط، يفكر فيما فكروا فيه، وبما شعروا به عندما كانوا هنا في قديم الزمان، وهم يخططون لبناء مشروعهم الحضاري الخالد»(ص٥٢). ويخبر «سونيا» بعد انتهاء الإعدادات أنهما لم يكونا وحدهما، فـ «الأميرة النبطية والعلماء الفلكيين وأهل المدينة جميعاً، وكأنهم كانوا يراقبون عملنا وهم سعداء جداً، بل إنهم كانوا على وشك تقديم المساعدة لنا»(ص٥٣). ويضيف معمّر: «لا يمكننا أن نخذلهم يا سونيا، لن تبقى هذه المدينة الجميلة صامتة بعد اليوم، لا بد أن تنطق وتبوح بما تمتلكه من عظمة وسحر».

و«معمّر» في سعيه هذا يحاول أن يحيى سيرة المكان الأولى، ففي يوم افتتاح المرصد، وبعد أن صحب ضيوفه في جولة ليعرِّفهم بتفاصيل المكان، «استطاع بحديثه أن يحرك فيهم شغف العلماء، وأضاف من قلبه العاشق للمكان إضافة لا يفهمها العلم تماماً، بل يشعر بها القلب مباشرة، فكان الضيوف في حالة وجدانية مختلفة لم يمروا بها في أيّ فعاليّة رصد فلكي شاركوا بها من قبل»(ص٥٤).

وفي موقع المرفأ الأثري، وعندما كان رئيس الحملة البحثية الإيرلندية يشرح عن قطعة فخارية، سأله «معمّر» عمّا سيفعلونه بالقطع النبطية الكثيرة المكتشفة في الموقع الأثري، وعمّا إذا كانت هذه الاكتشافات ستعيد للأنباط مكانتهم الحقيقية في السرد التاريخي للحضارات القديمة المؤثرة في المنطقة، فأجابه رئيس الحملة: «من المؤكد أنها ستغني معرفتنا عن الحضارة النبطية أكثر لكنّ إعادة كتابة الرواية التاريخية عن حضارة الأنباط، وتغيير ما رواه اليونان والرومان عنها يحتاج إلى جهود أكبر لجمع القطع الناقصة من الصورة الكلية لتلك الحضارة العظيمة، ثم إعادة رواية قصة المكان من جديد»(ص٧٧).

وهنا فإنَّ «معمّر» ينظر إلى «سونيا» ويقول: «سنعيد رواية قصة المكان يا سونيا مهما كلف الأمر. علينا أن نعود إلى مرصدنا الفلكي، ونكمل ما بدأناه»(ص٧٧).

بوح المكان ورسائل الشُّهُب البرشاويّة

في «النبطي المنشود»، وعلى مدى أربع وتسعين صفحة، فإنَّ المكان يبوح لِـ «معمّر» ويبثّه رسائله باستمرار، لكنَّ بوح المكان ينقطع عندما تتلبس معمّر حالة الغضب والإحباط إثر الانهيار الصخري الذي أدّى إلى تدمير المرصد الفلكي، وهو الأمر الذي لم يحتمله، فوقع فريسة للإحباط والغضب والهموم، ولم يعُد قادراً على سماع بوح المكان. فهام على وجهه وقطع صلاته بكل البشر، وكان يذهب يومياً إلى مكان المرصد المدمَّر بعد منتصف الليل، ويجلس هناك للتأمل، ومراقبة النجوم حتى بزوغ الفجر. بل إنَّ انقطاع بوح المكان جعل «معمَّر» يشك في أنه «النبطي المنشود» الذي سيُعيد مجد الحضارة النبطية إلى المكان. «قضى معمّر شهراً كاملاً على هذه الحال، يحمل همومه متنقلاً بين الجبال والصخور، ويستنطق الوجوه الصخرية النافرة من الجبال كأنها تنظر إليه، يسألها عن رأيها بما جرى، ويطلب مشورتها ورأيها فيما سيفعله مستقبلاً،

ولا مجيب، لم يعُد يسمع حديث المكان، فقد غطى الغضب على قدرته على التواصل معه»(ص٨٢).

بعد عودتها إلى مصر، حاولت «سونيا» أن تتواصل مع «معمّر» فأرسلت مئات الرسائل الإلكترونية، واتصلت مراراً، لكنها لم تتلق أي رد، وأرسلت رسالة مسجَّلة وضعت فيها حجراً صغيراً من الحجارة التي وضعها «معمّر» في يدها وهما ينظران إلى مدينة البترا من أعلى الجبل، وعبَّرت له في الرسالة عن حبها واشتياقها ورغبتها برؤيته، واستكمال ما شرعا به من مهمّات، لكن لا مجيب، فخطرت لها فكرة قد تنجح في إعادة شغف «معمّر» من جديد، فبدأت البحث عن أحداث فلكيّة كونيّة ستحدث قريباً في المنطقة العربية، لأنَّ «معمّر» الباحث الفذّ سيحتاج إلى أحداث مهمّة كتلك الأحداث لإعادة القوة لشغفه واهتمامه..

وبعد بحث متعب وجدت «سونيا» الحدث الفلكي المناسب؛ هطول زخات الشُّهُب البرشاويّة، «وتذكَّرَتْ عندها معمّر متحمساً وهما يقفان في موقع الشماسة في منطقة البيضا، يشير إلى جهة الشرق، ويصف لها زخات الشهب البديعة التي تنهمر من السماء منذ ساعات ما بعد الغروب حتى بزوغ الفجر في الثاني عشر من أغسطس من كل عام، وكيف يمكن للراصد رؤيتها بالعين المجردة دون استخدام التلسكوب أو أدوات للرصد، وكم كان يأمل أن يتمكّن من دعوة الفلكيين والآثاريين المحليين والعالميين لحضور هذا الحدث في العام المقبل»(ص٨٦).

حالة الإحباط والشعور باللاجدوى التي مرَّ بها «معمّر» بدأت تنقشع. جهود «سونيا» بدأت تعطي نتيجة، وها هو حجرها الصغير بقي في جيب «معمّر» مصدر أمان وتواصل روحي، كان «معمّر» يمسكه بين أصابعه، فيشعر بقلب «سونيا» المُحب يمنحه السعادة. وأخيراً، تفوَّق شغف النبطي بإرثه الحضاري على غضبه، وعاد بوح المكان يستنهض عزيمته من جديد مثل وشوشة مُحبّ يبثّ رسائله الأرضية والسماويّة: يقول «معمر»: «لقد تعبتُ فعلاً، لكنني لن أخذل الأميرة النبطية، وسأعيد بريق المجد إلى المكان العظيم الذي بناه الأنباط بمعرفة علوم السماء ورغبة الإنسان بالخلود، فعلوم السماء التي عرفوها بوضوح وإتقان ما زلنا نعرفها كما هي، ورغبتهم بالخلود قد تحققت فعلاً باستمرارنا نحن

في المكان. النبطي الحقيقي يجب ألا يتوقف عن متابعة العلم والعمل الذي بدأ هنا منذ آلاف السنين (ص٨٩).

في اليوم المحدد لإقامة فعاليّة الرّصد الفلكي ومراقبة زخّات النُّجوم البرشاويّة بوجود مئات الشخصيات العلمية المحلية والعالمية، «كان سكون المكان العميق يستقبل أصوات القادمين وحركتهم مثل وشوشة مُحبّ تغوص في النفس، فتحيي القلب الحزين، وتجعله مزهراً من جديد»(ص٩١).

وانهمرت زخات الشهب مثل خيوط من فضة. كانت الشهب بمثابة رسائل تحمل الماضي وتنقله إلى المستقبل، وتزيل عتمة الحاضر مبشرة بعهد جديد، فقد عرفت الأنباط وعرفوها جيداً، ومنحتهم كل أسرارها لينقشوها على صخر مدينتهم الرائع. وكان «معمّر» يراقب المشهد، «ويقرأ رسائل النجوم المحمّلة للشهب، ويرى القوافل النبطية والسفن ذات الأشرعة المثلثة، والبوصلة النبطية، والمسلات الشمسية، والعلماء والباحثين، والمجموعات النجمية المنقوشة على مبنى الخزنة، ومظاهر الثراء، والقوة تتوارى خلف زخات الشهب»(ص٩٢).

كانت هذه الليلة من الرصد الفلكي نقطة تحوُّل، إذ كانت فاتحة لتوافد الباحثين والدارسين لإعادة سرد قصة المكان النبطي بمجده الذي ناضل «معمّر» كي يبعثه لينصفه العالم كله، فـ «انتهت تلك الليلة ببزوغ الفجر الذي أزاح معه ألفي سنة من الصمت والسكون. وبدأت وفود الدارسين من الفلكيين والمهندسين والفيزيائيين تتردَّد تباعاً على المدينة الأثرية بعد تلك الليلة المهمّة؛ لدراسة تفاصيل المدينة العلمية كما رآها النبطي معمّر بعينه وبقلبه»(ص٩٣).

دعوة للمشاركة بالدراسات والبحوث المُحكمة في مجلّة «المنتدى»

محور العدد القادم:

• الثقافة العربية المعاصرة والتحديات المستجدة

تدعو المجلّة الباحثين والكُتّاب في الجامعات والمعاهد العلميّة ومراكز الدراسات والبحوث والمعنيين للمشاركة في الكتابة في المحور المشار إليه وما يتفرّع عنه من قضايا، وفقاً للشروط الآتية:

- أن لا تكون الدراسة أو البحث منشورة/منشوراً من قبل في أي من المنشورات الورقيّة أو عبر الوسائل الإلكترونيّة، وأن يتعهَّد الكاتب بعدم نشره قبل تسلُّم رد هيئة تحرير مجلة «المنتدى» بقبول النشر أو الاعتذار.
- أن تتسم الدراسة/البحث بالمنهجيّة العلميّة والموضوعيّة، والجدّة في الأفكار والطرح، ويُراعى التوثيق وفق قواعد البحث العلمي،
- الحرص على سلامة اللغة العربيّة نحواً وصرفاً والأسلوب الواضح. وعند إيراد نصوص بلغات أجنبية ضمن الدراسة/البحث ترجمتها نصّاً.
- أن لا تزيد عدد صفحات الدراسة/البحث عن (٣٠) صفحة مطبوعة على الكمبيوتر بحرف *Simplified Arabic 16*، وتُدرج الهوامش وقائمة المصادر والمراجع في نهاية الدراسة/البحث بحرف *Simplified Arabic 14*.
- يُدرَج التوثيق في الهامش ويُعطى أرقاماً متسلسلة حتى نهاية الدراسة/ البحث، ويكون توثيق المصادر والمراجع بالشكل الآتي: (المؤلِّف/الكاتب، عنوان الكتاب/ عنوان الدراسة أو المقالة، الناشر/اسم الدورية ورقم العدد وتاريخه، مكان النشر/الطبع، السنة (للكتب)، رقم الصفحة. وعند تكرار استعمال المصدر أو المرجع يكتب: اسم المؤلف، الكتاب/عنوان الدراسة أو المقالة، اسم الدورية

(ويُشار إليه بعبارة المصدر السابق نفسه، أو مصدر سبقت الإشارة إليه).

- تُرسَل الدراسة/ البحث إلى البريد الإلكتروني لمدير تحرير المجلّة *(kayed@atf. org. jo)*، أو تُسلّم على *CD* لمدير التحرير في مقرّ المنتدى، في موعدٍ أقصاه شهر واحد قبل صدور العدد الذي يتضمَّن المحور المتعلق بموضوع الدراسة/ البحث، مع السيرة الذاتية للكاتب وصورة شخصيّة حديثة.
- تحوَّل الدراسات والبحوث الواردة وفق الإجراءات التحكيمية المتبعة إلى أستاذين متخصصين في موضوعها، وتؤخذ النتيجة من حاصل مجموع العلامتين مقسومة على اثنين، ويُبلَّغ الكاتب بالقبول أو الاعتذار.
- لا تنشر المجلّة إلّا الدراسات والبحوث التي تنجح بالتحكيم، وهيئة التحرير غير ملزمة بإعادة ما لم يقبل نشره أو إبداء أسباب عدم القبول.
- لهيئة التحرير أن تستكتبَ أو تكلِّف باحثين وكُتَّاباً للكتابة في موضوعات معيّنة، وتُعامل دراساتهم وبحوثهم وفق هذه الشروط ودون استثناء أيٍّ منها.
- تدفع المجلّة مكافآت رمزية لأصحاب الدراسات والبحوث المقبولة للنشر.

المنتدى

قسيمة اشتراك
في المجلة وفي كتب المنتدى

أرجو قبول اشتراكي في: مجلة المنتدى ☐

مجلة المنتدى: الإصدارات السّنوية (الكتب) ☐

الاســم: .....

العنوان: .....

قيمة الاشتراك*: طريقة الدفع: **نقداً** ..... ☐

حوالة بنكية (صافي القيمة): بنك الاتحاد / الجبيهة

رقم الحساب/ بالدينار: IBAN JO 46UBSI1090000160101556615101

رقم الحساب/ بالدولار: IBAN JO 05UBSI1090000160201556620102

سويفت كود: UBSIJOAXXXX :**SWIFT**

التوقيع: .....

التاريخ: .....

* تملأ هذه القسيمة وتُرسل مع قيمة الاشتراك إلى العنوان الآتي:

منتدى الفكر العربي: ص. ب ١٥٤١ عمّان ١١٩٤١ الأردنّ

	المجلة	المجلة + الكتب
داخل الأردن	للأفــراد: (٢٠) عشرون ديناراً أردنياً للمؤسسات: (٤٠) أربعون ديناراً أردنياً	للأفــراد: (٥٠) خمسون ديناراً أردنياً للمؤسسات: (١٠٠) مئة دينار أردني
خارج الأردن	للأفــراد: (٥٠) خمسون دولاراً أمريكياً للمؤسسات: (١٠٠) مئة دولار أمريكي	للأفــراد: (١٥٠) مئة وخمسين دولاراً أمريكياً للمؤسسات: (٣٠٠) ثلاثمائة دولار أمريكي